لواء أ. ح. (متقاعد): بهاء الدين حنفي

تقديم: أ. د. محمد عمارة



الفتوحات العربية

في ميزان الإسلام والتاريخ



قنطرة قرطبة التي تصل بين ضفتي نهر الوادي الكبير، وتسهل العبور إلى الجامع الأموي
بنيت في العهد الروماني، وتم تجديدها في ولاية السمح بن مالك الخولاني على الأندلس

الفتوحات العربية الكبرى في ميزان الإسلام والتاريخ

دراسة نقدية لآراء الجنرال جلوب

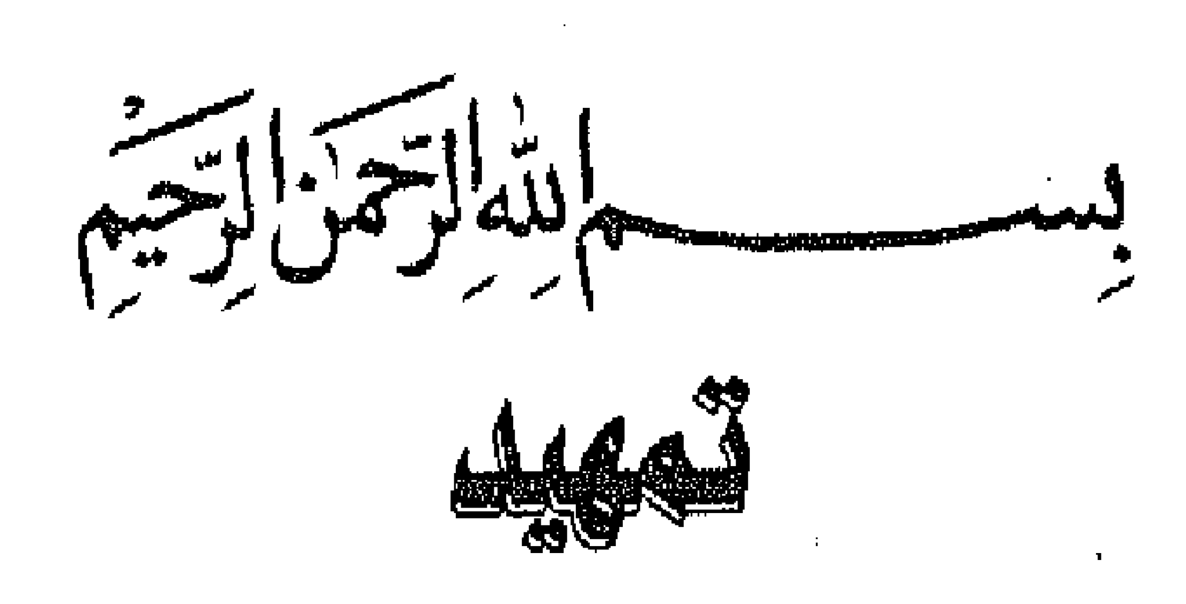
تأليف

لواء أركان حرب متقاعد دكتور محمد بهاء الدين حنفي

تقديم

أ. د. محمد عمارة

هدية ربيع الآخر ١٤٣٥ هـ



تمهيد

- ١ -

● جلـوب باشـا «١٨٩٧- ١٩٨٦م» هـو: اللفتنانـت جنرال سيرجون باجوت جلوب.

● قائد عسـكرى بريطانى كان أبوه شاويش تعليم فى الجيش البريطاني.

● تخـرّج فى كلية وولتش العسـكرية ١٩١٤م. واشـترك فى الحـرب العالمية الأولى- بالميدان الفرنسـي- ثم خدم فى جيش الاحتلال الإنجليزى للعراق ١٩٢٠م. وفى ١٩٢٦م التحق بقوات الصحـراء المحاربة للقبائل العربية العراقية. ثم انتقل إلى شـرق الأردن ١٩٣٠م للتصـدى للقبائـل البدوية. وفـى ١٩٣٩م اختير رئيسـا لأركان حرب «الفيلق العربي»- الجيـش العربى الأردني- وليشرف على تدريبه.

● ومـن موقع الجنرال جلوب في قيـادة الجيش الأردنى، قام- إبان حرب فلسـطين ١٩٤٨م بتشـتيت وحدة الجيـوش العربية، الأمر الذى أدى إلى كارثة تسـليم «اللد» و«الرملة» إلى العصابات الصهيونية.

● ولقـد ظـل جلوب فـى موقعه بالجيش الأردنى إلـى ما بعد العـدوان الثلاثى على مصر أواخـر ١٩٥٦م، عندما اضطر الملك حسـين «١٩٣٥- ١٩٩٩م»- ملـك الأردن- إلـى الاسـتغناء عن خدماته ١٩٥٧م، تحت ضغط الحركة الوطنية العربية.

● ولقـد أقام جلـوب- فى الأردن- علاقات واسـعة مع البدو- الذيـن كانوا عماد الفيلق العربي- وكان البدو يطلقون عليه اسـم «أبـو حنيك»، لما فى وجهه من آثـار إصابة أصيب بها فى الحرب

العالمية الأولى.

● وكما خدم جلوب الاستعمار الإنجليزى من موقعه العسكري- في الأردن والعراق- فلقد خدم التوجهات الاستعمارية الغربية بالكتب التى ألفها.. وهي:

١- «الفتوحات العربية الكبرى» ١٩٦٣م.

٢- «الإمبراطورية العربية» ١٩٦٣م.

٣- «جندى مع العرب» ١٩٥٧م.

٤- «بريطانيا والعرب» ١٩٥٩م.

٥- «الحرب فى الصحراء» ١٩٦٠م.

٦- «قصة الفيلق العربي» ١٩٤٨م. «١»

***

«١» أحمد عطية الله «القاموس السياسي» دار النهضة العربية- الطبعة الرابعة- القاهرة ١٩٨٠م و«موسوعة السياسة»- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ١٩٨٦م.



وفى كتاب الجنرال جلوب «الفتوحات العربية الكبرى» تتجلى النزعة الاستشراقية التى تعمل على تجريد الإسلام وأمته وحضارته من التميز والعبقرية والإبداع، وذلك لزرع اليأس والهزيمة فى وجدان الأجيال العربية والمسلمة المعاصرة، حتى لا تتوجه إلى بعث حضارتها الإسلامية، طالما أن هذه الحضارة خالية من أية إيجابيات الأمر الذى يدفعهم نحو التغريب، والذوبان فى النموذج العلمانى الغربي.. بل وحتى استبدال النصرانية بالإسلام!

● وللجنرال جلوب موقف واضح وصريح- يحمد له- يعلن فيه أن موقف الغرب- السياسى والديني- من الشرق الإسلامى ومشكلة هذا الغرب مع هذا الشرق- التى سميت بـ«مشكلة الشرق الأوسط»- إنما تعود جذورها إلى ظهور الإسلام!.. وليس- كما يحسب البعض- إلى قيام الكيان الصهيونى ١٩٤٨م.. أو «وعد بلفور» ١٩١٧م.. أو اتفاقية «سيكس- بيكو» ١٩١٦م.. ولا حتى «المسألة الشرقية»- العلاقات الأوربية العثمانية- فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

يعلن الجنرال جلوب موقفه هذا- فى تاريخ «مشكلة الغرب مع الشرق»- عندما يقول- فى كلماته التى توقظ النيام وتنبه الغافلين- «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»!

● وفى ظلال هذه الحقيقة، التى تعبر عنها هذه الكلمات، يجب أن تكون القراءة الواعية لموقف الغرب من الشرق، ونظرة الغرب إلى الشرق- الذى يمثل كتاب جلوب «الفتوحات العربية الكبرى» نموذجا لها.. وهو ذات الموقف الذى أطلق عليه المفكر الإستراتيجى الأمريكى- الصهيونى- «صموئيل هنتنجتون» ١٩٢٧- ٢٠٠٨م»: «صدام الحضارات».. والذى

تحدث عنه الرئيس الأمريكي الأسبق «ريتشارد نيكسون» «١٩١٣- ١٩٩٤م»- في سياق الدعوة إلى الاصطفاف الغربي ضد الأصولية الإسلامية، التي تريد- كما يقول- :

١- بعث الحضارة الإسلامية.

٢- وتطبيق الشريعة الإسلامية.

٣- واتخاذ الإسلام دينا ودولة.

فأصحاب هذه الأصولية الإسلامية- كما يقول نيكسون- وإن انطلقوا من بعث الماضي، فإنهم مستقبليون، وهم ليسوا محافظين، وإنما هم ثوار! «٢»

● وإذا كان الجنرال جلوب قد كرس كتابه «الفتوحات العربية الكبرى- كما سيرى القارئ لهذا الكتاب الفذ الذي نقدم بين يديه- للانتقاص من العسكرية الإسلامية.. بل والتشويه للرموز والمثل العليا الإسلامية- بمن في ذلك رسول الإسلام ﷺ وكبار الصحابة.. بل والإسلام ذاته.. وذلك حتى تدير الأجيال العربية والإسلامية الحاضرة ظهورها لهذه الحضارة وذلك التاريخ، ولتستبدل بها النموذج الغربي العلماني.. فإن الرجل قد مثل مجرد حلقة ونموذجا من النماذج الغربية- التي ضمت بابوات.. وكرادلة.. وساسة.. ومستشرقين.. وشعراء- احترفوا- منذ ظهور الإسلام- صناعة التزييف لصورة هذا الدين، والازدراء بمقدساته، وبأمته، وبحضارته.. وذلك لكسر شوكته، والاستيلاء على الشرق من جديد!.

● لقد ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي، وكان الشرق- يومئذ- خاضعا للقهر الحضاري والديني والسياسي والاقتصادي

«٢» نيكسون «الفرصة السانحة» ص ١٤٠ ترجمة: د. أحمد صدقي مراد. طبعة دار الهلال القاهرة ١٩٩٢م.



والثقافي- وحتى اللغوي- للإغريق والرومان والبيزنطيين.. قهر الغزوة التى امتدت عشرة قرون- من الإسكندر الأكبر «٣٥٦-٣٢٤ ق.م»- فى القرن الرابع للميلاد- وحتى «هرقل» «٦١٠-٦٤١م»- فى القرن السابع للميلاد.. فجاءت الفتوحات الإسلامية لتحرر أوطان هذا الشرق وضمائر شعوبه، ولتنزع من فم الأسد الغربى أكبر لقمة استولى عليها فى تاريخه الاستعمارى القديم.. فلقد فتح المسلمون فى ثمانين عاما أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون، وكان فتحهم فتح تحرير، حرر الأوطان، وترك الناس وما يدينون، حتى أن نسبة المسلمين فى الدولة الإسلامية بعد قرن من الفتوحات لم يتعد ٢٠٪ من السكان! «٣».

وفى ظلال الدولة الإسلامية أقامت شعوب الشرق الحضارة الإسلامية، التى أعادت إلى الشرق قيادة الحضارات العالمية، وجعلت الشرق الإسلامى العالم الأول على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون.

وهكذا مثل الإسلام- بفتوحاته التى حررت الشرق من غزوة القرون العشرة- وبالحضارة التى بناها هذا الدين- مثل الزلزال الذى أصاب الهيمنة الغربية على الشرق، وقلب موازين النظام العالمى القديم.. فالشرق، الذى كان قلب العالم المسيحى، قد صار قلب العالم الإسلامي.. ولما انتقل قلب العالم المسيحى إلى أوروبا، هاهو الإسلام يتمدد فى قلب أوروبا- بعد أن أصبحت فراغا دينيا بسبب العلمانية- حتى ليستغيث الكاردينال «المونسنيور جوزيبى برناردينى»- فى حضرة بابا الفاتيكان «يوحنا بولص الثاني» «١٩٢١- ٢٠٠٥م» من أن «الإسلام يفتح

«٣» فيليب فارج، يوسف كرباج «المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى» ص ٢٥ ترجمة: بشير السباعى طبعة دار سينا- القاهرة ١٩٩٤م.

أوروبا فتحا جديدا»!«٤».. ويتحدث بابا الفاتيكان السابق «بنديكتوس السادس عشر» عن «مخاوفه من انقراض المسيحية في أوروبا، ومن أن تصبح أوروبا جزءا من دار الإسلام في القرن الواحد والعشرين»!«٥»

لذلك ولهذا الزلزال الذى أحدثه ظهور الإسلام، والذى أحدثته فتوحاته في النظام العالمي القديم، والذى ظل ممثلا للتحدى الأكبر أمام الهيمنة الغربية، كان التزييف الاستشراقى للإسلام وللفتوحات الإسلامية- منذ القرن السابع للميلاد وحتى هذه اللحظات-.. وهو التزييف الذى جاء كتاب الجنرال جلوب- عن «الفتوحات العربية»- حلقة من حلقاته الممتدة عبر هذا التاريخ الطويل.

وإذا كان سرد نماذج هذه الافتراءات الغربية على الإسلام وفتوحاته وحضارته يحتاج إلى مجلدات.. فإننا نكتفي- في هذا المقام- بنماذج- هي عبارة عن شهادات غربية- على هذا التزييف وهذا الافتراء..

● لقد تحدث المستشرق الفرنسي «مكسيم رودنسون» «١٩١٥- ٢٠٠٤م» عن الصورة الزائفة والعجيبة التى صنعتها الكنيسة الكاثوليكية الأوروبية لرسول الإسلام ﷺ فقال:

«لقد حدث أن الكتاب اللاتين، الذين أخذوا بين ١١٠٠م و١١٤٠م على عاتقهم إشباع هذه الحاجة لدى الإنسان العامى، أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد، دون أى اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر»- كما جاء في كلمات «ر. وساوثرن»- فكان محمد «في عرفهم» ساحرا، هدم الكنيسة

«٤» صحيفة «الشرق الأوسط»- لندن- في ٣٠- ١٠- ١٩٩٩م.

«٥» «بلا جذور: الغرب. النسبية. المسيحية. الإسلام» نيويورك ٢٠٠٦م.



فى إفريقيا والشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية.. وكان محمد- «فى عرف تلك الملاحم»- هو صنمهم الرئيسى وكان معظم الشعراء الجوالة يعتبرونه كبير آلهة السراسنة- «البدو»- وكان تماثيله- «حسب أقوالهم»- تصنع من مواد غنية، وذات أحجام هائلة.

لقد اعتبر الإسلام- فى العصور الوسطى- نوعا من الانشقاق الدينى، أو هرطقة ضمن المسيحية، وهكذا رآه «دانتى» «١٢٩٥- ١٣٢١م».. «٦»

ولم يكن هذا التزييف وقفا على الشعراء الجوالة وجمهورهم من الدهماء والغوغاء.. بل وصل إلى قديس الكاثوليكية وفيلسوفها الأكبر القديس «توما الإكويني» «١٢٢٥- ١٢٧٤م» الذى ادعى على رسول الإسلام- ﷺ- بأنه:

«هو الذى أغوى الشعوب من خلال وعوده الشهوانية، وقام بتحريف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالة محمد إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون فى البادية» «٧»!

● وإلى ذات المستنقع سقط رأس البروتستانتية «مارتن لوثر» «١٤٨٣- ١٥٤٦م» الذى وصف القرآن الكريم بأنه: «كتاب

«٦» رودنسون «الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية»- بحث منشور بكتاب «تراث الإسلام» بإشراف «شاخت» و«بوزورت» القسم الأول ص ٢٧، ٢٨. ترجمة: د. محمد زهير السمهورى. مراجعة: د. شاكر مصطفى. الكويت- عالم المعرفة- ١٩٧٨م.

«٧» هوبرت هيركومر «صورة الإسلام فى التراث الغربى» ص ٣٢، ٣٣. ترجمة: ثابت عيد. تقديم: د. محمد عمارة طبعة نهضة مصر سلسلة «فى التنوير الإسلامى» القاهرة ١٩٩٩م.

بغيض وفظيع وملعون ومليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع» معتبرا أن «إزعاج محمد والإضرار بالمسلمين يجب أن تكون المقاصد من وراء ترجمة القرآن وتعرّف المسيحيين عليه.. وأن على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضا ليقوى إيمانهم بالمسيحية ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب ضد الأتراك المسلمين، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم في هذه الحروب»! «٨»

● ولم يقف هذا التزييف العجيب عند الحقبة الصليبية.. وإنما استمر في ظل الغزوة الاستعمارية الحديثة:

»فوصف «جي توينبي» «١٨٨٩ - ١٩٧٥م» العرب- في كتابه «دراسة في التاريخ العلمي» ١٩٤٩م- بأنهم «غير متحضرين.. وخلْق غريب مستبعد من العالم الهلليني، أو المتطفلين على الحضارة الهللينية الإغريقية.. أولئك المحمديين البدائيين.. وأقصى القول فيهم: إنهم تقليد بربري جاهل زائف لديانة السريان الغريبة عنهم.. وهم لبدائيتهم وقصورهم- لا يسعون إلى اعتناق النصرانية»! «٩»

● بل لقد استمرت صناعة هذه الصورة الزائفة للإسلام وكتابه ورسوله- ﷺ - حتى هذا القرن- القرن الواحد والعشرين.

«فبابا الفاتيكان السابق- بنديكتوس السادس عشر- يتهم الإيمان الإسلامي بأنه «وثني.. لا عقلاني»!.. ويدعي أن رسول الإسلام- ﷺ - «لم يأت بخير.. وأنه قد أمر بنشر دينه بالعنف»!.. ويفتري على القرآن الكريم بادعاء أنه قد «أضيفت إليه تعليمات أوامر اللئام» التي

«٨» المرجع السابق. ص ٢١.

«٩» سيجريد هونكة «الله ليس كذلك» ص٨، ١١، ١٤ ترجمة: د. غريب محمد غريب طبعة دار الشروق- القاهرة ١٩٩٥م.

تحض على الإكراه فى الدين!»«١٠»

● وفـى نوفمبر ٢٠٠٧م يصدر فـى إنجلترا تقرير أعدته لجنة من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات والخبراء فى الإعلام جاء فيه:

«إن الصورة السائدة عن الإسلام فى الغرب هو أنه يماثل النازية والفاشـية والشيوعية.. وأن ازدراء الإسـلام، وتشبيهه بالشيطان ليس مقصورا على الصحافة الصغيرة والشعبية.. بل إن صورته هذه هى السـائدة فى الصحف الكبري.. وفى الكتب.. والمحاضرات الجامعية»! «١١»

هكذا احترفت مؤسسات الهيمنة الغربية- الدينية والسياسية- صناعة الصور المزيفة للإسلام وأمته وحضارته ورموزه ومقدساته، لتشـحن شـعوبها بكراهيتـه- «الإسـلاموفوبيا»- فـى صراعهـا التاريخـي- الصليبـي.. والحديث- لإعادة اختطاف الشـرق من التحريـر الذى صنعته الفتوحات الإسـلامية.. ولتصور لشـعوبها الغزو والاستعمار فى صورة «الرسالة النبيلة» التى يقوم بها الرجل الأبيض لتمدين المسلمين المتخلفين!

وفى سياق هذا «التزييف التاريخي» جاء كتاب الجنرال جلوب عن «الفتوحات العربية الكبرى»!

لكن.. وحتى لا نبخس الناس أشـياءهم، وحتى لا نقع فى خطأ الإطـلاق والتعميم، وحتى نلتزم بالمنهاج القرآني فى التمييز بين فرقاء «الآخر» وتياراته وتوجهاته- منهاج

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ﴾ (آل عمران: ١١٣)

«١٠» من محاضرته الشهيرة فى جامعة «ريجنسبورج» الألمانية، فى ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦م انظر نص المحاضرة بكتابنـا «الفاتيكان والإسلام» ص١٥٢- ١٦٢. طبعة مكتبة وهبة- القاهرة ٢٠١١م.

«١١» «الأهرام» فى ٢٢- ٧- ٢٠٠٨م.

فلابد من الإشارة إلى أن الفكر الغربى قد ارتفعت فى فضاءاته أصوات منصفة للإسلام وأمته وحضارته وللفتوحات الإسلامية الكبرى، تجعلنا- نحن المسلمين- نرد على افتراءات الجهلاء بإنصاف العلماء..

● ففى مواجهة دعاوى انتشار الإسلام بالسيف، يشهد البروفيسور الفرنسي «مونتيه» «١٨٥٦-١٩٢٧م»- الذى ترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية، وكتب عن «حاضر الإسلام ومستقبله»- على أن الإسلام قد انتشر بالعقل والمنطق والسلم، فيقول:

«إن الإسلام فى جوهره دين عقلى، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية، والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي» **RationaLism** «بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق.. إنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل.. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام.. لقد حفظ القرآن «منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائما بمبدأ الوحدانية، فى عظمة وجلاء وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وإن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسى، والبساطة الجوهرية فى الصورة التى يصاغ فيها هذا الدين، والدليل الذى كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعا يلتهب حماسه وغيرة، إن هذا كله يكوّن الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين.

وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو



من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هى تبعا لذلك فى متناول إدراك الشخص العادى، أن تمتلك وإنها لتمتلك فعلا، قوة عجيبة، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس» «١٢»

● وفى مواجهة دعاوى إكراه المسلمين الأوائل المسيحيين الشرقيين على اعتناق الإسلام، يشهد المستشرق الإيطالي «كايتاني» «١٨٦٩ - ١٩٢٦م»- صاحب «حوليات الإسلام» ومعه «آرنولد» «١٨٦٤ - ١٩٣٠م» فيقولان:

»لم يضطهد العرب أحدا فى السنوات الأولى من أجل الدين، كما أنهم لم يعملوا على ضم أحد إلى دينهم، ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون فى ظل الإسلام، بعد الفتوحات الأولى، بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة.. وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قلما كانوا فى عهد الفتوحات الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم.. ونستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على التسامح.. إن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق.. إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح، وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى.. ولقد ظل غير المسلمين ينعمون، فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجات من التسامح لم نكن نجد لها مثيلا فى أوروبا حتى عصور حديثة جدا.. وإن التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم، طبقا لتعاليم القرآن.. وإن مجرد بقاء

«١٢» أرنولد «الدعوة إلى الإسلام» ص ٤٥٥، ٤٥٦. ترجمة: د. حسن ابراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة ١٩٧٠م.

الكنيسة المسيحية القومية فى إفريقيا الشمالية مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أى زعم بأن تحولهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه». «١٣»

● ويؤكد هذه الحقيقة- المستشرق الإنجليزي «جورج سيل «١٦٩٧- ١٧٣٦م»- مترجم القرآن إلى الإنجليزية فيقول:

«لقد صادفت شريعة محمد ترحيبا لا مثيل له فى العالم.. وإن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما ينخدعون انخداعا عظيما»! «١٤»

● ويشير الفيلسوف الأمريكي «جون تايلود» «١٧٥٣- ١٨٢٤م» إلى العوامل الذاتية التى امتاز بها الإسلام، والتى ضمنت له سرعة الانتشار، وهزيمة المسيحية التى أصابتها عوامل الإعياء.. فيقول:

«كان الناس، في الواقع، مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة، يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم فأزال الإسلام، بعون من الله، هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويوما للحساب».

وأعد للأشرار عقابا أليما، وفرض الصلاة والزكاة والصوم،

«١٣» المصدر السابق. ص ٧٠، ٧٧، ٧٨، ٩٧، ١٢٣.

«١٤» المصدر السابق. وانظر «الإسلام فى عيون غربية» ص٨١



وفعل الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة، وسفسطة المنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية» «١٥»

● ولقد بلغ إنصاف هؤلاء العلماء الغربيون للإسلام القمة، عندما دعت المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكة» «١٩١٣-١٩٩٩م» شعوب الشرق إلى بناء نهضتهم الحديثة- انطلاقا من أصولها الحضارية التاريخية، تلك «الأصول والجذور التي ينبغي على العالم العربي أن يجددها ويتعهدها حتى يشق طريقه إلى الأمام.. أصول:

١- اللغة العربية.. فهي المفتاح الرئيسي إلى عالم الفكر الذاتي للعرب.

٢- والدين الإسلامي، النقي، المنفتح على العالم، الذى لا يعارض التطور العقلي، وهو المحور الذى يدور حوله الوجود العربي.

٣- وعودة الوعي، والرجوع إلى الهوية الذاتية.. فالتعلم من الماضي لبناء المستقبل حق مفروض.. ورفض غلو التقوقع والانغلاق.. وغلو الانفتاح المطلق بلا قيد ولا شرط، المؤدى إلى الاغتراب، هو شرط النجاة من الانحياز لجبهة واحدة، الأمر الذى يتهدد الحياة».

ثم ختمت هذه المستشرقة حديثها عن البعث الإسلامي بقولها:

«إن الإسلام هو ولا شك أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة

«١٥» المصدر السابق. ص٩٠.

وإنصافا.. نقولها بلا تحيز.. ودون أن نسمح للأحكام الظالمة بأن تلطخه بالسواد. وإذا ما نحينا المظالم التاريخية الآثمة في حقه، والجهل البحث به، فإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق، مع ضمان حقه في أن يكون كما هو» «١٦»

تلك إشارات إلى نماذج من المواقف الغربية إزاء الإسلام وأمته وحضارته.. مواقف التزييف والافتراء.. ومواقف الاحترام والإنصاف.. نقدم بها بين يدى كتاب قد كتبه عالم فى التأريخ العسكرى، وباستراتيجيات المعارك التى كتب عنها.. وصبور على التعامل مع المصادر والمراجع، بروح نقدية، أثمرت نزاهة فى إصدار الأحكام.. كما حباه الله انتماء عميقا وواعيا للإسلام وأمته وحضارته، وإخلاصا للحقيقة، التى هى ضالة المؤمن، يسعى إليها، كى يقدمها للقراء..

إنه- ولا نزكيه على الله- واحد من الذين يفخر بهم علم التأريخ العسكرى فى بلادنا.. لقد وفقه الله لنقد ما جاء فى كتاب الجنرال جلوب عن «الفتوحات العربية الكبرى».. فكسر شوكة الباطل، وأنصف الحقيقة التى أضاءت سماء الشرق إبان تلك الفتوحات..

ونحن، إذ نقدم لهذا الكتاب، ندعو الله- سبحانه وتعالى، أن ينفع به.. إنه خير مسئول وأكرم مجيب.

١٠ من ذى القعدة ١٤٣٤ هـ
١٦ من سبتمبر ٢٠١٣ م

أ.د. محمد عمارة

«١٦» سيجريد هونكة «الله ليس كذلك» ص ٩٥، ٩٦، ٩٩، ١٠١. ترجمة: د. غريب محمد غريب طبعة دار الشروق القاهرة ١٩٩٥م. وانظر فى ذلك- أيضا- كتابنا «الإسلام فى عيون غربية» طبعة دار الشروق- القاهرة ٢٠٠٥م وكتابنا «أسباب انتشار الإسلام» طبعة دار السلام- القاهرة ٢٠١٢م وكتابنا «عوامل امتياز الإسلام» طبعة دار السلام- القاهرة ٢٠١٢م.



مقدمة

تمثل الفتوحات الإسـلامية منعطفًا مفصليا فى تاريخ الإنسانية حيث كانـت البدايـة التى فجـرت عصر الحضارة الإسـلامية الـذى غمر أقطار الأرض لعدة قرون. وكان انتصار المسـلمين علـى كل من الفرس والروم فـى وقت واحد وفـى فترة زمنية بالغـة القصر معجزة إلهيـة بكل الأبعاد والمقاييس. لقد أشاد الكتاب والمؤرخون الأجانب بالفتوحات الإسلامية ولكن فى عبارات عامة لأنهم لا يستطيعون إنكار عظمتها، وتركوا الباب مفتوحًا لمناقشـة تفاصيلها كى تتاح لهم الفرصة للطعن فيها وتصفيتها مـن مضمونها وإعـادة صياغتها فى الإطار الذى يخـدم أهدافهم، وكتاب الجنرال «جلوب» الذى نحن بصدد بحثه هو خير دليل ومثال على ذلك.

بـدأ اهتمامـى بالتأريخ لمعـارك الفتح الإسـلامى وبشـكل أكاديمى عندما سجلت رسالتى لنيل الماجستير عام ١٩٧٨م من معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة ولكن الظروف حالت دون إكمالها فقد هاجر الأستاذ المشرف عليها فجأة للخارج، كما كلفت بحكم عملى بالقوات المسلحة بإعداد مرجع عن التأريخ العسـكرى استغرق إعداده أكثر من عامين وقد نال والحمد لله كأس وزير الدفاع للتأريخ العسكرى عام ١٩٨٤م. وما أن بدأت أعيد ترتيب أوراقى المبعثرة والتى كنت قد جمعتها من أجل رسالة الماجسـتير، حتى انشـغلت من جديد فى إعداد رسـالتى لنيـل دكتوراه الفسـلفة فى الإسـتراتيجية القومية من أكاديمية ناصر العسكرية العليا. وبحصولـى على درجة الدكتوراه عام ١٩٨٦م، عـاد حنينى إلى اهتمامى القديـم فقمت بكتابة مقالين تم نشـرهما بمجلة الأزهر الشـريف عامى ١٩٩١م، ١٩٩٢م. ثـم حالت مشـاغل الحياة وأحداثها دون اسـتكمال المشـوار وعادت الأوراق والملفات إلـى الرفوف مرة أخرى. والآن، وقد بلغـت عمرًا أستشـعر معه أنه لـم يتبق من الزمن فسـحة أخرى، حزمت أمرى وتوكلت على الله كى أتابع المسيرة.

لقد أتاحت لي رحلتي السابقة مقابلة ومناقشة العديد من العسكريين المهتمين بالتاريخ العسكري، وللأسف هالني إشادة معظمهم بما ألفه الجنرال البريطاني «جون باجوت جلوب» في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى). ويرجع اختياري لهذا الكتاب لنقده إلى سببين؛ أولهما أن لكاتبه بعدًا خاصًا مستمدًا من كونه تولى رئاسة أركان الجيش الأردني لعدة عقود ولعب من خلال منصبه دورًا بارزا في خدمة المخطط الاستعماري لبلاده في الوطن العربي وبالتالي فإن كتابه هذا نال عند صدوره دعاية واسعة شدت اهتمام العسكريين. أما السبب الثاني، فهو إعجاب العديد من العسكريين العرب وبخاصة العلمانيين منهم بما سجله «جلوب» في كتابه، رغم ما حواه من طعن وتجريح في الإسلام ونبي الإسلام وشرح مضلل لبعض أحداث معارك الفتح الإسلامي، وهو ما عكس عدم إلمام بعض العسكريين العرب بالتأريخ الحقيقي لمعارك الفتح. ولقد اخترت أن يقتصر بحثي ونقدي لمناقشة الأحداث في الفترة ما بين عام ١٣هـ وعام ٢١هـ لكونها الفترة الحاسمة في تاريخ الفتح الإسلامي والتي استمرت آثارها ممتدة حتى اكتمال بناء أركان الدولة الإسلامية الكبرى.

صدر كتاب الجنرال «جون باجوت جلوب» (الفتوحات العربية الكبري) عام ١٩٦٣ من دار النشر: من الشرق والغرب. وهو من تعريب وتعليق الأستاذ خيري حماد، وكانت لتعليقاته على الكتاب فائدة كبيرة في بحثي وهو ما يستحق عليه الشكر لما بذله من جهد. ويقع الكتاب في ٥٦٧ صفحة. وخطتي في هذا البحث، هي عرض آراء الجنرال «جلوب» بكل أمانة، ثم محاولة نقدها والرد عليها بموضوعية.

وما توفيقي إلا بالله

لواء أركان حرب دكتور [بالمعاش]

محمد بهاء الدين حنفي

الفصل الأول

الدور الاستشراقى للجنرال «جلوب»

قال تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة: ١٢٠).

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦).

(كان محمد يناجى روح الخداع أو الحماسة التى لا تقطن السماء وإنما تسكن فى عقل النبى ..)

«إدوارد جيبون»

(اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها)

(لم يكن محمد فى الحقيقة قائدًا عسكريًا ذا موهبة عسكرية بالغة، ولم يكن يشترك بنفسه فى المعارك بل يظل فى الصفوف الخلفية لا يشترك فى القتال اشتراكا فعليًا .. ومن الصحيح أنه استخدم وسائل الاغتيال والقتل أو رتب حوادثهما ولكنه تمكن فى الغالب من التأثير تأثيرًا مطلقًا على أتباعه الأكثر ميلا منه إلى سفك الدماء ..)

«جون باجوت جلوب»

(الفتوحات العربية الكبري)

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو»

قام الجنرال «جلوب» بالتأريخ للمعارك الحربية التي جرت خلال الفتوحات الإسلامية وكان من أشهر مؤلفاته كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) الذي نحن بصدد نقده، ثم كتابه (إمبراطورية العرب). وكان من المتوقع، وهو الخبير العسكري، أن يكون موضوعيًا في تأريخه لتلك المعارك. إلا أنه قام بحشر حجم ضخم من أفكار وآراء المستشرقين بين فقرات كتابه حتى أصبحت تمثل امتدادًا للاستشراق أكثر منها تأريخا لعسكري محترف.

إن التعرف على الاستشراق ودوره وأهدافه، قبل الرد على مطاعن «جلوب»، أصبح ضرورة كي تتضح بجلاء معالم الرؤية التي صاغ «جلوب» من خلالها آراءه وتعليقاته. وسوف أكتفي بعرض ملخص موجز لما ذكره د. محمود حمدي زقزوق في كتابه «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري بين الشرق والغرب». (١٧)

بداية، لا يمكن إنكار الدور الإيجابي للمستشرقين والذي تمثل في التدريس الجامعي وجمع المخطوطات الإسلامية وفهرستها والتحقيق والنشر والترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية، كذا التأليف في شتى مجالات الدراسات العربية والإسلامية، وهي بلاشك جهود مشكورة، إلا أن الدور السلبي للاستشراق كان بالغ الخطورة والتأثير وما يزال حتى اليوم.

كان للاستشراق اتجاهان، أولهما الاتجاه اللاهوتي التنصيري والذي بدأ في مرحلة مبكرة، وتلخصت آراء اللاهوتيين في وصف محمد ﷺ بالشيطان، وبأن القرآن الكريم مزيج من اللغو والباطل ألفه محمد معتمدًا على

«١٧» ص ٢٠- ٣٢، ص ٥٩.



المصادر اليهودية والنصرانية . وظل هذا الاتجاه سادرًا في غيه وجدله العقيم ناظرًا للإسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية لا يتسع المجال هنا لسردها .

أما الاتجاه الثاني فقد كان نسبيًا بالمقارنة إلى الاتجاه الأول أقرب إلى الموضوعية والعلمية ، لكن أثر الفكر اللاهوتي التنصيري ظل حيًا وأصبح هناك تجارب متبادلة بين الاتجاهين ، وما يزال هذا التحالف قائمًا حتى اليوم . فمثلا جاءت أولى المحاولات الاستشراقية العلمية الجادة عن الإسلام على يد «هادريان ديلاند» في كتابه (الديانة المحمدية) عام ١٧٠٥م . وقد أثار هذا الكتاب اهتمامًا عظيمًا لدرجة أثارت الشبهات حول المؤلف نفسه واتهامه بالدعاية للإسلام ، فما كان من المؤلف إلا أن برر موقفه بقوله : (صحيح أن الدين الإسلامي دين سيئ جدًا وضار بالمسيحية إلى حد بعيد ولكن ، أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه ؟ ألا ينبغي للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله ؟ إن الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة أكثر أمانًا وأشد قوة ..) . (١٨)

يقول «الأستاذ أمين مدني» في مقال له في (كتاب الهلال يناير ١٩٧٦م) ، (إن الكنائس المسيحية قد استغلت المستشرقين في التبشير بالمسيحية ، ولقد ساق التعصب الأعمى للمسيحية الكثير منهم لمحاربة الإسلام ومحاولة النيل من رسالته وتعاليمه وتاريخه بشتى المفتريات ومختلف التقولات ، كما استغلتهم دول الاستعمار في دعم نفوذها

«١٨» ص ٣٣، ٣٤.

السياسي والاقتصادي والثقافي، واتخذت منهم السفراء والملحقين والقناصل). (١٩)

كما أشار «الأستاذ خوجة كمال الدين» في كتابه (المثل الأعلى في الأنبياء)، إلى أسلوب المستشرقين في الدس والكيد للإسلام، فقال (إليك بيان الطريقة التي دأبوا عليها في نقد الديانات الأخرى، يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرف خفي، ويليه الآخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة، ويأتي ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرحلة النظرية. أما الرابع فيخلق من النظرية حقيقة. وهكذا تتطور الفكرة أربعة أطوار أو خمسة حتى تصبح حقيقة مقررة!!). (٢٠)

والأمثلة على خدمة الاستشراق لأهداف الاستعمار عديدة، منها على سبيل المثال ما قام به المستشرق الإنجليزي «بالمر» عندما قدم دراسته عن استكشاف فلسطين وسيناء لصالح اليهود والتي ربما كانت وراء إقامة دولتهم، كما أنه قام بتأليب بدو سيناء ضد الثورة العرابية عام ١٨٨٢م تمهيدًا لغزو مصر واحتلالها.

وكراهية المستشرقين للشريعة الإسلامية بالغة، حتى إنهم لايستطيعون إخفاءها ويمكن تتبع هذه الكراهية في مؤلفاتهم وبخاصة المستشرقين اليهود. ولقد تضمن كتاب الهلال (أعلام المستشرقين) العدد الأول عام ١٩٧٦م، تفاصيل ما ذكره بعضهم مثل رينان، جولد سيهر، مرجليوث (أستاذ د. طه حسين) وغيرهم، حيث حاولوا إيهام المسلمين بأن الشريعة الإسلامية هي سبب تأخرهم وأنها العائق أمام تقدمهم ونهوضهم وأثاروا الكثير من الشبهات حول نصوصها المحكمة.

يحدد «د. زقزوق» في كتابه السابق الإشارة إليه، الهدف

«١٩» ص ٢٦. «٢٠» ص ٦٣.



الدينى للاستشراق بأنه : (٢١)

١- محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه وإبرازها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية، والانتقاص من قيمه والحط من قدر نبيه.

٢- حماية النصارى من خطر الإسلام بحجب حقائقه عنهم، وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام له.

٣- التبشير والتنصير للمسلمين من خلال إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسهم وتشكيكهم فى معتقداتهم وتراثهم وشريعتهم.

لقد انطبعت بصمات الاستشراق بجانبه المظلم الكريه على العديد من الكتاب الغربيين، فنرى «إدوارد جيبون» فى كتابه (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها)، يكيل الاتهامات فى جهل وإسفاف للنبى (ﷺ) فيقول عنه (وعلى الرغم من تسنمه ذروة البلاغة فقد عاش أميا بعيدًا عن مراكز الحضارة فلم يتعلم فى شبابه فن القراءة والكتابة. وأعفاه الجهل السائد فى زمانه من اللوم والخجل .. وكان محمد يناجى روح الخداع أو الحماسة التى لا تقطن السماء وإنما تسكن فى عقل النبى .. وينسب النبى الشريعة الدموية نفسها، التى يلح عليها القرآن مرارًا وتكرارًا إلى التوارة والإنجيل .. كانت مصلحة النبى تملى عليه سماحته .. وفى الشهور الأولى من حكمه أعلن محمد الحرب المقدسة .. وواصل العربى الجمع بين مهنة التجارة والسلب .. وجاء العرب الرحل من كل فج وانضموا تحت راية الدين والأسلاب .. واضطر محمد فى تدبير شئونه السياسية إلى أن يخفف من حدة التعصب

«٢١» ص ٧٢.

وأن يتمشى إلى حد ما مع نزوات أتباعه وأهوائهم، بل استخدم رذائل البشر كوسيلة لإنقاذهم، وكثيرًا ما كان استخدام الخداع والخيانة والقسوة والظلم أداة لنشر الدين ..). (٢٢) وللأسف يقول مراجع هذا الكتاب «د. أحمد نجيب هاشم» في تقديمه له (هذا هو جيبون .. وهذا هو كتابه الخالد، بل ملحمته المنشورة وسمفونيته الرائعة .. أضعه بين يدى قراء العربية) !!، وهو ما يبين مدى تأثر العلمانيين بالمستشرقين.

لقد ألف «جلوب» كتابه وهو يعيش ويعمل لدى ملك الأردن، الأمر الذى اضطره الى أن يبذل جهدًا أكبر حتى لا تظهر مطاعنه فى الإسلام بنفس الشكل الواضح الجلى كما فى مؤلف «جيبون». لقد تعمد «جلوب» أن يجزئ فكرته فى فقرات متناثرة بين سطور كتابه كى تؤتى أثرها فى القارئ دون أن يشعر.

وهو يكرر فكرته بإلحاح وفى صياغات مختلفة معتمدًا فى كثير من الأحيان على أسلوب الهمز واللمز دون التصريح. وليس فى مقدورنا سرد وعرض الحجم الهائل من أباطيل «جلوب»، ونكتفى ببعض الأمثلة.

يقول «جلوب» عن النبى (ﷺ)، (كانت خطوط دعوته متناهية فى بساطتها .. وذكر محمدًا ليعزز أقواله أن الوحى الإلهى يهبط عليه مباشرة .. وقد روى كثيرًا من القصص التى رواها العهد القديم وإن كانت رواياته تختلف أحيانًا عنها فى التفاصيل على الأقل، ولما كان المعروف أن محمدًا لا يقرأ ولا يكتب فمن المحتمل أنه سمع هذه القصص وأعاد تلاوتها معتمدًا على ذاكرته .. ويبدو أن اطلاع محمد على اليهودية لم يكن أوسع من اطلاعه على النصرانية فقد آمن مثلا بأن عقيدة التثليث تتألف من الله والمسيح والعذراء ..). (٢٣)

«٢٢» ص ٣٣، ٣٤، ص ٦٠، ص ٦٢، ٨١ جـ ٣.

«٢٣» ص ٦٢– ٦٣.



إنهـا نفس الأباطيل التى رددها المستشـرقون فهو ينفى نزول الوحى على النبى (ﷺ) ويتهمه بتأليف القرآن اعتمادًا على ما ورد بالتوارة والإنجيل ثم أخيرًا يدعى كذبًا أن النبى آمن بالتثليث . . وكل مسـلم يؤمـن بأن القرآن الكريم هو كلام الله الموحى به إلى النبى ﷺ ، وأن الإسلام دين التوحيد .

ويبرر «جلوب» إيمان العرب بالإسـلام بقوله (استـهوت هذه العقيـدة عقول العرب البسـطاء . . وكثيرًا ما أطلق على الإسـلام تعبير هرطقة مسيحية) . (٢٤) والهرطقة تعنى الكفر . . ويسترسل «جلـوب» فى سـرد أكاذيبه عن الرسـول فيقـول (وكان النبى قد أظهـر طيلة الاثنى عشـر عامًا التى انصرمت منذ بدء الرسـالة فى مكـة درجة غير عادية من الصبر والاحتمال لـكل ما وجه إليه من أذى وسوء معاملة . . أما الآن . . يقصد بعد الهجرة إلى المدينة – فقد تحولت طبيعته تمام التحول وراح يقول للمسلمين إن الوحى قد أمره بفرض الجهاد على المسـلمين ضد المشـركين) . (٢٥) ويضيـف «جلوب» (ولم يكن محمد فى الحقيقة قائدًا عسـكريًا ذا موهبة عسـكرية بالغة ، ولم يكن يشترك بنفسه فى المعارك بل يظل فى الصفوف الخلفية لا يشـترك فى القتال اشتراكًا فعليًا» . . ويضيف «ومن الصحيح أنه اسـتخدم وسـائل الاغتيـال والقتل أو رتـب حوادثهما ولكنه تمكن فى الغالب مـن التأثير تأثيرًا مطلقًا علـى أتباعه الأكثر ميلا منه إلى سـفك الدمـاء) . (٢٦) ويضيـف «جلـوب» (وكان أتباعـه يطيعونه فى مثل هـذه الظروف الخطرة الرجراجـة طاعة عميـاء لأنهم يعتقدون أن كل مـا يقوله أو يفعله إنما هو من عند الله) . (٢٧)

«٢٤» ص ٤١. «٢٥» ص ٨٥.

«٢٦» ص ١٢٦. «٢٧» ص ٦٥٨ – ٦٥٩.

هـذا هو رأى الجنـرال «جلوب» فى نبى الإسلام، يـراه ذا طبيعة متحولة، يسفك الدماء ويجبن عن القتال ولا يمتلك موهبة عسكرية، كما أنه يدعى نزول الوحى عليه ليخضع المسلمين السذج البسطاء لما يريد. لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحتمون بالرسول (ﷺ) إذا حمى وطيس القتال ويقولون إنه كان أقربهم إلى عدوهم فى المواقف الحرجة. إن المكتبة الإسلامية عامرة بالمؤلفات والأبحاث التى تناولت الفكر العسكرى للرسول، وقد كان لى مقال عنها نشر فى مجلة الكلية الحربية المصرية أواخر السبعينيات. ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الرد على مفتريات «جلوب»، إذ إن هدفنا هو الكشف عما يعتقده ويسعى إليه.

كما وقع «جلوب» فى بعض الأخطاء التاريخية، فمثلا ذكر أن «أبا جهل» هو عم النبى، وأن بعض المسلمين ارتد فى صدر الإسلام وهو ادعاء باطل لا سند له.

كما ذكر قصة الغرانيق التى ابتكرها المستشرقون والتى يقول فيها إن النبى هادن المشركين من أهل مكة فاعترف بآلهتهم الصغرى مقابل اتباعهم له فى عبادة الله!! ولقد ذكر «د. محمد حسين هيكل» فى كتابه (حياة محمد) أن حديث الغرانيق قال عنه ابن إسحاق (إنه من وضع الزنادقة) وفند كل ما ادعاه المستشرقون من أكاذيب على رسول الله (ﷺ).

لقد تعمد «جلوب» أن يضع فى صدر بعض فصول كتابه، آيات من القرآن الكريم متستهدفًا اكتساب ثقة القارئ المسلم. ولكن سرعان ما يتضح الهدف الخبيث من وراء ذلك وهو الطعن فى القرآن الكريم. فهو مثلا يضع سورة الفيل فى مقدمة أحد فصوله ثم يقول (تقول الأساطير إن أبرهة نائب ملك الحبشة فى اليمن أراد بدافع تعلقه بالنصرانية أن يدمر كعبة قريش فى مكة) ثم يسرد القصة وينتهى إلى القول (ويبدو فى غضون ذلك أن الجدرى

قد انتشر بسرعة بين رجال الجيش الحبشي ونسي الجنود هدف الحملة، وتخلى أبرهة عن هدفه في هدم الكعبة). (٢٨) ببساطة وخبث ينكر «جلوب» ما ورد في السورة الكريمة التي تعمد أن يضعها كاملة في بداية الفصل لينكر وقوع معجزة الطير الأبابيل وأن ما حدث كان بسبب مرض الجدرى فحسب.

وللأسف يوافق العلمانيون «جلوب» في رأيه هذا، كما فعل «د. طه حسين في كتابه (الشيخان). لا شك أن من شاهد حادثة الفيل من أهل مكة كان في حوالي الخمسين من عمره عندما نزلت سورة الفيل على النبي وكان من اليسير عليه أن يكذب الرسول وينكر وقوعها، وهو مالم يحدث. لقد ذكر «ابن هشام» في سيرته أن من أصيب بحجارة السجيل من الأحباش تساقطت أعضاؤه ونزف بكثرة وهي ليست من أعراض مرض الجدرى، فضلا عن أن الإصابة بالمرض تحتاج إلى وقت طويل كي تؤتي آثارها. وحتى لو كانت قصة انتشار الجدرى صحيحة، فهي لا تعني نفي وقوع معجزة، الطير الأبابيل، فلا شك أنه من السخف القول بأن الجدرى أوقف الفيل قبل عدة أمتار من الكعبة.

وإذا كان «جلوب» قد وضع بعض آيات القرآن الكريم على سبيل لي الحقائق كما رأينا في سورة الفيل، فإنه من جانب آخر تجاهل بعض آيات القرآن الكريم التي ليس من صالحه ذكرها مثل سورة الروم وهي مكية تحققت يوم الحديبية كما ذكر «القرطبي» في تفسيره (٢٩) أي نزلت بعد انتصار الفرس على الروم فحزن المسلمون لتعاطفهم مع الروم كونهم من أهل الكتاب بينما الفرس وثنيون، ثم فرحوا عندما نزلت السورة الكريمة تبشرهم بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، وهو ما حدث بالفعل وكان أمرا يمثل معجزة قرآنية في حد ذاته. لقد انتصر

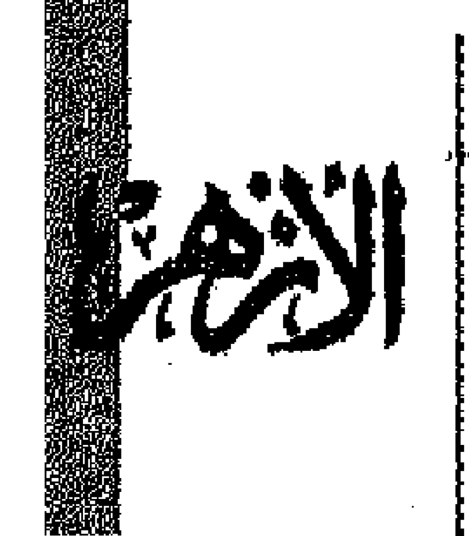
«٢٨» ص ٥٥ – ٥٦.

«٢٩» ص ٥٠٨٥ – ٥٠٨٧.

الفرس على يد «كسرى الثانى» وغالبًا عام ٦٢٠م، ثم تمكن «هرقل» ملك الروم من هزيمة الفرس فى معركة شهيرة فى قلب فارس عام ٦٢٧م كما ذكر «هـ . ج . ويلز» فى كتابه (موجز تاريخ العالم). (٣٠) ولقد راجعت ما سجله «جلوب» عن تلك الفترة الزمنية فلم أجد منه إشارة واحدة عن هذا الحدث وأقصد به نزول سورة الروم وما تبعها.

ويتضح عداء «جلوب» للشريعة الإسلامية من خلال قوله (ولما كانت الدولة الإسلامية الأولى دولة دينية ثيوقراطية، تعتمد فى قوانينها على شرائع الله فإن الدين لا العنصر أو القومية كان العامل الذى يفرق بين الناس ويميز الواحد منهم عن الآخر .. ويضيف، ولم يضعف أمر الحكم الدينى أو يختلف إلا فى الأربعين سنة الأخيرة - كان ذلك عام ١٩٦٣ - من جراء تحول الدولة فى البلاد الإسلامية من الدين إلى العلمانية .. ولقد بنيت الدولة العلمانية الحديثة على الأسس المتبعة فى أوروبا الغربية لا على أسس التقاليد الإسلامية). (٣١) وهكذا يقدم لنا «جلوب» خلاصة الفكر العلمانى الذى يعتقد أن تطبيق شريعة الله يحول الدولة إلى دولة دينية ثيوقراطية، وأن الصبغة العلمانية للدولة تجعل منها دولة مدنية كمفهومنا المعاصر مقابل الدولة الدينية، وأن الشريعة الإسلامية مجرد تقاليد موروثة وأنها سبب تخلف الدولة الإسلامية، وإلغاءها هو السبيل لبناء الدولة العلمانية الحديثة على النمط الأوروبى الغربى. لم يعرف الإسلام حكما ثيوقراطيا كالذى عاشته أوروبا فى العصور الوسطى. فلم يكن أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أو أى من الخلفاء الراشدين حاكمًا ثيوقراطيا بالمفهوم الغربى للكلمة (وهى تأله الحاكم باسم الدين) كما حدث فى أوروبا. إن أول ما قاله أبو بكر عندما

«٣٠» ص ١٩٥. «٣١» ص ٣٣٣.



ولـى الخلافة: (وليت عليكم ولست بخيركم .. فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى..) كما قال عمر بن الخطاب وهو يخطب فى المسجد (أخطأ عمر وأصابت امرأة..) عندما طالب بالحد من المغالاة في المهور، والأمثلة كثيرة، فكيف لنا أن نسمى حكمهم حكما ثيوقراطيا؟.

ونأتى أخيرًا إلى أكثر الموضوعات إثارة للشبهة، وهى تركيز «جلوب» على مصطلح «الحماسة الدينية» الذى ابتكره فى كتابه واستخدمه لحل العديد من الطلاسم التى قابلته، فالحماس الدينى العاطفى الأهوج المندفع بلا روية أو عقل كان هو السبب فى الفتح الإسلامى، كما كان السبب فى انتصار المسلمين .. إلخ.

ولـم يخف «جلوب» هدفه، فيقول فى مقدمة كتابه (لقد كان هدفى من هذا الكتاب بصورة عامة أن أعرض عصر «الحماس الدينى»..)(٣٢)

هذه الملامح العامة عن رأى «جلوب» فى الإسلام ونبى الإسلام، تجعلنا حذرين فيما يسوقه من آراء حول معارك الفتح الإسلامى وقادة هذا الفتح، وعلينا أن نعيد قراءة آرائه مرات دون تحيز أو ميل، وفى موضوعية كاملة كى نستخرج منها المقبول سندا وعقلا ونطرح ما سواه.

قال «د. على حسن الخربوطلى» فى كتابه (المستشرقون والتاريخ الإسلامي): (والحق أننا لن نجرد المستشرق أو الباحث الأجنبى فى الدراسات الإسلامية وما إليها من التأثر بمواريثه الدينية الخاصة وبمزاجه الشخصى، وبالظروف والملابسات التى تحيط به .. على أن المبالغة فى التأثر بالمؤثرات الخاصة فى مجال البحث العلمى، المفروض فيه أن يكون نزيها منصفا، هى ما يعاب على الباحثين الذى يخلطون بين أصول العلم ونزاهة البحث ..). (٣٣)

«٣٢» ص ١٦.　　«٣٣» ص ١٣٨ - ١٣٩.

الفصل الثاني

موقف الجنرال «جلوب» من المراجع الإسلامية القديمة

(إن أول مؤلف مسلم دون التاريخ على ترتيب السنين وبقى لنا كتابه هو الطبرى العظيم..)

«فرانز روزنثال»
(علم التاريخ عند المسلمين)

(أشك أعظم الشك فيما روى عن هذه الأحداث وأكاد أقطع بأن ما كتبه القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظيمين - الصديق وعمر - ومن تاريخ العصر القصير الذى وليا فيه أموز المسلمين، أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث)..!!!

«د. طه حسين»
(الشيخان)

(إن أوروبا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات الإسلامية كوارث رهيبة، ولم يكن ثمة مسيحى يود أن يذكره الناس بها)

«جون باجوت جلوب»
(الفتوحات العربية الكبرى)

(إننا مدينون فيما نعرفه عن التاريخ السياسى والحربى الذى يتعلق بتلك العصور لما بذله مؤرخو العرب من اجتهاد لا يعرف الكلل فى جمعهم للأخبار، وإن بيننا وبين ذلك التاريخ اثنى عشر قرنا، لهذا تتناسب الدقة فيه مع طول هذه الشقة)

«فون كريمر»
(الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية)



تكاد تكون المراجع الإسلامية القديمة المصدر الوحيد لمعرفة تفاصيل معارك الفتح الإسلامي، ومع ذلك، فإن الجنرال «جلوب» يصر على رفض الكثير مما ورد بها قاصدا من وراء ذلك أن يتسنى له صياغة تاريخ الفتح في الإطار الذى يخدم أهدافه، وهو نفس أسلوب المستشرقين. يبدأ الجنرال «جلوب» أولا بالطعن في الرواة والمؤرخين وفي انتماءاتهم، ثم بعد ذلك يشكك فيما ذكروه من أخبار وروايات فينتقي منها ما يريد ويرفض ما لا يريد. يقول «جلوب»: (وقد حاولت بكل ما لدى من جهد أن أحصل على قصتي من مصادرها العربية الأصيلة مباشرة. ولعل أهم هذه المصادر تاريخ الطبرى.. ولكن سرده للحملات الحربية لا يتسم دائما بالوضوح..)(٣٤).

يبدأ «جلوب» بالطعن في المؤرخين أنفسهم، فيقول: (عندما اندفع العرب في القرن السابع من جزيرتهم ليقيموا إمبراطورية كانوا لايزالون بوجه عام خامات غير مصقولة، تجهل القراءة والكتابة. ولما كان جل اهتمامهم منصرفا إلى العمل، فقد فاتهم أن يدونوا ما عملوه بل لم يكلفوا أنفسهم عناء تدوينه)(٣٥).
بل إن «جلوب» ذهب إلى اتهامهم بالجهل بدينهم حيث يقول: (كان معظم هؤلاء الفاتحين العتاة المتحمسين من الذين نشأوا على عبادة الأوثان. وكان كثيرون منهم قد ارتدوا عن الإسلام قبل أربع سنوات، ولما كانت نسبة من يحسن القراءة والكتابة فيهم ضئيلة للغاية فإن معظمهم ولاشك كان جاهلا بتفاصيل الديانة الإسلامية ودقائقها..)(٣٦) ثم يستكمل «جلوب» مهمته في التشكيك في المؤرخين، فيقول: (ولم يظهر المؤرخون العرب الكبار إلا بعد نحو قرنين من وفاة النبى وبعد أن تحولت السيطرة

«٣٤» ص ٢٠. «٣٥» ص ١٢. «٣٦» ص ٣١٨.

فى الإمبراطورية الإسلامية من أيدى العرب إلى أيدى الشعوبيين. ومن هنا نستطيع القول بأن وجهات نظر هؤلاء المؤرخين كانت إسلامية أكثر منها عربية، ويضاف إلى هذا أن أيا من المؤرخين لم يكن من أصل عربى صميم. وقد نشأوا فى بلاد مختلفة فبعضهم من المغرب وبعضهم من الأندلس وبعضهم الثالث من فارس. ولم يكن بينهم مؤرخ واحد من العرب البداة الذين جاءوا من الجزيرة العربية وحققوا تلك الفتوحات العظيمة. ومن هنا يتبين أن مؤرخى العصر العباسى، لم يكونوا على اطلاع صحيح على الحياة البدوية التى عاشها الفاتحون الأول)(٣٧).

إن خلاصة الاعتراض الأول الذى يثيره «جلوب» هو طول الفترة الزمنية بين وقوع أحداث الفتح وبين تسجيلها والتأريخ لها، وهو محق فى ذلك، لكن لأسباب تختلف تماما عما ذكره حيث بررها بجهل الفاتحين بالقراءة والكتابة وانشغالهم بالفتح وبأنهم لم يكونوا معنيين كثيرا بأهمية التأريخ، ثم يتهم المؤرخين بأنهم كانوا من أصول غير عربية وكانوا إسلاميين فى توجههم.

لقد تأخر تدوين تاريخ الفتح لأسباب غير التى ذكرها «جلوب»، فقد عنى الرسول ﷺ أولا بتدوين القرآن الكريم ومنع المسلمين من تدوين الأحاديث حتى لا تختلط بالقرآن، ولم يسمح لهم بتدوين الحديث إلا بعد أن اطمأن إلى امتلاك المسلمين القدرة على التمييز بينه وبين القرآن. وبينما كانت المواد المستخدمة فى التدوين كالجلود والفخار وغيرها سريعة التلف، ظلت حافظة الرواة القوية هى الأصل فى حماية التراث. وبجانب اتصاف العرب بالقدرة الفائقة على الحفظ وفصاحة اللسان وقوة الذاكرة، كانت براعتهم فى علم الأنساب واشتراطهم صفة «العدالة» فيمن

«٣٧» ص ١٣.

يأخـذون عنه رواية الحديـث أو الخبر ضمانة كافيـة للتمييز بين الصحيـح وغيـره. يقـول «د. محمد إقبـال» فى كتابـه (تجديد التفكير الدينى فى الإسلام): (إن علماء المسلمين الذين اهتموا بجمـع الحديث النبوى لم يفرطوا إطلاقا فى ضرورة التدقيق الذى لا حد له فى رواية الحقائق. فقد وضع القرآن أمامهم أهم قاعدة من قواعد النقد التاريخى فى قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

(الحجرات: ٦)

ويضيف: وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدى على رواة الحديث هو الذى تطورت عنه بالتدريج قواعد النقد التاريخي[٣٨].

يقـول «د. السـيد عبدالعزيـز سـالم» فـى كتابـه (التاريـخ والمؤرخـون العـرب): (كان القـرآن الكريم هـو المصدر الأول لدراسـة علم التاريخ عندهم ويليه الحديث والسـنة وكانت بداية التأليف العلمى فى التاريخ وثيقة الصلة بهذين المصدرين، وعلى هذا الأسـاس كان علـم التاريخ العربى عند نشـأته يقوم بادئ ذى بدء على دراسـة سـيرة النبـى ﷺ وأخبـار الغزوات ومن أسـهم فيها) ويضيف: (كان المؤرخـون الأول يعتمدون على الروايات الشفهية شأنهم فى ذلك شأن رواة الحديث، فكان كل جيل منهم يسـتمد أخباره من الجيل السـابق، وكان الخبر التاريخى يستمد من السـماع عـن الحفاظ الموثوق بهم وهو ما يعرف بالأسـانيد - أى أن التأريخ العربى عند نشـأته سلك نفس الطريقة التى سلكها الحديث «السند والمتن»)[٣٩].

ومع ذلك فـإن التدوين التاريخى عند العـرب لم يتأخر بالقدر

«٣٨» نقلا عن «د. محمود زقزوق» ص ١٠٣.

«٣٩» ص ٥٣.

الذى ذكره «جلوب».

فعن المدونين الأول، يذكر «د. حسين نصار» في كتابه (نشأة التدوين التاريخى عند العرب)(٤٠)، إننا لو تتبعنا مسيرة المدونين الذين اعتمد عليهم كل من «ابن اسحاق» و«الواقدى» و«الطبرى»، فسوف نجد أن من الجيل الأول لهؤلاء المدونين برز «عروة بن الزبير» المتوفى عام ٩٤هـ وأنه لم يقتصر على الرواية الشفوية بل دون بعض الأحداث كما أنه عنى بحوادث الخلفاء الأول فعالج معارك القادسية واليرموك وبعض حوادث فتوح الشام وامتازت كتاباته بأنها لم تهمل الإسناد.

كما كان من الجيل الأول «عاصم بن قتادة الأنصارى» المتوفى عام ١١٩هـ. ثم جاء في الجيل الثاني للمدونين «محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى» المتوفى عام ١٢٤هـ وكان له الفضل الكبير على الحركة التأريخية إذ إنه نشر كتبه بين الجمهور وكان أول من قارن بين الأحداث المختلفة المصادر في الموضوع الواحد لإدماجها في حديث واحد إجماعى، وكان «الزهرى» أستاذا لمن جاء بعده من مدونى الجيل الثالث وكان منهم «موسى بن عقبة» المتوفى عام ١٤١هـ وقد وصفه الإمام «مالك بن أنس» بأنه ثقة وقد اقتبس منه كل من الواقدى والطبرى وبخاصة أحداث عهد الخلفاء الراشدين.

أما أبرز المدونين بلا جدال، فهو «محمد بن إسحاق» المتوفى عام ١٥٠هـ وقد ألف كتاب (المغازي) وغطى به على جميع المؤرخين المتقدمين، وكان «ابن إسحاق» غاية فى النزاهة في تأريخه، يدون آراء المذاهب المتعادية بكل أمانة وبلا تحيز كما عنى بالرجوع إلى الوثائق والمدونات وحاول أن يذكر الأسانيد

«٤٠» بتصرف وإيجاز ص ٢٩ إلى ٦٤.

يتبين لنا مما سبق، أن تأخر تدوين التاريخ الإسلامى لم يكن بالقدر الذى ذكره «جلوب» - قرنين من الزمان - كما أنه لم يكن للأسباب التى ذكرها وإنما كان راجعا لأسباب موضوعية بحتة. لاشك أن «جلوب» يعلم أن من تصدوا لكتابة الأناجيل لما يعاصروا المسيح عليه السلام وإنما دونوها بآخرة، ويعلم متى وكيف دونت، وأنها جميعها لم يكن بينها الإنجيل الأصلى الذى نزل به الوحى على سيدنا عيسى عليه السلام. كان «إنجيل يوحنا» هو الإنجيل الوحيد الذى انفرد فى فقراته بذكر صريح لألوهية المسيح. وعن هذا الإنجيل يقول الإمام محمد أبوزهرة» فى كتابه (محاضرات فى النصرانية): (لقد اختلف المسيحيون فى تاريخ تدوين هذا الإنجيل اختلافا بينا. فالدكتور «بوست» يرجح أنه كتب سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ وقيل سنة ٩٦، ويقول «هورن» فى تاريخ تدوين ذلك الإنجيل: ألف الإنجيل الرابع سنة ٦٨ أو سنة ٦٩ أو سنة ٧٠ أو سنة ٨٩ أو سنة ٩٨ من الميلاد. إذ ليس هناك تاريخ محدد لتدوين هذا الإنجيل، كما أنه ليس هناك بيان قد خلص من الشك بحقيقة كاتبه(٤١). هذا التضارب الكبير ليس له شبيه فى التاريخ الإسلامى. وإذا كان «جلوب» قد اتهم المسلمين الأول بعدم اهتمامهم بالتاريخ، فإن «فرانز روزنثال» يقول فى كتابه (علم التاريخ عند المسلمين): (إن أفكار الرسول التاريخية نشطت دراسة التاريخ نشاطا لا مزيد عليه.. كما أن شخصية الرسول كانت خطا فاصلا واضحا فى كل مجرى التاريخ، ولم يتخط علم التاريخ الإسلامى المتأخر هذا الخط قط.. لقد كان التاريخ يملأ تفكير الرسول لدرجة كبيرة، وقد ساعد عمله من حيث العموم فى تقدم نمو التاريخ الإسلامى

«٤١» ص ٦٢.

في المستقبل»(٤٢)

اتهم «جلوب» الفاتحين الأول بالجهل بدقائق دينهم لجهلهم القراءة والكتابة وقرب عهدهم بالردة، وهو اتهام فضلا عن أنه سخيف فإنه متهافت، لم يكن القرآن الكريم قد تم تدوينه عندما بدأ الفتح حتى يمكنهم قراءته فضلا عن أن القرآن كان محفوظا في صدورهم. ولقد منع الصديق رضى الله عنه من سبق ردتهم من المشاركة في بداية الفتح ولم يسمح لهم بالمشاركة إلا فيما بعد عندما تولى عمر رضى الله عنه الخلافة واطمأن إلى صدق إسلامهم.

ولقد شعر «جلوب» أن اتهامه للفاتحين الأول بالجهل بدينهم يوقعه في مأزق تناقض الأقوال حيث يتعارض مع تأكيده الدائم على أن «الحماسة الدينية» كانت أهم أسباب الفتح. لذلك فإنه استدرك قائلا (ولكن هذا -أى الجهل الديني للفاتحين- لا ينكر الحقيقة الواقعة وهى أن الدين كان الحافز الأصيل لحماستهم. فلقد عودتنا حركات البعث الدينية العاطفية أن تنتشر بسرعة وأن تخلق حماسة منقطعة النظير.. ولا ريب أيضا في أن الإيمان بأن الاستشهاد في سبيل الوغى، سيضمن للشهداء دخول فراديس النعيم فورا» !!(٤٣)

يقول «جلوب»: (إن أيا من المؤرخين لم يكن من أصل عربي صميم. وقد نشأوا في بلاد مختلفة فبعضهم من المغرب وبعضهم من الأندلس وبعضهم الثالث من فارس)(٤٤).

كان مؤلف كتاب (البداية والنهاية) هو «الإمام عماد الدين أبوالفداء بن كثير» وسمى «الحافظ ابن كثير» وهو قرشي النسب دمشقي الدار وكان مقرئا متقنا وراوية للحديث موثوقا كما

«٤٢» ص ٤٠.   «٤٣» ص ٣١٨.   «٤٤» ص ١٣.



كان مفسـرا للقرآن ومؤرخا معروفا . لقد نشـأت مدرسـة التاريخ فى المدينـة ومكة وكان من رجالها «محمد بن إسـحق» و«محمد ابن عمر الواقدى» . كان الواقدى مولى لبنى هاشـم أخذ العلم عن شيوخ عصره فى المدينة المنورة، فأخذ عن «الإمام مالك بن أنس» فى الحديث وعن «أبى معشر السندى» فى التاريخ، وقد ألف عددا كبيـرا من كتب المغـازى والتاريخ وقد اقتبس منـه «الطبرى» فى كتابه (تاريخ الأمم والملوك) .

لقد تحدثنا من قبل عن «محمد بن إسـحق» ودوره، صحيح أنه كان مـن أصل فارسـى، لكن ذلك لا يقدح فـى علمه وصدقه، فإن أصح كتـب الحديث الشـريف جمعها ودونها «الإمـام البخارى» وهو غير عربى .

ومؤلـف كتـاب (تاريخ الأمـم والملـوك) الذى اعتمـد عليه «جلوب» فى كتابه، هـو «أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى» وهو محـدث ومفسـر ومقرئ وفقيه وأصولى ومـؤرخ، ومن أكابر أئمة المجتهديـن . حفظ القـرآن الكريم وكتـب الحديث وهو صغير، فأخذ الحديث عن «محمد بن حميد الرازى» واختص به ـ والرازى حافـظ للحديـث أخذ عنـه كثير مـن الأئمة «كابن حنبـل» و«ابن ماجـه» و«الترمذى»، وأخـذ المغازى عن «محمد بن إسـحق» عن «سـلمة بـن المفضل» وعليه بنـى تاريخه، فضلا عن اقتباسـه من «الواقدى» كما أن «الطبرى» درس الفقه الشـافعى وعلوم القرآن . يقـول عنـه «روزنثـال» : (إن أول مؤلف مسـلم دون التاريخ على ترتيب السـنين وبقى لنا كتابه هـو الطبرى العظيم) . . ويضيف : (كانـت له شـهرته فى حياتـه كعالم فـى الدين أكثـر مما كانت لـه كمؤرخ . .)[٤٥] فهل كـون «الطبرى» ولد فى آمل طبرسـتان

«٤٥» ص ٧٨، ١٢٠.

(جنوبي بحر قزوين) يقدح في علمه وصدقه وأمانته؟

إن التداخل الواضح بين الاشتغال بعلوم الدين والتصدي للتأريخ، يجعل الطعن في صدق المؤرخ ودقته وأمانته ينجر ولو بشكل مستتر إلى الطعن في صدق ما دونه من علوم الدين كتفسير القرآن الكريم وتدوين الحديث وشرحه، وهو بلاشك هدف خبيث، فهل كان ذلك هو ما يرمي إليه «جلوب» مثله مثل باقي المستشرقين؟

ونأتي للاعتراض الأخير «لجلوب»، وهو أن عدم عروبة المؤرخين أدت إلى أن يكون توجههم لتدوين التاريخ إسلاميا لا عربيا. هذا الاعتراض يجعلنا ندرك سبب إصرار «جلوب» على وصف الفتوحات الإسلامية بأنها فتوحات عربية، أي أنها حدثت من منطلق عنصري عربي. وعلى ذلك، فإن فتح مصر مثلا كان مجرد غزو واحتلال عربي عنصري مثله مثل جميع موجات الغزو التي اجتاحت مصر سواء كانت إغريقية أو رومانية أو فارسية. ومن الغريب أن هذه الرؤية نرى آثارها في كتابات بعض العلمانيين العرب. إن التمييز بين الانتماء الإسلامي والانتماء العربي مثلت معضلة أمام «جلوب» وبخاصة عندما تحدث عن فتح مصر.

بعد أن شكك «جلوب» في المؤرخين المسلمين وانتماءاتهم يأتي مسلسل الطعون التي كالها لهم فيما سجلوه في مؤلفاتهم وكتبهم عن معارك الفتح الإسلامي.

يقول «جلوب»: (كما أنهم لم يكونوا كثيري العناية بالعمليات العسكرية. ولم يكونوا يهتمون أيضا بالغ الاهتمام بالتواريخ والأرقام والحقائق، وهي المظاهر التي يعتبرها المؤرخون اليوم شيئا حيويا. وكانوا يكتفون في وصف معركة من المعارك الحربية بالقول بأن مشيئة الله أرادت أن ينهزم الكفرة. وكثيرا ما افتقرت التواريخ التي أوردوها إلى الدقة. وكان الواحد

منهم يختلف عن الآخر فى تحديد معركة من المعارك بنحو عامين على الأقل. وكثيرا ما لف الغموض تقديراتهم للقوات المتحاربة. وعلى الرغم من ميلهم إلى إعطاء الأرقام القريبة من الصحيحة بالنسبة إلى قوات المسلمين، إلا أنهم كانوا ميالين كل الميل إلى المبالغة فى تقدير قوة أعدائهم. وبالإضافة إلى افتقار هؤلاء المؤرخين إلى الاهتمام بالعمليات فإنهم دونوا تواريخهم وقد حرموا من ضرورة وجود خرائط عسكرية تشرح هذه المعارك..
ويضيف: ومن الواضح حقا أن المؤرخين العرب لم يكونوا على فهم صحيح بالمعارك والحملات الحربية التى يتحدثون عنها، وكل ما بقى هنالك اسم موقع هنا أو موقع هناك، تناقلته القصص والروايات القديمة.. ثم يضيف: «ولم يكن المؤرخون وناقلو السير واضحين كل الوضوح فى تحديد أسماء مصادرهم أو فى الرجوع بهذه المصادر إلى أولئك الذين شهدوا هذه الأحداث التي يدونونها هم عند وقوعها».. ويضيف، «وكان المؤرخ يحس بعد أن يسرد قائمة بأسماء مصادره أن مهمته قد انتهت فلا يقوم بأية محاولة أخرى للتثبت مما إذا كانت الأحداث التى يصفها ويسردها قد وقعت حقا، وعندما تكون هناك روايتان عن حادث واحد، أو مجموعة من الروايات المتناقضة، يكتفى المؤرخ بسردها كلها ساندا كل رواية منها إلى مصادرها ومراجعها وتاركا للقارئ نفسه مهمة الخروج بالرواية الصحيحة من هذه الروايات المتضاربة..)(٤٦).

قدر هائل من المآخذ على كل ما سجله المؤرخون المسلمون الأوائل، بل لم يشر ولو بقدر ضئيل إلى جانب طيب واحد أو احتمال لعمل سليم قاموا به. ومع ذلك، فقد استطاع «جلوب»

«٤٦» ص ١٣ – ١٤.

أن يؤلف كتابه الضخم معتمدا على تلك المؤلفات كما قال هو.

لا شك أن القارئ يثور فى ذهنه سؤال مفاده أن المعارك الحربية دارت بين طرفين متقاتلين، العرب من جانب والفرس والروم فى الجانب الآخر، ولكل جانب مؤرخوه. والآن وقد أفاض «جلوب» فى النيل مما سجله مؤرخو العرب، فإنه لم يشر إلى مؤرخ واحد من الفرس والروم، ولأن «جلوب» يدرك ذلك، فإنه يبادر إلى تبرير الأمر بقوله (إن أوروبا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات الإسلامية ـ هنا يصفها بأنها إسلامية ـ كوارث رهيبة، ولم يكن ثمة مسيحي يود أن يذكره الناس بها وليس المؤرخون إلا بشرا.. ثم يضيف، لقد كتبت ألوف الكتب منذ عصر النهضة عن تاريخ الإمبراطورية الرومانية. أما عدد الكتب ذات المستوى الطيب عن الفتوحات العربية ـ وهنا يقول عربية ـ فى اللغة الإنجليزية فلا يعدو أصابع اليد الواحدة)(٤٧).

وكما هو متوقع، فإن رأى العلمانيين والذى عبر عنه «د. طه حسين» فى كتابه (الشيخان) هو نسخة طبق الأصل لرأى «جلوب» ولكن فى صياغة أدبية تليق به كعميد للأدب العربى، فيقول: (وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روى عن هذه الأحداث، وأكاد أقطع بأن ما كتبه القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظيمين ـ يقصد الصديق وعمر ـ ومن تاريخ العصر القصير الذى وليا فيه أمور المسلمين، أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث.. ويقول: والقدماء يقصون الأحداث الكبرى التى كانت فى أيامهم كأنهم شهدوها ورأوها رأى العين، مع أننا نقطع بأن أحدا منهم لم يشهدها، وإنما أرخوا لهذه الأحداث بآخرة. وليس أشد عسرا فى التأريخ للمواقع الحربية ووصفها وصفا دقيقا كل الدقة، صادق

«٤٧» ص ١٤ – ١٥.



كل الصدق، بريئا من الإسراف والتقصير. والذين يشهدون هذه المواقع ويشاركون فيها لا يستطيعون أن يصفوها هذا الوصف الدقيق الصادق لأنهم لم يروا منها إلا أقلها وأيسرها.. ويضيف، وإنما يستطيع المؤرخون المتقنون أن يحققوا عواقب المواقع... وقدماء المؤرخين من العرب لم يعرفوا من أمر هذه الأحداث عن طريق المنتصرين وحدهم، بل من طريق الذين لم يشهدوا الانتصار بأنفسهم وهم لم يسمعوا أنباء هذا الانتصار من المنهزمين بين فرس و روم وأمم أخرى شاركتهم فى الحرب وشاركتهم فى الهزيمة، فهم سمعوا صوتا واحدا هو الصوت العربي)(٤٨) ثم يختتم «د. طه حسين» بقوله: (لا سبيل إلى الشك فيها ـ أى أحداث الفتح ـ ولا فى وقوعها. من أجل ذلك كله أعرض عن تفصيل هذه الأحداث كما رواها القدماء وأخذها عنهم المحدثون فى غير بحث وتدقيق» ! !(٤٩)

هكذا وبكل بساطة يتوصل «د. طه حسين» إلى أن الفتح الإسلامى حدث ولا مجال لإنكاره، ولكن لا سبيل لمعرفة كيف حدث وقد سد كل المنافذ أمام من يحاول ذلك.

إن هذا الحشد الهائل من الطعون فى تفاصيل ما سجله المؤرخون المسلمون الأول يحتاج إلى أكثر من فصل للرد عليها، ويمكن بشكل عام تلخيص طعون «جلوب» فيما يلى:

١ ـ بمقارنة القوات المتقاتلة يظهر أن المؤرخين المسلمين بالغوا فى تقدير قوات أعدائهم من الفرس والروم، رغم ميلهم لإعطاء الأرقام القريبة من الصحيحة عن قوات المسلمين.

٢ ـ افتقار التواريخ التى ذكروها عن المعارك إلى الدقة وتضاربها أحيانا بفارق يصل إلى عامين.

«٤٨» ص ٦ – ٨. «٤٩» ص٩

٣ ـ عدم إرفاقهم خرائط عسكرية لشرح المعارك التى يتحدثون عنها كما اعتاد الباحث والمؤرخ العسكرى المعاصر.

٤ ـ عدم اهتمامهم بالعمليات الحربية، بل وعدم فهمهم لها مما أدى إلى غموض الوصف الذى قدموه عن المعارك.

٥ ـ غموض مصادرهم وعدم قيامهم بالبحث عن الرواية الصحيحة إذا ما تضاربت الروايات.

٦ ـ اكتفاؤهم فى وصف المعارك بالقول بأن مشيئة الله أرادت أن ينهزم الكفرة.

ولقد بحثت في العديد من مراجع المؤرخين المسلمين الأول، الطبرى وابن كثير والبلاذرى وغيرهم فلم أجد ما يؤيد ادعاء «جلوب»، وإن كانت إشارتهم إلى أن مشيئة الله كانت وراء انتصار المسلمين قد وردت فى سياق وصفهم للمعارك.

***

الفصل الثالث

مقارنة القوات فى معارك الفتح الإسلامي

«الرد على تشكيك «جلوب» فى أرقام المؤرخين»

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٦٥، ٦٦).

﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٤٩).

«تمكن العرب . . . من الاندفاع من صحاريهم . . ليطيحوا فى وقت واحد بأعظم إمبراطوريتين عسكريتين فى عالم تلك الأيام . . وتمكنوا من الاستيلاء على ثلثى إمبراطورية الروم بينما قضوا على مملكة الفرس قضاء مبرما . . وكان أهل الجزيرة العربية وحدهم هم الذين قاموا بتلك الفتوحات . . التى تكاد تشبه المعجزات» ! !

«جون باجوت جلوب»

(إمبراطورية العرب)

إيمان المؤمن بانتصار الفئة القليلة المؤمنة الصابرة على الكثرة الكافرة هو ركن ركين فى عقيدته بفريضة الجهاد تصديقًا منه لوعد الله تعالى. وبذلك يكون التشكيك فى أرقام القوات المتقاتلة واتهام المؤرخين المسلمين بالمبالغة فى تقدير قوة أعدائهم هو محاولة خبيثة لهدم القاعدة الإيمانية لمفهوم الجهاد فى الإسلام، ويتضح ذلك من خلال العبارات الساخرة التى ذكرها المستشرق «يوليوس فلهوزن» فى كتابه «تاريخ الدولة العربية» والتى ذكرها تعليقًا على بعض ما ورد بكتاب المؤرخ البيزنطى «تيوفانيس» حيث يقول «من السهل أن نفهم المقصود من ذلك، وهو إثبات القاعدة الكبرى، وهى أن النصر من عند الله فهو الذى يلقى الرعب فى قلوب الفئة الكبيرة من الكافرين أمام الفئة القليلة من المؤمنين..!!»(٥٠).

يبرر «جلوب» تشكيكه فى صحة الأرقام التى ذكرها المؤرخون المسلمون بقوله: لم يكن لدى العرب أيام الفتح أية سجلات أو نظام للتوثيق، ولم يكن التاريخ يهمهم فى قليل أو كثير... ويضيف، على الرغم من ميلهم إلى إعطاء الأرقام القريبة من الصحيحة بالنسبة إلى قوات المسلمين، إلا أنهم كانوا ميالين كل الميل إلى المبالغة فى تقدير قوة أعدائهم»(٥١). وليس غريبًا أن يعبر «د. طه حسين» عن هذا الأمر وكأنه صدى لصوت «جلوب»، فيقول «إنه لا سبيل أبدًا إلى إيراد الأعداد الإحصائية سواء لقوة الجيوش أو عدد القتلى أو الأسرى خاصة فى ذلك العصر الذى لم تكن مناهج البحث والاستقصاء فيه معروفة»(٥٢). لكن العديد من المفكرين المسلمين المعاصرين دعوا إلى البحث من جديد. فالأستاذ «سيد قطب» يقول فى كتابه «فى التاريخ.. فكرة ومنهاج»، «يجب أن تعاد كتابة التاريخ الإسلامى على

«٥٠» ص ٥١٨. «٥١» ص ١٣، ٤٢٩. «٥٢» ص ٨.



أسس جديدة كى تعطى كل أسرارها وإشعاعاتها، وتنكشف بكل عناصرها ومقوماتها»(٥٣).

وسوف نحاول الرد على تهمة المبالغة فى أرقام جيوش الفرس والروم التى وجهها «جلوب» إلى المؤرخين المسلمين، بشكل موضوعى يستند إلى البيانات الواردة فى مراجع الطاعنين أنفسهم. وكمدخل للموضوع، نعلم أنه بجانب العديد من العوامل التى تتحكم فى تحديد حجم القوات لأية دولة، تظل نسبة هذه القوات إلى التعداد السكانى للدولة من أبرز العوامل، وبالتالى فإن استنتاج حجم الجيوش التى كان فى قدرة المسلمين أو الفرس والروم حشدها خلال معارك الفتح بناءً على عدد السكان فى ذلك الوقت، يعتبر مدخلًا موضوعيًا لدراستنا.

طبقًا لدراسة معاصرة أجراها «أروين هايكل» عن «القوة الحربية والغرض السياسى» صادرة عن معهد الدراسات الإستراتيجية بلندن عام ١٩٧١م، يتضح أن حجم القوات المسلحة فى الدول الغربية مقارنًا بالعدد الإجمالى للسكان يمثل فى زمن السلم نسبًا تتراوح بين ٤,٠٪ و١,٦٪ وتصل إلى نسبة ٧٪ وأكثر بعد استكمال التعبئة فى زمن الحرب. وعلى الرغم من أن هذه النسب لم تكن معروفة فى زمن الفتح الإسلامى، فإن المساواة فى تطبيقها على كلا الجانبين يقلل من أى احتمال للمبالغة. بل وأكثر من هذا، وحتى لا نقع فى شبهة التحيز، فسوف نأخذ فى دراستنا بنسبة زمن السلم (١٪) لنطبقها على جيوش الفرس والروم، بينما نفترض لجيوش المسلمين نسبة التعبئة فى زمن الحرب (٥٪). وعلى أساس هذا المدخل، نحاول تقدير حجم القوات الممكن حشدها.

«٥٣» ص ٤٤.

تقدير حجم قوات الروم

إن أول ما يلفت النظر، ذلك التضارب الكبير في البيانات الواردة بالمراجع الأجنبية عن حجم جيوش الروم. وقد فسر ذلك المؤرخ «ستيفن رنسيمان» في كتابه «الحضارة البيزنطية» بأنه كان أمرًا مقصودًا للاحتفاظ بسرية عدد الجيش حتى لا يستفيد الأعداء(٥٤). كما أن تلك المراجع لم تورد رقمًا محددًا أو متفقًا عليه عن إجمالي سكان الإمبراطورية الرومانية في زمن الفتح الإسلامي، وهو ما سوف نحاول استنتاجه.

لقد قدر «إدوارد جيبون» في كتابه السابق الإشارة إليه، تعداد سكان الإمبراطورية الرومانية عام ٤١م بحوالي ١٢٠ مليون نسمة معظمهم من سكان الولايات. ولم تكن الحدود الرومانية في ذلك الوقت قد بلغت أقصى اتساعها الذي بلغته عام ١٠٠م(٥٥). وبانقسام الإمبراطورية عام ٣٩٥م إلى شرقية وغربية، أخذت الإمبراطورية الشرقية «البيزنطية» طريقها إلى القوة والاتساع وورثت أهم البلاد والولايات ذات الكثافة السكانية العالية من الإمبراطورية القديمة، وأصبح لها ولايات في آسيا وإفريقيا(٥٦). وبذلك لا يكون من المبالغ فيه تقدير تعداد سكان الإمبراطورية البيزنطية بحوالي ٨٥ مليون نسمة مع بداية القرن السابع أي بعد مرور حوالي ستة قرون على التقدير الذي ذكره «جيبون». أي أن الروم كان في وسعهم حشد جيوش إجمالي تعدادها لا يقل عن ٨٥٠ ألف مقاتل، أي بنسبة ١٪ من السكان، منهم على الأقل ٥٠٠ ألف مقاتل في مواجهة جيش المسلمين، وهو تقدير لا يشكل أية مبالغة لأن الإمبراطورية ركزت كل جهودها في ولايات

«٥٤» ص ١٦٢.

«٥٥» ص ٩٤ جـ١، ص ٣٥٨ جـ٢

«٥٦» استيفن رنسيمان ص ٩٧ - ٩٨.

الجبهة الشـرقية والجنوبية أى فى الشام ومصر لأنها الجبهة ذات الأهمية البالغة حيث كانت تدافع عن مستقبلها بل ووجودها بعد أن تصاعـد تيار الفتح الإسـلامى الجارف. وبالقطـع لم يكن هذا الحشـد فى هـذا الاتجاه على حسـاب الاتجاهات الإسـتراتيجية الأخرى فى الغرب وهو ما أكد عليه «رنسيمان» فى كتابه السابق.

إن تقدير قوة جيوش الروم بهذا الحجم «٥٠٠ ألف مقاتل» يتفق مـع بعض البيانات التى وردت ببعض المراجع الأجنبية. فقد ذكر «نورمان بينـز» فى كتابه «الإمبراطوريـة البيزنطية»(٥٧) أن نظام الدفاع الإقليمى للإمبراطورية اعتمد على الاحتفاظ بقوات نظامية محليـة فى عدد من اللـواءات وكانت قوة كل لـواء «الثيما» تبلغ ١٠ آلاف مقاتل. وكان بالولايات الشـرقية ١٤ لواءً مجمل قوتها ١٤٠ ألف مقاتل فى زمن السلم ترتفع بالدعم فى زمن الحرب إلى حوالى نصف مليون «٥٠٠ ألف مقاتل». وقد أشـار «جلوب» إلى ضخامـة حجم هذا الدعم، فقال «إن هـذا الدعم كان كبيرًا لدرجة أن ثلثـى جيـش الروم المقاتل فى الشـام كان مـن الأرمن والعرب الموالين للروم، بينما كان الثلث الباقى من المجندين»(٥٨).

كمـا يقـول «م. ب. تشـارلز وورث» فى كتابـه «الإمبراطورية الرومانية» إن المجموع الكلى لقوات الجيش الرومانى لم يتجاوز نصف مليون جندى.

إن اتهـام «جلـوب» المؤرخين المسـلمين بالمبالغة فى تقدير قوة أعدائهم، يعنى أنـه أى «جلوب» لديه الأرقام الحقيقية لتعداد جيـوش الفرس والروم، ولكن الواقـع ينفى ذلك تمامًا فقد حرص «جلوب» على عدم ذكر أى رقم لتعداد هذه الجيوش فى كتابه وهو ما يؤكد أنه يلقى الاتهامات جزافًا وبلا دليل.

«٥٧» ص ١٧١ - ١٧٤.   «٥٨» ص ١٩٧- ١٩٨.

تقدير حجم قوات الفرس

يذكر «جلوب» أن الإمبراطورية الفارسية في تلك الأيام كانت تمتد بعيدًا إلى السند في دولة باكستان الحديثة وتضم كل ما نسميه أفغانستان هذا بالإضافة إلى إيران والعراق، وكانت إيران آنذاك تضم أيضًا كل الولايات الإسلامية التي ضمها الاتحاد السوفيتي إلى ممتلكاته فيما بعد. لقد قدر «جلوب» تعداد سكان مصر آنذاك بحوالي ٧ ملايين نسمة، وبذلك يمكننا تقدير التعداد السكاني لكامل الإمبراطورية الفارسية زمن الفتح بحوالي ٣٠ مليون نسمة على أقل تقدير، وبالتالي فإن إجمالي تعداد الجيوش التي في مقدور الفرس حشدها لا يقل عن ٣٠٠ ألف مقاتل بنسبة ١٪ من تعداد السكان. وتؤيد بعض المراجع الأجنبية هذا التقدير، فيذكر «دونالد ولبر» في كتابه «إيران، ماضيها وحاضرها»، أن الإسكندر الأكبر قهر جيشًا فارسيًا تعداده ٣٥٠ ألف مقاتل عام ٣٣٤ ق.م في «إيسوس»، وأن جيش الفرس كان مقسمًا إلى ٦ فرق تضم كل فرقة ٦٠ ألف مقاتل بخلاف الحرس الخاص بالملك والذى كان يبلغ ١٠ آلاف مقاتل. كما يذكر أيضًا أن المسلمين هزموا جيشًا فارسيًا في القادسية تعداده ١٢٠ ألف مقاتل ثم أبادوا جيشًا فارسيًا مماثلًا له في معركة نهاوند. وعلى ذلك فإن رقم ٣٠٠ ألف مقاتل رقمًا مقبولا تمامًا لتقدير إجمالي حجم جيوش فارس آنذاك.

تقدير حجم الجيش الإسلامي

يقرر «جلوب» أن الأرقام التي ذكرها المؤرخون المسلمون عن الجيش الإسلامي كانت قريبة من الصحيحة، ويذكر أن تعداد سكان سوريا وفلسطين عام ٦٤٨م كان لا يزيد على ٣ ملايين نسمة وأن هذا الرقم كان يفوق إجمالي سكان شبه الجزيرة

العربية آنذاك(٥٩). كما أن «جلوب» فى كتابه الآخر «إمبراطورية العـرب» يقرر أن العـرب الذين خرجـوا من الجزيـرة العربية هم وحدهـم الذين حملوا علـى أكتافهم عـبء كل الفتوحات وأنهم علـى حد قوله «كانوا قلة فى عددهم الذى لم يمثل سـوى ٢-٣٪ مـن إجمالى سـكان الإمبراطورية الإسـلامية عـام ٧٥٠م»(٦٠).
وعلى ذلك، فإننا نقدر تعداد سـكان شـبه الجزيـرة العربية قبيل الفتح بحوالى ١,٥-٢ مليون نسمة، موزعين على تلك المساحة الشاسـعة من الأرض والتى تفتقر إلى وسـائل المواصلات السهلة مما يجعل ظروف حشد وتعبئة القوات بها من أصعب الأمور فضلًا عن انفراد المسلمين بنظام التطوع فى حالة التعبئة وبشكل قبلى. كما أن عددًا كبيرًا من المسـلمين الذين قوتلوا فى حروب الردة، حرموا من المشـاركة فى جيش الفتح الإسـلامى خـلال المراحل الأولى من القتال.

ومع ذلك، سوف نفترض أن جيش المسلمين بلغ ٥٪ من إجمالى تعداد السكان، أى أن أقصى حجم يمكن تصوره لهذا الجيش يتراوح مـا بين ٧٠ ألفًـا إلى ٩٠ ألف مقاتـل. وهو رقم قريـب من تقديرات «جلـوب» والتـى ذكر فيها أنـه خَصَّصَ جيش إسـلامى قوته ٣٠ ألف مقاتل فى جبهة فارس وجيش آخر قوته ٢٥- ٤٠ ألفًا فى جبهة الشام وأنه أعيد تشـكيل جيش ثالث تراوحت قوته بين ١٢-١٥ ألفًا لفتح مصر. وكما هى عـادة «جلوب» فإنه ذكر تلك الأرقام المتواضعة عن جيش المسلمين عندما كان يقصد أمرًا آخر هو نفى عروبة الدول التى فتحها المسـلمون فيقول «إن الحجم الضئيل لجيش الفتح الإسلامى مـا كان ليترك هذا الأثر وإن قلة حجم المسـلمين ضاعت فى الخضم الهائل من سكان البلاد المفتوحة».

«٥٩» ص ٣٢٩.   «٦٠» ص ٦٢٩، ٦٣٠.

المقارنة العامة للقوات المتحاربة

من النتائج التى توصلنا إليها لتقدير حجم القوات والتى كان فى الإمكان حشدها بسهولة طبقًا لطاقات المتحاربين، يمكن الخروج بنسب المقارنة العامة لقوات الجانبين، من الجدول التالى:

البيان	الجبهة الرومانية «الشام ومصر»		الجبهة الفارسية	
	المسلمون	الروم	المسلمون	الفرس
إجمالى القوات	٥٠ ألفًا	٥٠٠ ألف	٣٠ ألفًا	٣٠٠ ألف
النسبة	١	١٠	١	١٠

أى أن قوات المسلمين كانت تواجه فى كل جبهة بقوات تبلغ عشرة أمثالها. ومع ذلك فإن هذه النسبة (١ : ١٠) تمثل الحد الأدنى، أى أنها قد تزيد عن ذلك لأسباب عديدة نذكر منها:

١ـ يجب أن نضع فى الاعتبار أننا احتسبنا نسبة تعبئة القوات إلى عدد السكان بشكل يحقق أدنى نسبة فيما يخص الفرس والروم (١٪) بينما يحقق أعلى نسبة للمسلمين (٥٪) درءًا لشبهة التحيز.

٢ـ لم ندخل فى حساب المقارنة تفوق نوعيات بعض القوات، مثل حجم قوات أساطيل الروم البحرية والتى قدرت بحوالى ٨٠ ألف مقاتل حسبما ورد فى بيانات كل من «جلوب» و«نورمان بينز»، وكذا سلاح الأفيال «المدرعات» المستخدم بكثرة فى الجيش الفارسى.

٣ـ كان الجيش الإسلامى هو الطرف المهاجم بينما خاضت جيوش الفرس والروم حربًا دفاعية الأمر الذى يزيد من عبء الجيش الإسلامى ويضاعف من نسبة المقارنة العددية.

والعسكريون يعلمون أهمية تحقيق نسبة تَفَوق ٣ : ١ لقوات المهاجم إلى المدافع حتى يتمكن من تحقيق النصر.

٤- كانت القيادة الإسلامية تدير حربًا طاحنة على جبهتين فى وقت واحد، بينما تفرغت كل من القيادتين الفارسية والرومانية لإدارة حرب دفاعية كل على جبهته. ولاشك أن ذلك ضاعف من مصاعب الحشد والمناورة وإدارة العمليات على عاتق القيادة الإسلامية.

٥- العبء الإدارى الكبير الذى واجه القيادة الإسلامية، نظرًا للامتداد الهائل لخطوط المواصلات لإمداد قوات المسلمين من قاعدتهم الرئيسية بالمدينة المنورة وحتى خطوط قتالهم الأمامية والتي بلغت آلاف الكيلو مترات، بينما كانت خطوط مواصلات أعدائهم غاية فى القصر لأنهم يدافعون عن حصونهم فى أرضهم.

٦- كانت الخبرة القتالية فى صالح الفرس والروم، فلم يسبق لقوات المسلمين خوض حرب على هذا المستوى الدولى.

إن نسبة (١ : ١٠) التي برزت من المقارنة، ما هى إلا ترجمة فعلية وواقعية لما ورد فى صدر الآية الكريمة :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

(الأنفال: ٦٥).

هذه الحقيقة كانت حاضرة بقوة فى ذهن أمير المؤمنين عمر «رضى الله عنه» وعكسها كتابه إلى قائد جيشه فى جبهة فارس، جاء به : «آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصى

منكم من عدوكم، فإن ذنـوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسـلمون بمعصية عدوهـم لله، ولولا ذلك لـم تكن لنا بهـم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهـم، ولا عدتنا كعدتهم؛ فإن استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصر عليهم بفضلنـا لم نغلبهم بقوتنا» (٦١) وذكره «ابن عبد ربه» في «العقد الفريد».

تقدير حجم القوات كما وردت في مراجع المؤرخين المسلمين

لم تحدد هذه المراجع الحجم الإجمالي للقوات المتحاربة، وإنما عنيت بذكر تفاصيل هذه الأرقام في كل معركة على حدة. وسوف نحاول من خلال تلك الأرقام التوصل إلى النسبة العامة لمقارنـة القـوات على جبهتي الفـرس والروم. وسـوف نركز علـى أكثر المعارك التي تعرضـت أرقامها لطعن «جلوب» وهي «أجناديـن» و«اليرموك» بالشـام، و«بابليون» و«الإسـكندرية» بمصر، و«القادسية» و«نهاوند» في فارس، وقد تم تجميع تلك الأرقام من المراجع الآتية:

١- تاريخ الأمم والملوك، للطبري ـ ونرمز له بالحرف (أ).

٢- البداية والنهاية، لابن كثير ـ ونرمز له بالحرف (ب).

٣- فتوح البلدان، للبلاذري ـ ونرمز له بالحرف (جـ).

٤- الفتوحـات الإسلامية، لابن دحلان ـ ونرمـز له بالحـرف (د).

والجدول التالي يوضح نتائج تجميع هذه البيانات.

«٦١» ص ٢١٠ جمهرة رسائل العرب.



مسرح العمليات	المعركة	إجمالى القوات المتحاربة بالألف / المرجع		متوسط نسبة المقارنة
		المسلمون	الفرس / الروم	
الشام	أجنادين	٢٤ (جـ) ـ ٤٠ (أ، ب)	٩٠ (أ، د) ـ ١٠٠ (جـ) ١٢٠ (ب)	١ : ٣,٢
	اليرموك	٢٤ (جـ) ـ ٤٦ (أ، ب، د)	٢٠٠ (جـ) ـ ٢٤٠ (أ، ب، د)	١ : ٦,٢
مصر	بابليون	١٢ - ١٥ (جـ، د)	أكثر من ١٠٠ (د)	١ : ٧,٤
	الإسكندرية			
فارس	القادسية	١٢ (أ، جـ) ـ ٣٦ (د)	١٢٠ (أ، جـ، د)	١ : ٥
	نهاوند	٣٠ (أ، ب، جـ، د)	١٠٠ (جـ) ١٠٥ (د) ١٥٠ (أ، ب)	١ : ٤
متوسط النسبة العامة للمقارنة				١ : ٥,٢

يتضح من الجدول أن النسبة المتوسطة العامة للمقارنة بين قوات المسلمين وقوات الفرس والروم كما وردت بمراجع المؤرخين المسلمين هى حوالى ١ : ٥,٢ وهى بالقطع أقل من نسبة ١ : ١٠ التى توصلنا إليها من قبل وهى دليل كاف لنفى تهمة المبالغة التى ألصقها «جلوب» بهؤلاء المؤرخين. كما انفردت مراجع هؤلاء المؤرخين بذكر هذه الأرقام ولم يتمكن الكتاب الغربيون من ذكر أى رقم مخالف لها استنادًا إلى دليل موثوق.

إن انتصار المسلمين فى معارك الفتح الإسلامى طبقًا لمقارنة القوات، هو بمثابة معجزة إلهية بكل المقاييس وترجمة فعلية لانتصار الفئة القليلة المؤمنة الصابرة على الكثرة الكافرة، صدق ذلك «جلوب» أو لم يصدق، الأمر الذى أصابه بالحيرة واضطره إلى وصفها على حد قوله «تكاد تشبه المعجزات !!».

ولقد تولى «اللواء الركن محمود شيت خطاب» فى كتابه

«العسكرية العربية الإسلامية»، الرد على من شككوا في الأرقام التي ذكرها المؤرخون المسلمون عن أعداد القوات والخسائر من الشهداء، وبأنهم لم يكن لديهم فكرة عن علم الإحصاء. يقول «إن التشكيك في تعداد المقاتلين وخسائرهم من الجانبين، لا يدل إلا على الحقد الأسود أو الجهل المطبق»(٦٢) ثم يشرح كيف كان الإحصاء يتم في جيش المسلمين، أوجزه:

كان المقاتل المسلم يخرج للقتال في عشيرته أو قبيلته وتقسم الجنود، كل عشرة مقاتلين يتولاهم «عريف»، وكل عشرة عرفاء يتولاهم «نقيب» «قائد مائة»، ويعين «أمير» على كل عشرة نقباء «قائد ألف أو أكثر». وقائد الجيش «قائد على عشرة آلاف»، وكلهم من نفس العشيرة أو القبيلة والتعارف بينهم لا ينقطع. وكان القائد يستعرض جنوده قبل خوض أية معركة وكان يعرفهم بأسمائهم، وكلما مر بجندى يلقى بسهم في مكان معين. وبنهاية المعركة يقوم القائد باستعراض جنوده للمرة الثانية فيأخذ كل جندى سهمًا، وما تبقى من السهام فهو عدد الشهداء. وبإنشاء «ديوان الجند» الذى نظم مرتبات الجند، أصبح الإحصاء بالأسماء أكثر دقة.

***

«٦٢» ص ٢٣ - ٢٧.



الفصل الرابع
استكمال الرد على تشكيك «جلوب»
فيما دونه المؤرخون المسلمون

ما لبث نجم البدو أن سطع بباهر الضياء مدة قرن واحد وجيز حافل بالأبهة والفخامة، مدوا فى أثنائه حكمهم ولغتهم من بلاد الأندلس حتى حدود الصين، ومنحوا العالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية فى العالم.

«هـ. ج. ويلز»
«موجز تاريخ العالم»

احتاج التاريخ فى الغرب إلى قرون طويلة لكى تظهر شخصيته ويستقل ويقدم علما كاملا له أصوله ومناهجه وقواعده أما عند المسلمين فقد ولد من أول الأمر علما مستقل الشخصية واضح الخصائص، لأنه نشأ على نفس الأصول التى قام عليها علم الحديث، وهى الضبط والدقة والأمانة وتحرى الصدق.

د.حسين مؤنس
(الحضارة)

أولا: تواريخ المعارك فى الفتح الإسلامى

قال: «جلوب» (وكثيرا ما افتقرت التواريخ التى أوردوها إلى الدقة.. وكان الواحد منهم يختلف عن الآخر فى تحديد معركة من المعارك بنحو عامين على الأقل)(٦٣)

سوف نستعرض التواريخ التى ذكرها كل من الطبرى وابن كثير

«٦٣» ص ١٣.

والبلاذرى فى مراجعهم ونقارنهم بالتواريخ التى ذكرها «جلوب» وأخذ بها ووافق عليها فى كتابه. وحتى لا يتسع مجال البحث والمقارنة، فسوف نكتفى بتواريخ المعارك الرئيسية التى جرت على الجبهات الثلاث وهى معارك «أجنادين» و«اليرموك» بالشام، «القادسية» و«نهاوند» بفارس، و«بابليون» و«الإسكندرية» بمصر، كما سبق وفعلنا عند مقارنة القوات والجدول التالى يبين نتائج هذا التجميع:

الجبهة	الشام / التاريخ		فارس / التاريخ		مصر / التاريخ	
المرجع / المعركة	اجنادين	اليرموك	القادسية	نهاوند	بابليون	الإسكندرية
الطبري	١٣هـ أو ١٥هـ	الأولى ١٣هـ الثانية ١٥هـ	١٥هـ	٢١هـ	٢٠هـ	٢١/٢٢هـ أو ٢٥هـ
ابن كثير	١٣هـ أو ١٥هـ	١٣هـ أو ١٥هـ	١٥هـ	١٧هـ والمشهور ٢١هـ	١٦هـ والمشهور ٢٠هـ	٢٠هـ
البلاذري	١٣هـ	١٥هـ ١٣هـ الياقوصة	١٦هـ	١٩هـ وقيل ٢٠هـ	٢٠ هـ	٢١هـ
جلوب	١٣هـ ٦٣٤م	الأولى ١٣هـ ٦٣٤م الثانية ١٥هـ ٦٣٦م	١٦هـ فبراير / مارس ٦٣٧م	٢١هـ ٦٤٢م	٢٠هـ أبريل ٦٤١م	٢١هـ سبتمبر ٦٤٢م

ونخرج من الجدول السابق بالنتائج الآتية:

أولا: معارك جبهة الشام

١- يتفق المؤرخون على أن معركة أجنادين وقعت عام ١٣هـ، وهو ما أقره «جلوب» غير أن كلا من الطبرى وابن كثير ذكرا فى مرجعيهما سير معركة «أجنادين» مرة أخرى فى تبويبهما للأحداث التى جرت عام ١٥هـ، ومن المعروف أنهما يؤرخان بالحوليات وأعتقد أن ذلك حدث من باب التكرار فى وصف الأحداث لربطها بما بعدها من معارك.

٢- اتفق المؤرخون على وقوع معركتين باليرموك، الأولى عام ١٣هـ والثانية وهى المعركة الفاصلة عام ١٥هـ، وهو ما أخذ

به «جلوب» أيضا، بينما انفرد البلاذرى بذكر معركة اليرموك الثانية عام ١٥هـ وسمى الأولى «١٣هـ» بالياقوصة. ذكر المقدم «ياسين سويد» في كتابه (معارك خالد بن الوليد» أن هناك رأيًا ذكره المؤرخ «جورج مرعى حداد» فى كتابه «فتح العرب للشام» نقلا عن المستشرق «ميخائيل دى جويى»، وهو أن هناك عدة مدن منها مدينة قديمة اسمها «يرموث» وأن هناك معركتين تدعيان «اليرموك»، الأولى سميت بمعركة «يرموك أو يرموث» وهى معركة «أجنادين» التى جرت عام ١٣هـ، والثانية هى معركة «يرموك أو هيروماكس» والتى استعارت اسمها من نهر اليرموك والتى يعتقد وقوعها عام ١٥هـ(٦٤).

ثانيا: معارك جبهة فارس

١- اتفق الطبرى وابن كثير على أن معركة «القادسية» وقعت عام ١٥هـ بينما ذكر البلاذرى أنها وقعت عام ١٦هـ وأيده «جلوب» فى ذلك، أى أن الفرق بين المؤرخين هو عام واحد لا أكثر.

٢- اتفق الطبرى وابن كثير على أن معركة «نهاوند» وقعت عام ٢١هـ وأيدهما «جلوب» فى ذلك، بينما خالفهما البلاذرى وذكر عام ٢٠هـ. أى أن الفرق بين المؤرخين هو عام واحد أيضا لا أكثر.

٣- وعلى ذلك، فإن الفرق فى بعض التواريخ لم يزد على العام.. ومع ذلك يقول «جلوب»: من الصعب علينا أن نحدد بالضبط تاريخ معركة القادسية، فالتباين القائم بين المؤرخين يصل إلى حدود عامين)(٦٥) وقد توصل «جلوب» إلى أنها وقعت عام ١٦هـ/ ٦٣٧م عن طريق حساب المدة الزمنية التى استغرقها الجيش الإسلامى الداعم للوصول من مكان حشده إلى مكان المعركة «المسافة، السرعة، تاريخ بدء التحرك».

«٦٤» بتصرف وإيجاز ص ٢٥٠. «٦٥» ص ٣٠٥.

ثالثا: معارك مصر

اتفق الجميع على تاريخ معركة «بابليون» وهو عام ٢٠هـ، واتفق الطبرى والبلاذرى على وقوع معركة «الإسكندرية» عام ٢١هـ بينما حدد لها ابن كثير عام ٢٠هـ وقد أخذ «جلوب» بما ذكره الطبرى.

رابعا: تعقيب

لم ترد فروق فى التواريخ التى ذكرها المؤرخون المسلمون عن هذه المعارك تصل إلى عامين كما ذكر «جلوب»، وإنما كان الفرق فى بعضها عامًا واحدًا، وهو أمر يمكن تبريره كما يلى:

١- كانت معارك الفتح تدور رحاها ولم يكن قد بدأ بعد اتخاذ الهجرة النبوية بداية للتأريخ الإسلامى. فكما ذكر الإمام الحافظ «جلال الدين السيوطى» فى كتابه «تاريخ الخلفاء»، «أول من كتب التاريخ عمر بن الخطاب لسنتين ونصف من خلافته، فكتب لست عشرة من الهجرة بمشورة علىّ»(٦٦) وكان العرب قبل ذلك يؤرخون بأسلوبهم القديم أى التأريخ بمشاهير الأحداث وبذلك فإن معارك «أجنادين» و«اليرموك» بل وأيضا «القادسية» جرت قبل الأخذ بالتأريخ الهجرى ولم تصل المعارك الأولى تلك مدونة إلى المؤرخين فى الغالب وإنما وصلتهم من رواة مختلفين يعتمدون على الأسلوب القديم الذى يعتمد على ربط التاريخ بمشاهير الأحداث، الأمر الذى قد يوجد بعض الاختلافات فى تحديد تواريخ المعارك.

٢- لقد وقعت بعض المعارك فى بداية العام وبعضها فى نهايته، ومن الرواة من ألحق المبكرة بالعام السابق والمتأخرة بالعام التالى بسبب الاختلاف حول بضعة شهور أو أسابيع.

«٦٦» ص ١٣٨.



٣- هـذه الاختلافـات لا تمثـل عائقـا جوهريـا أمـام المؤرخ العســكرى ولا تؤثـر بشـكل كبير علـى مجمل التأريـخ للفتح، فهـى لا تزيد على عام بل لو كان الاختلاف يصل إلى العامين كما ذكر «جلوب»، فهو لا يبرر مطاعنه.. وقد سبق وذكرنا التضارب الهائل فى تاريخ تدوين إنجيل يوحنا.

ثانيا: أسلوب المؤرخين الأول فى التأريخ العسكرى:

يقـول «جلوب» (وبالإضافة إلى افتقـار هؤلاء المؤرخين إلى الاهتمـام بالعمليـات العسـكرية فإنهم دونـوا تواريخهم، وقد حرموا من ضرورة وجود خرائط عسـكرية تشرح هذه بالمعارك فبالنسـبة إلينا نحن ألفنا النظر إلـى الخرائط منذ نعومة أظفارنا وتعودنـا تصـور المواقـع المتصلـة بمختلف الأماكـن نرى من المتعذر علينـا أن نتصور كيف يمكن للمـرء أن يتابع الحديث عن معركة من بالمعارك دون أن تكون هناك خريطة يتابع عليها هـذا الحديث ومن الواضح حقـا أن المؤرخين العرب لم يكونوا علـى فهم صحيح المعـارك والحملات الحربيـة التى يتحدثون عنها) (٦٧) والخلاصة، هى أن «جلوب» يقيم أسـلوب ومنهاج هؤلاء المؤرخين بمقياس المؤرخ العسكرى المعاصر.

إن دراسة التأريخ العسكرى بمفهومنا المعاصر لا تقتصر على مجرد سرد الأحداث، وإنما يجب أن تصاحب عملية السرد عملية تحليلية تتضمن رأى الباحث المؤرخ العسـكرى والذى يمكن أن يتحول إلى فلسـفة للتأريخ فالهدف من دراسـة التأريخ العسكرى هو تفهم مواقف القتال بطريقة نقدية تركز على الظواهر المتكررة من أجل اسـتنباط قوانين الصراع المسلح والتى تساعد فى إعداد الدولـة وقواتها لدعم أمنها القومى. فمثلا بدراسـة عدة معارك فى

«٦٧» ص ١٣- ١٤.

أزمنة مختلفة نجد أن القادة اتخذوا فيها قرارا واحدا. مثال على ذلك، اتخاذ القادة قرارا بسلوك أصعب الطرق الوعرة والتى لا يتوقع الطرف الآخر سلوكها لتحقيق المفاجأة وإحراز النصر فمثلا نجد أن قرار «الملك تحتمس الثالث» فى معركة «قادش» هو نفس قرار «الإسكندر الأكبر» فى معركة «فيرونا» وهو نفس قرار «خالد بن الوليد» فى مسيره ومعركة «اليرموك» وهو نفس قرار «نابليون» فى معركة «عكا».. إلخ

ويتضمن التأريخ العسكرى أقساما عدة كالتأريخ للمعارك ولفن الحرب وصياغة النظريات العسكرية استنباطا من خبرات القتال السابقة وأيضا التأريخ للقوات المسلحة بمكوناتها من تطور فى التكوين والتنظيم والتسليح والفكر العسكرى كل هذا الجهد يبدأ بالتدوين، فالتأريخ للمعارك هو فى مجمله نقل للأحداث بتفاصيلها دون تحليل، ثم يأتى التأليف بعد التدوين وهو سرد لهذه الأحداث والتبويب لها وتفسير طبيعتها وتطوراتها وأسبابها وإجراء التحليل العقلى لها للخروج بالدروس المستفادة وبذلك فإن التدوين شىء والتأليف شىء آخر.

وقبل أن نطبق تلك المعايير على المؤرخين المسلمين الأول، علينا أولا أن نطبقها على المؤرخين العرب المعاصرين. للأسف، نجد- نحن العسكريين العرب- أن الدراسات التى بين أيدينا عن التأريخ العسكرى هى ترجمة لما زرعه فينا المستعمر من الاقتصار على دراسة معارك الحربين العالميتين الأولى والثانية، وغياب شبه كامل للدراسات الحربية العميقة عن العصر الإسلامى ومن المفارقات المؤلمة أننى عندما حصلت على درجة الماجستير فى العلوم العسكرية عام ١٩٦٨م على يد السوفييت، ذكر لى كبير الخبراء الروس أنهم قاموا بدراسة عميقة للتأريخ العسكرى لمعارك الفتح الإسلامى لمعاونتهم فى بلورة عقيدتهم العسكرية.



إن من تصدى للتأريخ العسكرى من المعاصرين العرب، فئات ثلاثة:

● الفئة الأولى: وهم المتخصصون فى التاريخ العام ولا يمتلكون الدراية الكافية بالعلوم العسكرية وفن الحرب، وبالتالى فإنهم لا يتناولون هذا الموضوع بما يستحقه من دراسة وتحليل، بل إن بعضهم لا يجده مستحقا لهذا العناء. فمثلا نجد أن أستاذ التاريخ الإسلامى «د. أحمد شلبى» فى كتابه «التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية» وبعد أن يستعرض اختلاف الروايات الواردة عن معارك الفتح فى مراجع التاريخ الإسلامى القديمة، يقول: ولن نعنى كثيرا بهذا الاختلاف إذ لا أرى كبير فائدة فى معرفة ما إذا كانت دمشق فتحت قبل اليرموك أو بعدها، وأى الأجزاء فتح على يد خالد وأيها فتح على يد أبى عبيدة وأى أجزائها فتح صلحا وأيها فتح عنوة»(٦٨).

● الفئة الثانية: وهم الكتاب والمفكرون غير المتخصصين سواء فى التاريخ العام أو فى التاريخ العسكرى، وهم الفئة الغالبة. وهم معنيون فى المقام الأول بالجانب الأدبى والروائى وغالبا ما تكون كتاباتهم متأثرة بما ذكره المستشرقون من طعون على المراجع الإسلامية القديمة يقول «د. أحمد شلبى» فى كتابه «إن هؤلاء المستشرقين سبقوا المسلمين فى دراساتهم، وكانوا أساتذة لكثيرين من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا للتعمق فى الدراسات الإسلامية وطرق البحث فيها، وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساتذتهم المستشرقين وعادوا فكتبوا، وتقرأ ما كتبوه، فتلمس أن كتاباتهم تجافى روح الإسلام فى كثير من الأحيان»(٦٩).

«٦٨» ص ٢٠٧.　　«٦٩» ص ٦.

● الفئة الثالثة : وهم من حاولوا قدر طاقتهم الاستفادة مما دونه المؤرخون المسلمون الأول ، وقاموا بعدة محاولات للتأليف العسكرى للفتح ومنهم «اللواء محمود شيت خطاب» الذى ألف العديد من الكتب القيمة عن الفتح الإسلامي وقادته ومن أشهرها كتابه «الفاروق القائد» ، و«المقدم ياسين سويد» وكتابه القيم «معارك خالد بن الوليد» ، أيضا «د .محمد عبدالفتاح عليان» وكتابه «دراسات فى الخلفاء الراشدين» و«المشير محمد عبدالحليم أبو غزالة» وكتابه «الانتصارات العربية العظمى» إلا أنه يأخذ فى كتابه هذا بالكثير من آراء الجنرال «جلوب» .

موقف المؤرخين المسلمين الأول من التاريخ العسكرى:

١- لاشك أن المؤرخين المسلمين الأول كالطبرى وابن كثير والبلاذرى عنوا فقط بالتدوين وعلى الرغم من أن البلاذرى كان أكثرهم تصرفا فى مؤلفه «فتوح البلدان» ، فإنهم جميعا كانوا من المدونين للأحداث والوقائع دون التطرق إليها بالنقد والتحليل والتأليف .

٢- علينا أن نضع فى الاعتبار أن هؤلاء المؤرخين عنوا بالتأريخ العام وكان ما دونوه عن معارك الفتح الإسلامي يمثل جزءا محدودا من جملة ما دونوه عن التاريخ الإسلامى الشامل .

٣- رغم أنهم لم يكونوا من المؤرخين العسكريين ، فإنهم قاموا بجهد رائع يشكرون عليه فلولاه لما أصبحت لدينا مادة علمية يمكن البناء عليها والاستنباط منها وهو ما فعله «جلوب» نفسه . إنه من الظلم البين أن نطالب هؤلاء المؤرخين أو نتوقع منهم أن يكونوا مؤرخين عسكريين محترفين ولا يعنى هذا أنهم لم يكونوا على فهم صحيح بما دونوه من أحداث ومعارك كما يدعى «جلوب» . إن سردهم للأحداث مع تعدد وأحيانا اختلاف

الروايات، يكمل بعضه بعضا ويتيح المجال للمؤرخ العسكرى المحترف أن يدلي بدلوه.

٤- إن اعتراض الجنرال «جلوب» على هؤلاء المؤرخين لعدم إرفاقهم خرائط عسكرية يشرحون عليها سير المعارك الحربية، فيه تجن زائد. إن حركة التأليف الجغرافي بواسطة المسلمين بدأت في نفس الوقت الذى بدأت فيه الكتابة التأريخية، حيث ألف المؤرخون المسلمون كتبا فى علم الخرائط متأثرين بكتابات الإغريق ولم يكن استخدام الخرائط خارج مجال التأريخ الجغرافى معروفا لديهم آنذاك إلا أن ذلك لا يعنى بحال أن المسلمين لم يستعينوا بوسائل أخرى مثل التخطيط على الرمال لتوضيح طبوغرافية مسرح العمليات الحربية وهى طريقة عرفت منذ عصر الرسول « ﷺ » فعندما نزلت الآية الكريمة:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾

«الأنعام: ١٥٣»

ورد عن عبدالله بن مسعود قوله: «خط لنا رسول الله « ﷺ » يوما خطا، ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمينه وخطوطا عن يساره ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ هذه الآية)(٧٠) وعندما نستعرض المكاتبات التى تبودلت بين «أمير المؤمنين عمر» والقادة الميدانيين، فسوف نجد أن الشرح التفصيلى لطبيعة الأرض فى مسرح العمليات كان له وزن بالغ الأهمية فمثلا عندما كان «سعد بن أبى وقاص» على مشارف «القادسية» قبيل نشوب القتال، تلقى.

«٧٠» تفسير القرطبى ص ٢٥٧٣ - ٢٥٧٤.

كتابا من «عمر» جاء في سياقه عن طلب عمر معرفة موقف الفرس وطبيعة الأرض «واكتب لي: أين بلغك جمعهم؟ ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم، فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتابة به، قلة علمي بما هجمتم عليه، والذى استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين، والبلد الذى بينكم وبين «المدائن» صفة كأنى أنظر إليها، واجعلنى من أمركم على الجلية وخف الله وأرجه..»(٧١) فرد عليه «سعد» بكتاب مطول بدأه بشرح المكان وطبيعة الأرض بدقة كاملة ثم وصف أوضاع قوات الفرس والمسلمين. كما كان كتاب «عمر» إلى قائده الميدانى بالشام «أبى عبيدة» ـ سوف نتناوله بالتفصل عند الحديث عن معركة اليرموك ـ يوضح بجلاء أن عمر كان على علم كامل ودقيق بطبوغرافية مسرح العمليات ونكاد نوقن بأنه كان يستعين بالتخطيط على الرمال وهو ما يعرف الآن «بتختة الرمل»» عند العسكريين المعاصرين كبديل للخرائط مع الفارق.

ثالثا: مصادر المؤرخين المسلمين الأول

تتلخص ملاحظات «جلوب» فى غموض مصادر هؤلاء المؤرخين، وعدم قيامهم بالبحث عن الروايات الصحيحة إذا ما تضاربت الروايات ونلاحظ أن ما ذكره «جلوب» كانت ملاحظات عامة ولم يشر إلى تفاصيل محددة تظهر تضارب المصادر بشكل يخل بمصداقية سرد الأحداث ومع ذلك فإن «جلوب» محق فى المطالبة بضرورة إخضاع مراجع هؤلاء المؤرخين لتحقيق المصادر التى استندوا إليها.

لقد ذكرنا من قبل أن التأريخ العربى عند نشأته سلك نفس الطريقة التى سلكها الحديث «السند والمتن» وكانت أقدم

«٧١» ص ٢١٢.



الكتب التاريخية التى تجمع بين الحديث والتاريخ هى كتب السيرة والمغازى، وكان المؤرخون الأول يعتمدون على الروايات الشفهية وهو ما يعرف بالأسانيد وكان لكل مؤرخ من المؤرخين مصادره وأسانيده وإن اختلفت من رواية حدث لآخر فإنها كانت بشكل عام تكمل بعضها البعض.

وبينما خضعت كتب الأحاديث كصحيح البخارى ومسلم وغيرهما للتحقيق ونشأ ما عرف بعلم «الجرح والتعديل» لتتبع الصحيح من غيره من الأحاديث، فإن كتب التأريخ للمسلمين الأول لم تنل نفس القدر من الاهتمام بتحقيق مصادرها كما أعتقد، ولم يكن فى مقدور المؤرخين الأول القيام بهذا الجهد كما طالبهم «جلوب»، ولم يكن مطلوبا منهم، فلهذا العمل متخصصوه من العلماء الذين يمتلكون أدواته وطرقه وهو عبء يحتاج من علماء التاريخ المعاصرين أن يبذلوا ما فى وسعهم لإنجازه.

***

الفصل الخامس
أسباب الفتوحات الإسلامية
كما يراها الجنرال «جلوب»

قال تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

«التوبة: ١١١»

قال رسول الله ﷺ:

«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذى نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله»

عن أبى هريرة– صحيح البخارى

وقال: «لتفتحن عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرًا فإن لكم منهم صهرًا وذمة»

ذكره السيوطى– تاريخ الخلفاء

«ليس هناك فيما حفظ عن حياة النبى ما يشير إلى أن النبى قد تصور أو توقع احتلال سوريا وفارس»

«جون باجوت جلوب»

«الفتوحات العربية الكبرى»



ظل الرومان أسياد العالم ثمانمائة عام. على أن قبائل آسيوية أخرى ظهرت على مسرح الأحداث في القرن السابع للميلاد، وتحدت سلطان الغرب. وهذه القبائل هم العرب، وكانوا دعاة مسالمين يجوبون الصحارى منذ أقدم الأزمنة دون أن تبدو من جانبهم دلائل على طموحهم إلى التوسع والسلطان. آمن هؤلاء العرب بالإسلام الذى بشر به محمد وامتطوا صهوة جيادهم واندفعوا إلي قلب أوروبا في أقل من قرن وأبلغوا فلاحى فرنسا الدعوة إلى الله ذى الجلال الواحد الأحد وأن محمدًا رسوله..»

«د. هندريك فان لون»

«قصة الجنس البشرى».

رأى «جلوب» في أسباب الفتح الإسلامي

يحدد الجنرال «جلوب» سببين رئيسيين للفتح الإسلامى، فيرى أن السبب الأول هو «الحماسة الدينية» وأما الثانى فهو مجرد الصدفة المحضة. ويعلل ذلك بأنه لم يكن لدى المسلمين أية نية مسبقة للفتح وأن كل ما حدث لا يخرج عن كونه حماسة دينية عاطفية هوجاء التقت مع صدفة عارضة. ترتب عليها الفتح.

فيقول «جلوب» معلقًا على الرسائل التى بعث بها الرسول ﷺ إلى ملك الفرس وإمبراطور الروم وحاكم مصر ونجاشى الحبشة يدعوهم فيها إلى الإسلام «لكن بعض المؤرخين المعاصرين أثاروا بعض الشكوك فى موضوع الرسائل فليس هناك فيما حفظ عن حياة النبى ما يشير إلى أن النبى تصور أو توقع احتلال سوريا وفارس» (٧٢).

كما أن «جلوب» نفى نية الفتح عن أول خليفة للرسول ﷺ

«٧٢»: ص ١٢٩.

أى الصديق، فقال «لكن أبا بكر لم يكن من رجال السياسة الأفذاذ، ولا من الذين تتجه طبائعهم إلى الفتح، بل كان رجلاً بسيطًا متواضعًا، كرس نفسه لذكرى نبيه ولخدمة دينه» (٧٣)

ولقد استدل على رأيه هذا بقيام أبى بكر بتقسيم الجيوش التى بعث بها للقتال، فقال: «ومن المنطق كل المنطق أن يرى الإنسان فى تقسيم أبى بكر دليلاً على أن تفكيره لم يكن متجهًا إلى الفتح والاجتياح، وإنما اتجه إلى الغزو والإغارة، لكن أساليب القتال عند العرب كانت من النوع العفوى العارض فى هذه الآونة» (٧٤).

ثم يستمر «جلوب» فى نفى نية الفتح، فيقول عن أمير المؤمنين عمر: «كان الإيمان بالله والاعتماد عليه هما اللذان يقرران له كل شىء ولهذا لم يكن للأدوات البشرية - القادة- من شأن كبير لديه.. «إن العرب آنذاك، كانوا يؤمنون بأن الشجاعة الكاملة هى التى تنتصر فى المعارك وأن القتال لا يحتاج إلى خبرة أو مهارة أو تدريب أو تنظيم» (٧٥)

وهو لا يرى فى عمر غير أنه متبع لخطى من سبقه تتحكم فيه رؤيته الدينية البحتة مجردا من أى رؤية أو فكر عسكرى.

ويخرج «جلوب» من مقدمته عن أسباب الفتح إلى النتيجة التى كان يستهدفها ولا يرى غيرها، فيقول «ومن هنا حق لنا أن نستنتج أن الفتوحات العربية الكبرى، لم تكن ثمرة تخطيط وتصميم، وقد حدثت هذه الفتوحات تلقائيًا من نفسها نتيجة الظروف العارضة.. وكان الحماس الدينى هو الحافز على الفتوحات العربية.. وهكذا كانت الروح القتالية عند العرب التى وجدت نفسها الآن أسيرة أوامر الدين التى تحظر على المسلمين قتال بعضهم البعض والتى وجدت السلطة الكافية المطلقة

«٧٣» ص ١٩١. «٧٤» ص ٢٠٥. «٧٥» ص ٢٧٤.

لإنفاذها ، هى العامل الأول فى التوسع الإسلامى ، أما العامل الثانى فكان مجرد صدفة عارضة حقا » . (٧٦) وهكذا يعتقد «جلوب» أنه عندما حرم الإسلام على المسلمين أن يتقاتلوا ، اضطروا اضطرارًا إلى تنفيث هذه الطاقة عن طريق محاربة جيرانهم ، خاصة وقد لاحت مصادفة فرصة فريدة هى تراجع نفوذ الفرس والروم عن هؤلاء الجيران أى الولايات العربية المتاخمة للمسلمين بسبب تردى الأوضاع فى كل من فارس والإمبراطورية الرومانية نتيجة للحروب التى دامت طويلاً بينهما وامتناعهما عن دفع الجزية لحكام تلك الولايات كالغساسنة واللخميين «المناذرة» .

لقد وضع بعض المستشرقين أسبابًا أخرى للفتح غير التى ذكرها «جلوب» كالأسباب العنصرية والاقتصادية . إلا أن «جلوب» ناقشها وأثبت عدم صحتها وهو أمر جيد يحسب لصالحه . فمثلاً ، يقول «كتب السير ماثيو أرنولد ، وهو من أعظم خبراء العصر فى الشئون العربية يقول : لعل من أبرز الاكتشافات الرائعة التى حققها المؤرخون العصريون ، الاعتراف بالحقيقة الواقعة وهى أن انتشار الإسلام الهائل فى النصف الثانى من القرن السابع لم يكن وليد حركة دينية عظيمة ، إنما كانت هذه التوسعات التى قام بها الجيش العربى ثمرة هجرات قام بها شعب امتاز بالحيوية والاندفاع . ساقته المجاعة ، ودفعه العوز إلى اجتياح الأراضى الأكثر ثراء فى بلاد جيرانهم الأسعد حظا . . » (٧٧) لكن «جلوب» رأى أن هذا الرأى جزء من الحقيقة لأن العرب كانوا دائمًا فى حالة من الفقر والجوع ألوف السنين قبل النبى محمد ﷺ وبعده ، وتساءل «جلوب» : لماذا وما الذى أدى إلى أن يصبحوا قومًا لا يغلبون مدة ربع قرن ؟ كما نفى «جلوب» أن يكون

«٧٦» ص ١٩١، ١٩٢.   «٧٧» ص ٤٦٥، ٤٦٦.

العامل الاقتصادى وراء الفتح مستندا إلى أمر عمر بن الخطاب باقتسام أموال قادة المسلمين، فقال «يميل كل عصر من العصور إلى أن ينسب إلى العهود التاريخية الأخرى العقلية الخاصة به.. أما في عصرنا المادى الحاضر، فقد أصبح من المألوف أن تنسب مثل هذه التفجرات للطاقة إلى الدوافع الاقتصادية، وإلى ضغط المجاعة فى الجزيرة العربية.

ولكن هذا الحدث- يقصد اقتسام عمر لأموال القادة- يعتبر وحده كافيًا لنفى هذا الافتراض.. إنها المعنويات العظيمة التى سادت المجتمع كله آنذاك- يقصد المجتمع العربى الإسلامي- هى التى مكنت عمر بن الخطاب من سلوك مثل هذا السلوك الصارم مع قادته العسكريين وولاته. ونقارن هذا الوضع بما كان عليه بلاط القسطنطينية من تنابذ وأنانية وتقسم إلى أحزاب ودسائس تحاك وراء الكواليس، تتبين لنا الحقيقة الناصعة فى أسباب انتصارات العرب العظيمة» (٧٨). هذه شهادة لصالح «جلوب» لكنه لم يسلم من الهمز واللمز عندما علق على «غزوة بدر» بقوله «وكان الغزو بالنسبة إلى العرب وسيلة طبيعية للخلاص من العوز» !!! (٧٩)

هذه الصورة المتشابكة التى رسمها «جلوب» عن أسباب الفتح، انبثقت من تصور ابتكره هو وصدّقه وهو انتفاء نية الفتح لدى المسلمين بدءا من النبى ﷺ ومن بعده الصحابة والخلفاء، ثم رتب عليه نتيجة هى غياب أى تصميم للفتح وبالتالى أى تخطيط له، وأن الأمر حدث بشكل ارتجالى عارض دفعت به الحماسة الدينية الهوجاء إلى الاكتمال.

«٧٨» ص ٣٧٩ - ٣٨٠. «٧٩» ص ٨٧.

مناقشة رأى «جلوب» فى أسباب الفتح

أولاً: النية فى الفتح:

يمكـن الرد على تشـكيك «جلـوب» في الرسـائل التى بعث بهـا النبى ﷺ إلى بعـض الحكام، بوجودها مدونـة فى المراجع الإسـلامية القديمـة وبالردود التـى تلقاها من بعضهـم. وقد يرد «جلـوب» بالتشـكيك فيها، فنقـول إن الهدية التـى تلقاها النبى ﷺ من حاكم مصر وزواجه من السيدة ماريا القبطية التى أنجبت له ابنه إبراهيم، كلها حقائق تاريخية ثابتة لا يمكن إنكارها وفيها الدليل على صحة بعثة النبى ﷺ لهذه الرسائل.

وتشـير العديـد مـن المراجع الإسـلامية إلى عكـس ما ذهب إليـه «جلوب» من انتفـاء نية الفتح لدى المسـلمين. فقد أوردت العديد من المراجع كصحيح البخارى والسيرة النبوية لابن هشام ومراجع المؤرخين كالطبرى وابن كثير، الكثير من الأخبار والآثار والأحاديـث النبوية الشـريفة التى تدل على وجـود النية المبكرة للفتح لدى المسلمين.

فمثلا قصة «سـراقة بـن مالك الكنانـى» والمذكورة فى كتاب العسـقلانى «الإصابة فى تمييز الصحابة»، والتى رواها البخارى، عندما أدرك سـراقة النبى ﷺ أثناء هجرته إلى المدينة، وأن النبى ﷺ كتب له أمانًا وقال له: «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟ قال: فلما أتى عمر بن الخطاب بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه، دعا سـراقة فألبسـه وقـال له عمر: ارفـع يديك، قـل: الله أكبر، الحمـد لله الذى سـلبهما كسـرى ابن هرمز، وألبسـهما سـراقة الأعرابى»(٨٠) وقد رواها أيضًا ابن عباس.

وعندما كان المسلمون منهمكين فى حفر الخندق أثناء غزوة

«٨٠» ص١٢٧ – ٨٢١ جـ٣.

الأحزاب، وردت عدة أحاديث وآثار بروايات متقاربة منها ما ذكره ابن إسحق «عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت على صخرة، ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان عليَّ، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة فلمعت تحت المعول برقة، قال: ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى. قال: ثم ضرب به الثالثة، فلمعت تحته برقة أخرى.

قال: قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أو قد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت: نعم، قال: أما الأولى فإن الله فتح عليَّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليَّ بها المشرق»، وقد ورد حديث مشابه رواه «النسائي» مطولا وذكره ابن كثير في البداية والنهاية. (٨١)

وقد جاء في البخاري، عن «أبي هريرة» أنه قال «قال رسول الله ﷺ «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله». (٨٢)

كما ورد حديث عن «عدي بن حاتم» جاء فيه قول الرسول ﷺ لرجل «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله، قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيء الذين سعروا البلاد، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت كسرى ابن هرمز؟ قال: كسرى ابن هرمز» (٨٣).

«٨١» ص ٩٩ جـ ٤. «٨٢» ابن كثير ص ٢٧١ جـ ٤.

«٨٣» ابن كثير ص ٦٦ - ٦٧ جـ ٥.



ويذكر ابن كثير فى البداية والنهاية ، أنه بعد أن مزق كسرى رسالة النبى ﷺ وسلط الله عليه ابنه شيرويه فقتله ، أن الرسول ﷺ أتاه خبر ذلك من السماء وأنه كلف رسولى الملك «بازان» إليه ، أن يقولا له «إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهى إلى الخف والحافر ، وقولا له إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء» .(٨٤)

ذكر «ابن الأثير» أن الرسول ﷺ قال «إن أمتى ستظهر على الحيرة وقصور كسرى ، وأرض الشام والروم ، وقصور صنعاء ، وبشر المسلمين بذلك» . والحديث الذى رواه «البيهقى» عن أم حرام جاء فيه أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول «أول جيش من أمتي يغزو مدينة قيصر مغفور لهم» .

أما عن فتح مصر ، فقد وردت عدة أحاديث وآثار منها ما رواه «عمرو بن العاص» عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جندًا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض .

فقال أبو بكر : ولم يا رسول الله . قال : لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم الدين» .

كما ذكر «السيوطي» في كتابه «تاريخ الخلفاء» حديث رسول الله ﷺ «لتفتحن عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرًا فإن لكم منهم صهرا وذمة»

وسواء صدّق «جلوب» هذه الآثار والأحاديث ، أم لم يصدقها ، فإنها بلا شك كانت حاضرة وبقوة فى وعى المسلمين واستمرت آثارها فى نفوسهم طوال عصر الفتح بدليل أن الرسائل التى بعث

«٨٤» ابن كثير ص ٢٧٠ جـ ٤.

بها عمر بن الخطاب إلى قادة جيوشه تضمنت إشارات واضحة على أحاديث الرسول ﷺ ونبوءاته بالفتح. فقد ورد في كتاب «جمهرة رسائل العرب» نقلا عن كتاب «فتوح الشام» للواقدي، كتاب عمر ردا على كتاب أبي عبيدة، يقول فيه عمر عن الشام «إنها دار الله. وهو فاتحها عليكم تصديقًا منا لقول نبينا عليه الصلاة والسلام، فاصبروا إن الله مع الصابرين»(٨٥).

كما أن عمر أرسل كتابًا إلى عمرو بن العاص أثناء فتحه لمصر يوصيه فيه بأهلها قال فيه « إن معك أهل ذمة وعهد، وقد أوصى رسول الله بهم وأوصى بالقبط فقال: استوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا. ورحمهم أن أم إسماعيل منهم» (٨٦).

ولا شك أن إلباس عمر تاج كسرى لسراقة كان تصديقًا لوعد الرسول ﷺ ونخلص مما سبق، إلى أن نية الفتح كانت متوفرة لدى المسلمين تصديقًا منهم لنبوءات الرسول ﷺ. وأن بدء الفتح يتوقف على اكتمال أركانه، من بروز تهديد لأمن الدولة الإسلامية الناشئة وتقدير الموقف واتخاذ القرار ببدء القتال.

ثانيًا: أسباب بدء القتال:

لم يكن من المنطقي أن يبدأ الصديق بالفتح قبل أن يتمكن من إخماد فتنة الردة التي اشتعلت مع بداية توليه مسئولية الخلافة.

لقد بدأت الحرب من أجل حماية حدود الدولة الإسلامية الناشئة بتحرير الولايات العربية المتاخمة لها من نفوذ الفرس والروم، وسرعان ما تحولت إلى حرب شاملة قصد منها الفتح والدعوة إلى الإسلام.

هذا التطور لا ينفي نية الفتح لكنه يفسر التدرج المنطقي

«٨٥» ص ١٥٥.　　«٨٦» ص ١٩٧.



لخطوات ومراحل تنفيذه على أرض الواقع. كانت أسباب قتال المسلمين للفرس والروم ذات جذور مبكرة، فتصرف كسرى مع الرسول الذى بعثه إليه النبى ﷺ وتمزيقه لرسالة النبى إليه، كافية لتبرير قتال المسلمين للفرس.

لقد تعددت أسباب بدء القتال على الجبهات الرئيسية المختلفة:

جبهة فارس: كان «المثنى بن حارثة الشيبانى» ومعه ثمانية آلاف رجل يقاتل فى العراق، ثم ذهب إلى أبى بكر الصديق يطلب دعمه فى قتاله. ويعلق «جلوب» على ذلك بقوله «وقصد المثنى المدينة حيث حصل على موافقة الخليفة. ولما كان الخليفة قد تسلم خُمس الفىء من الغنائم والسبايا، فإنه لم يعترض على هذه الغارات التى لم تكن فى مخططه»(٨٧)!! وهكذا يحاول «جلوب» بأسلوبه بالهمز وللمز، إظهار الصديق وكأن هدفه من الحرب لم يكن غير جمع الغنائم والأسلاب. ولقد أثبتت الأحداث غير ذلك، فقد أجل الصديق قراره بفتح السواد بالعراق لحين الانتهاء من حروب الردة، وكلف «خالد بن الوليد» بهذه المهمة بالتنسيق مع «المثنى بن حارثة»: ويقول ابن دحلان فى كتابه «الفتوحات الإسلامية» «فلما قدم خالد أمر أبو بكر المثنى أن يكون مع خالد. ونزلوا الحفير.. وكان صاحبه اسمة «هرمز» فكان يحارب العرب فى البر ويحارب الهند فى البحر» (٨٨) ويصف «الحفير» بأنها كانت أعظم فروج فارس وأشدها شوكة.

جبهة الروم بالشام: كانت غزوة «مؤتة» بداية الصدام المباشر بين المسلمين وقوات الروم المدعمة بالقبائل العربية الموالية لهم. وكانت وقعة «تبوك» التى قاد النبى ﷺ بنفسه

«٨٧» ص ٢٠٣.   «٨٨» ص ١٨.

قوات المسلمين فيها ذات دلالة كبيرة. لقد وقعت هذه الغزوة بسبب قيام «هرقل» ملك الروم بحشد جيوشه على حدود الدولة الإسلامية الناشئة، وهو ما نفاه «جلوب» وكانت قيادة النبى ﷺ لهذه الغزوة ذات مغزى خاص فقد نجح فى إيصال رسالته إلى الروم، فآثروا الانسحاب إلى داخل بلادهم، خوفًا من مواجهة المسلمين فى الصحراء المفتوحة، واكتفى الرسول ﷺ بفرض سلطانه على أمراء المناطق العربية المجاورة وقبولهم بدفع الجزية.

وقد ذكر «جلوب» خبر «تبوك» بشكل مغاير وبما يتفق ورأيه فى النبى ﷺ.

كانت الشريعة الرومانية قد بنيت على القول بأن «من جاورك فهو عدوك، تخضعه، أو يخضعك، وتبدؤه بالحرب ما استطعت أو يبدؤك هو بالحرب متى استطاع» كما ورد فى كتاب «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» (٨٩) للأستاذ «عباس العقاد».

وكان إصرار أبى بكر على إرسال بعثة أسامة بن زيد دليلاً على تفهم الخليفة لمدى خطورة التهديد الرومانى، فلولا هذه البعثة لطمعت قبائل غسان وقضاعة فى المسلمين ولأغرت الروم بالانقضاض على الدولة الإسلامية وهى ما تزال فى مرحلة نشأتها.

وقد جاء السبب المباشر لمحاربة الروم، كما يقول المستشرق «ل. أ. سيديو» فى كتابه «تاريخ العرب» عندما اشتبك خالد بن الوليد مع جيش الروم الذى انضم لدعم الفرس والعرب من بنى تغلب بالقرب من «الفراض» الواقعة على شاطئ الفرات الشرقى»(٩٠) . ولا شك أن هذا الحدث الخطير بلغ أبا بكر فقرر فورًا مواجهة تهديد الروم.

«٨٩» ص ٣٢٧.　　«٩٠» ص ١١٧.



يقـول «ابن دحـلان» «لما أراد أبو بكر رضـى الله عنه أن يجهز الجنود إلى الشـام دعا عمر وعثمان وعليًا وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجريـن والأنصار من أهـل بدر وغيرهم، وشـاورهم، وكلهم استصوبوا رأى أبى بكر – رضـى الله عنه – (٩١)، أى أن الصديق جمع «مجلس حرب» لتقدير الموقف واتخاذ القرار المناسب.

وبالفعـل بدأ «أبو بكر» بحشـد قـوات جديدة لهـذا الغرض، وكانت بداية مسلسل فتح الشام ثم مصر.

جبهة الروم بمصر: كانـت النية لفتح مصر مستقرة بلا شك وبعمق في وجدان المسلمين تصديقًا منهم لنبوءات الرسول ﷺ، وأصبحت الظروف مواتية للفتح بعدما تصاعدت المواجهة بين الدولة الإسـلامية الفتية والإمبراطوريـة الرومانية التى تراجع نفوذها وسلطانها.

كانت مصر تمثل سـلة الغـذاء لبيزنطة وبذلك أصبح حرمانها منها ضـرورة تمليهـا إسـتراتيجية الفتح الإسـلامى. كما كانت الإسـكندرية هى القاعدة الرئيسية للأسـطول الرومانى البيزنطى والتـى تتيح للروم القـدرة على تهديد قوات المسـلمين بكل من الشام وفلسطين، كان القضاء على هذا التهديد أمرا لازما لحماية الجناح الغربى للدولة الإسـلامية. وكان السـخط قد عم النصارى فـى مصر بسـبب الاضطهـاد الدينى من قبـل الرومـان، والعبء الضخـم مـن الضرائـب المفروضة عليهـم، ولم يكن تـردد أمير المؤمنيـن عمر فـى المبادرة إلى اتخاذ قرار الفتـح راجعًا إلى عدم قناعته بالفتح بل لخوفه على جيش المسـلمين الذى قاده «عمرو بـن العاص» والذى لم يتعد ٣٥٠٠ مقاتل، كما أراد أن يسـتكمل

«٩١» ص ٣١.

تثبيت أركان الدولة قبل فتح جبهة جديدة خاصة وقد ترامت أطرافها ووصلت حدودها إلى ما وراء فارس والعراق والشام وفلسطين فضلاً عن الجزيرة العربية.

ثالثًا: الحماسة الدينية

لقد ابتكر «جلوب» هذا المصطلح ليكون بديلاً عن فريضة الجهاد في سبيل الله كما يؤمن بها المسلمون. وكما جعلها السبب الأول في الفتح، فإنه جعلها أيضا السبب الأول في انتصار المسلمين كما سوف نرى فيما بعد.

وهو يحرص على وصف هذه الحماسة بشكل يجعلها بمثابة اندفاع عاطفي أهوج. وسوف نناقش هذا الموضوع بشيء من التفصيل عندما نتحدث عن أسباب انتصار المسلمين في الفتح. ومع ذلك، فإنه من الطريف أن «جلوب» نفسه نقض هذه الفكرة ورفضها في كتابه الثاني «إمبراطورية العرب»، حيث يقول «ظل العرب يمثلون أقوى قوة عسكرية في العالم بلا منازع طيلة قرنين كاملين.. ولا يمكن أن ينسب استمرار هذا التفوق العسكري مثل هذه المدة الطويلة إلى مجرد «الحماسة الدينية». إذ إنه يعني أول ما يعني، أنهم كانوا أكثر شعوب العالم في ذينك القرنين إتقانًا لفن الحرب العسكري»!!! (٩٢) وأعتقد أن «جلوب» قد اقتبس فكرة «الحماس الديني» من كتابات المستشرقين والكتاب الغربيين مثل «إدوارد جيبون» الذي قال «كان الرومان يجهلون مدى الخطر المحدق بهم.. فالعرب الذين نشروا فتوحاتهم من الهند إلى أسبانيا كانوا قبل ذلك قومًا خاملين يعيشون في فقر وذلة حتى نفث فيهم النبي محمد روح الحماس» (٩٣).

«٩٢» إمبراطورية العرب ص ٣٦٩.

«٩٣» ص ٣٥٦ - ٣٥٧ جـ ٢.

رابعًا: غياب التصميم والتخطيط للفتح

كما هو متبع في أسلوب المستشرقين، بدأ «جلوب» بطرح فكرة انتفاء النية للفتح، وبذلك رتب عليها عدم وجود تصميم أو تخطيط للفتح، وأخيرًا وصل إلى هدفه من ذلك بأن حول فكرته إلى قاعدة يعتبرها حقيقة مؤكدة لا جدال فيها، فيقول «في خلافتي أبي بكر وعمر لم يكن هناك تخطيط عسكري من مقر القيادة العليا في المدينة، وصحيح أن الخليفة كان يوافق على كل زحف أو حركة إلى الأمام، ولكنه لم يكن يرسم خطة هذه الحركة، وكانت الجيوش وحدها أو القبائل في كل منطقة من المناطق هي التي تضج مطالبة بالاندفاع أو الزحف. ولكن كثيرًا ما كان الخليفة يرفض الموافقة على تقدم جديد يلحف بطلبه القادة المحليون» (٩٤).

وهكذا جرد «جلوب» القيادة العليا من القيام بأي دور على المستوى التعبوي والاستراتيجي، الأمر الذي يخالف تمامًا وبكل تأكيد الحقيقة الواقعة وهو الدور الرائع لهذه القيادة وهو ما سوف يتضح بجلاء لا لبس فيه في الفصول التالية.

خامسًا: دور العامل الاقتصادي في الفتح

أعتقد أن جلب المنافع الاقتصادية لم يكن سببًا مباشرًا للفتح بقدر ما كان نتيجة مؤكدة له، وهو الرأي الذي أخذ به «جلوب» مشكورًا، ولا شك أن الفتح حقق منافع اقتصادية للمسلمين الفاتحين، من توفير الأموال لبيت المال كي توزع في مصارفها المحددة، ولعل نجدة سكان الجزيرة العربية في عام المجاعة دليل على ذلك. وقد نظمت أحكام الشريعة الإسلامية كل تلك الأمور، وليس غريبًا أن تحوز تلك الأحكام على كراهية المستشرقين وأشياعهم وتجعلهم يدعون أن العامل الاقتصادي

«٩٤» ص ٥٤١.

كان السبب الرئيسى للفتح .

وقبل أن ننهى حديثنا عن أسباب الفتح ، أود أن أشير إلى رأى غريب ذكره «المشير أبو غزالة» فى كتابه السابق الإشارة إليه ، ولعله انفرد بهذا الرأى حيث ذكر أن الصديق أبا بكر «قرر أن يضرب العرب بفارس وبالروم فيشغلهم عن أنفسهم فلا يعودون للخصومة فيما بينهم» (٩٥) . وبالقطع لم يكن قرار الصديق بدخول الحرب راجعًا إلى حرصه على منع اقتتال المسلمين فيما بينهم ، بل إن «جلوب» ذكر عكس هذا الرأى عندما قال إن تحريم الإسلام اقتتال المسلمين فيما بينهم ساعد على تحويل طاقاتهم إلى قتال جيرانهم .

أما إن كان «المشير أبو غزالة» قصد عرب الولايات ، ولم يقصد المسلمين ، فلا أظن أن الصديق قصده . وأعتقد أن «المشير أبو غزالة» تأثر برأى كل من المستشرقين «يوليوس فلهوزن» و«كارل بيكر» ولسوف نناقشه فى نهاية هذا البحث بإذن الله .

***

«٩٥» ص ١٤٥.

الفصل السادس

معركة اليرموك، نموذج من روائع الفن العسكرى الإسلامى، طمسها «جلوب»

(لقد استطاع الإسلام بفضل عبقريته العسكرية والظروف التاريخية الملائمة أن يكتسح فى زمن قصير بلادًا كانت تتمثل فيها جميع المنجزات الفكرية القائمة آنذاك، وسرعان ما أخذت حضارته تتبنى لنفسها هذه المنجزات).

«فرانز روزنثال»
(علم التاريخ عند المسلمين).

(ليس صعبًا أن يلحظ المرء نقاط التشابه بين استراتيجية عمليات نابليون فى معركة «أولم» وبين استراتيجية عمليات العرب فى معركة اليرموك الثانية.)

«منير شفيق»
(علم الحرب)

تقديم:

من خلال سرده المشوق وصياغته البديعة لمعركة من المعارك، يقوم «جلوب» بطبع صورة مخالفة للحقيقة فى وجدان القارئ. وهو أسلوب برع «جلوب» فى استخدامه بذكاء فى عدة مواضع من كتابه لطمس الحقيقة. ولعل سرده لمعركة اليرموك الثانية فيها الدليل على ذلك. لقد وقعت معركتان فى منطقة اليرموك بالشام، الأولى عام ١٣هـ والثانية عام ١٥هـ وهى المعركة الحاسمة التى أنهت النفوذ البيزنطى بالشام. وسوف نبدأ بذكر وصف الجنرال «جلوب» لهذه المعركة كما جاء فى كتابه، ثم نشرح حقيقة ما حدث.

وصف الجنرال «جلوب» لمعركة اليرموك

أولاً: المرحلة التحضيرية للمعركة:

يبدأ «جلوب» بوصف تلك المرحلة فيقول (كان الجيش الذى جنده «هرقل» فى الأشهر الأولى من عام ٦٣٦م (١٥هـ) أضخم جيش حارب فى سوريا حتى ذلك اليوم، ولم يكد هذا الجيش ينزل إلى الميدان.. حتى كان العرب يجلون عن معظم المناطق التى فتحوها فى غضون الاثنى عشر شهرًا الأخيرة.. ورابطت قوات المسلمين من جديد وراء نهر اليرموك ولحق بهم الروم وأعادوا احتلال فجوة درعا.. وكان العرب والحالة هذه يؤثرون أن يجروا قدم الجيش الرومانى إلى القتال فى الصحراء إلى الجنوب من اليرموك بدلا من أن يخوضوا معه معركة ثابتة عند فتحة درعا ولكن لم يكد العرب يمرون من الفتحة مخلفينها وراءهم باتجاه الجنوب، حتى كان الروم يعيدون احتلال هذه الحصون الدفاعية القديمة ويغلقون أبواب سوريا.. ولا ريب فى أن «هرقل» قد تنفس الصعداء عندما سمع بأن جيشه قد عاد إلى احتلال فتحة درعا وأن العرب قد خرجوا منها إلى الصحراء جنوبا.. واستمرت فترة الركود الثانية فى فتحة درعا زهاء أربعة أشهر رفض الروم إبانها بأن ينصاعوا لإغراء العرب بالخروج من حصونهم) (٩٦)

وقد وقعت بعض الاشتباكات المحدودة بين الجيشين المتواجهين. ثم يبدأ «جلوب» يمهد لتبرير هزيمة الروم القادمة والتى يراها من وجهة نظره فيقول إن هذه الأسباب (الخيانة فى صفوف الروم كانت أكبر أثر على جيشهم من عمليات العرب كما يبدو.. ظهر احتكاك خطير بين الإغريق والأرمن.. وقد أدت هذه المنافسات المستمرة بين الوحدات المختلفة فى الجيش

«٩٦» ص ٢٦٥ - ٢٦٨.

الرومانـي ، ومـا نجـم عنها مـن تدهور فـي الانضبـاط ، بالإضافة إلى الأسـابيع الطويلـة من الجمود داخل الحصون إلى اسـتكمال الانحطـاط المعنوى فـي الجيش الرومانـي وكان العرب قد تلقوا تعزيـزات قوية مـن الجزيرة العربيـة وأخذوا يتحولـون يومًا بعد آخـر إلى الهجوم وأصبحوا يحيطون تقريبًـا بمواقع الروم أو أنهم قطعـوا مواصلاتهـم من ثلاث جهـات على الأقـل) (٩٧) ويعتب «جلـوب» على «تودز ـ تيود وريك» قائد جيـش القلب الرومانى، ليقول (وكان الأجدر بتودز وأحكم لو أنه خاض مع العرب معركة حاسـمة عندما التقى الجيشـان، إذ إن عدد جنده كان يتفوق على جنـد العرب تفوقًا هائـلاً) (٩٨)، ولعل تلك هـى المرة الوحيدة التى يعترف فيها بالتفوق الهائل لقوات الروم.

ثانيًا: المعركة:

يصـف «جلـوب» سـير المعركـة بوصف غايـة فـى الطرافة، محاولاً إثبات أن تدخل الطبيعة كان أهم أسباب انتصار المسلمين فـى المعركة، فيقول (وهبـت ريح قائظة عابثة مـن الصحراء من الناحيـة الجنوبيـة الغربية فى العشـرين من شـهر أغسـطس عام ٦٣٦م وأخذت سحب الرمال والتراب تلطم وجوه الجنود الروم. ولا أعتقـد أن هنـاك ما هو أسـوأ مـن عاصفة رملية قائظـة حقًا فى الصحـراء إذ إنهـا تقتلع عادة الخيام وتطيـح بعدد الطبخ ويمتلئ الطعـام والماء بالتراب بينما تلسـع ذرات الرمل الوجوه وتطمس الأعيـن ولا تزيد الرؤية فى مثل هـذه الحالات على بضع ياردات، ومن المتعذر على المرء أن يواجه مثل هذه الريح وكل ما يستطيع فعلـه هو الإقعاء علـى الأرض، والانتظار حتـى تنتهى العاصفة من نفسـها . وقد تسـتمر الريح يومين أو ثلاثة أيام، ومن المحتمل أن

«٩٧» ص ٢٦٨.   «٩٨» ص ٢٦٩.

يكون بدء هبوبها هذه المرة قد وقع مساء التاسع عشر من أغسطس مما مكن القادة العرب من وضع الخطة للقيام بهجوم عام شامل في الصباح التالي. وعلى الرغم من أن البدو لا يستسيغون هذه الزوابع الرملية إلا أنها كانت شيئًا عاديًا طالما ألفوه، يضاف إلى هذا أن اتجاه الريح كان في أقفيتهم وفي وجوه أعدائهم.. لكن المعركة سارت كما يبدو وفق خطة رسمها العرب إذ إن فصيلا من جنودهم احتل الجسر القائم على وادي الرقاد وراء جيش الروم.. وسرعان ما وثبت جماعات من العرب الصائحين وكأنهم العقبان الكواسر يسيرون وكأنهم الأشباح عبر الرمال المندفعة متدفقين على مواقع الروم.. ولما كان العرب قد قطعوا خط رجعة الروم باحتلالهم الجسر، فقد وقعت مذبحة هائلة.. ولم يتبق من الروم إنسان..) (٩٩) ومن الطريف أيضًا أن «جلوب» يقول عن معركة «القادسية» نفس الشيء (حمل العرب حملة صادقة أخرى، وبدأ الفرس في الانهيار إذ تخاذل القلب وأخذت صفوفه في التراجع، وهبت ريح عاتية في غضون ذلك وأخذت الرمال في الانتشار مبشرة بحلول ظروف تشابه تلك التي وقعت في اليرموك.. وسرعان ما انهار جيش الفرس..) (١٠٠) وكانت معركة القادسية كما يقول «جلوب» هي التي أنهت نفوذ الفرس كما أنهت معركة اليرموك نفوذ الروم.

وصف معركة اليرموك كما وردت بالمراجع الإسلامية

● تقديم: لا يستطيع المؤرخ العسكري أن يكمل بحثه بإتقان إلا إذا درس أوامر وتعليمات القتال الصادرة من القيادة العليا إلى القادة الميدانيين بالجيوش، كذا المكاتبات المتبادلة بينهم

«٩٩» ص ٢٦٩ – ٢٧٠.　　«١٠٠» ص ٣٠٣.



حتـى يتفهم نواياهم وأسـاليبهم فـى إدارة العمليـات الحربية . . وللأسـف ، لم يعط «جلـوب» لهذا الأمر حقه وأظنـه كان متعمدًا حتـى يثبت القاعـدة التى أراد أن يؤكد عليهـا وهى غياب أى دور للقيـادة الإسـلامية العليا فى التخطيـط وإدارة القتـال فى معارك الفتـح ، وهو ما ذكرناه بالفصل السـابق . كما أننـى لم أعثر على قصـة الرياح التى أفـاض «جلوب» في وصفها ، فـى أى من مراجع المؤرخين المسـلمين الأول اللهم إلا إشارة عابرة قصيرة للطبرى عن هبوب ريح فى المراحل الأخيرة من معركة القادسـية وأن جل مـا فعلته هو قلع خيمة القائد الفارسـى «رسـتم» فحـاول الهرب لكنه قتل فانهـارت معنويات جنده وهزموا . ولـم يوضح «جلوب» المصـدر الذى علـم منه توقيت هبوب رياح اليرموك وشـدتها بل واتجاههـا رغـم أنه قال بحدوثهـا منذ قرون . ولـو كان «جلوب» واثقًـا مـن حدوثها لكان الأجدر به أن يرى فيهـا دليلا على العون الإلهى للمسـلمين فى جهادهم خاصة أنها كانـت كما يقول ظاهرة تكررت فى معركة القادسـية فضلاً عن اليرموك وهما اللتان أنهتا نفـوذ كل مـن الفرس والـروم . ومع ذلـك ، فمن المؤكـد أن كلا مـن الفرس والـروم كانوا يقاتلـون على أرضهم التى عاشـوا فيها وخبروا ظروفها وألفوها بعكس المسلمين الذين قدموا من أقصى الجزيـرة العربية إلى مناطـق جديدة عليهم ومـن الثابت أيضًا أن الجيـش الرومانـى كان يحتـل حصونه وخندقه ولـم يكن معرضًا فى الصحراء المفتوحة للريح بعكس جيش المسـلمين المنتشـر بالصحراء أمامه والمعرض أكثر منه للريح .

لقد حاول «جلـوب» تصوير معركة اليرموك وكأنها اكتسـاح المسـلمين للروم ، ومـن ورائهم الريح تدفعهـم لقتل جنود الروم الذيـن لا يسـتطيعون رفـع رءوسـهم ، وهو وصف مضلـل ومناف تمامًا لمـا حدث ، فقد كانـت المعركة عامـرة بالحركة والمناورة

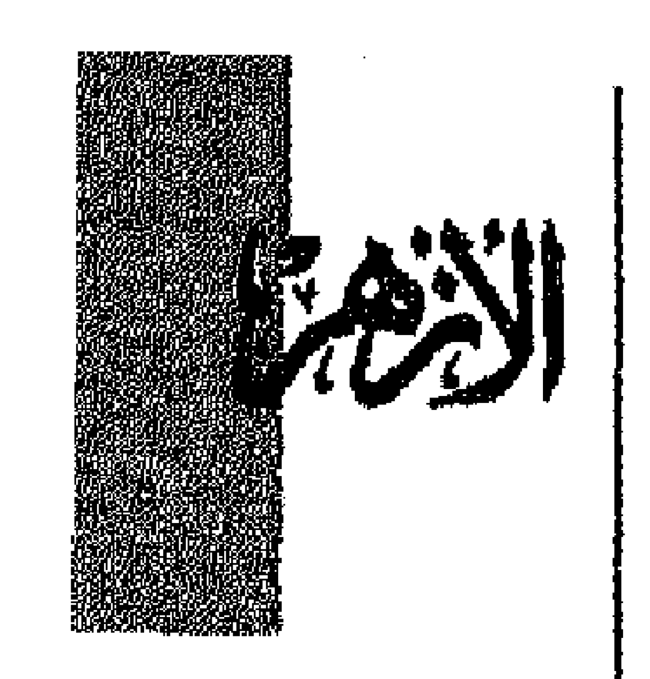
من هجوم وتراجع والتفاف وتطويق واختراق. وحتى لو صدقت قصة الريح، فإن استغلال قائد جيش المسلمين «خالد بن الوليد» لظروف الريح كما يقول «جلوب» ووضع خطة عاجلة للهجوم المباغت، والتى أثمرت النصر، هو عمل رائع يحسب لصالح المسلمين بلاشك وهو دليل على امتلاكهم عنصرى المبادأة والمفاجأة.

لم يذكر «جلوب» السبب الحقيقى لسهولة وقوع المذبحة الهائلة لجنود الروم على حد وصفه. لقد أجمعت كل مراجع المؤرخين المسلمين علي أن الروم كانوا يربطون جنودهم المشاة المحتلين للخندق بالسلاسل مع بعضهم البعض حتى لا يفرون من المعركة، وهو أسلوب اقتبسوه من الفرس، فكان قتل جندى واحد يوقع الكثيرين فيسهل قتلهم. يقول الطبرى (فيهوى الواحد بالعشرة لا يطيقونه، وكلما هوى اثنان كانت البقية أضعف، فتهافتت «الواقوصة» - يقصد قوات الروم باليرموك - عشرون ومائة ألف، ثمانون ألف مقترن - وأربعون ألف مطلق) (١٠١).

أولاً: المرحلة التحضيرية للمعركة من المراجع الإسلامية

ما إن تمكن «خالد بن الوليد» من إتمام احتلال جنوب العراق حتي شعر «هرقل» بأن المسلمين أصبحوا يمثلون خطرًا عليه فبدأ بحشد قواته لغزوهم فى عقر دارهم، المدينة المنورة.. كلف «أبو بكر» قائد قواته «خالد بن سعيد» والمتمركز فى تيماء بالقرب من تبوك أن يشتبك مع الروم لشغلهم لحين حشد جيش جديد وألا يتورط فى القتال، إلا أن ذلك القائد خالف أمر الخليفة فاستدرجه الروم إلى موقعه «مرج الصفر» بقرب دمشق وألحقوا بقواته خسائر

«١٠١» ص ٣٦ جـ ٤.



جسيمة ، دفع «أبو بكر» بقواته الجديدة إلى جبهة الشام وفلسطين وقسمها إلى أربعة ألوية ، الأول فى اتجاه العقبة ومنها إلى جنوب فلسطين بقيادة «عمرو بن العاص» ، والثانى عبر تبوك ثم شمالا إلى البحر الميت وشرق الأردن بقيادة «شرحبيل بن حسنة» ، والثالث عبر تبوك ثم شمالا إلى البلقاء ودمشق بقيادة «يزيد بن أبى سفيان» ، والرابع يندفع إلى حمص بقيادة «أبى عبيدة بن الجراح» على أن يتولى قيادة قوات المسلمين بالجبهة . وسرعان ما اشتبك المسلمون مع الروم وبات واضحًا حاجتهم إلى الدعم ، فأمر «أبو بكر» «خالد بن الوليد» بأن يسارع بالمناورة بنصف قواته من الحيرة إلى الشام لينضم إلى المسلمين ويتولى قيادة الجبهة بدل «أبى عبيدة» وصلت أخبار انتصار «خالد بن الوليد» فى معركة «أجنادين» والخليفة على فراش الموت . تولى أمير المؤمنين عمر الخلافة لتبدأ المرحلة التحضيرية للمعركة الفاصلة «اليرموك» وأول ما يلفت النظر ذلك الحجم الكبير من المكاتبات المتبادلة بين «عمر» وقادة المسلمين بالجبهة ، كلف «عمر» ، «أبا عبيدة» بتولى القيادة بدل «خالد» وتضمن كتاب توليته توصيته بالحفاظ على أرواح المسلمين (لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث بسرية إلا فى كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى التهلكة) (١٠٢) . وباعتباره القائد الأعلى ، أرسل «عمر» كتابًا آخر إلى قائده الميدانى يحدد له التفاصيل العامة لخطة العمليات التى عليه تنفيذها (أما بعد ، فابدءوا بـ«دمشق» فانهدوا لها ، فإنها حصن الشام ، وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل «فحل» بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم ، وأهل «فلسطين» وأهل «حمص» ، فإن

«١٠٢» ص ١٤٦.

فتحهـا الله قبل «دمشـق» فـذاك الذى نحب، وإن تأخـر فتحها حتى يفتـح الله «دمشـق» فلينزل بدمشـق من يمسـك بهـا (أى ترك قوة للدفاع عنها)، ودعوها وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على «فحل»، فـإن فتح الله عليكم فانصرف أنـت و«خالد» إلى «حمص» ودع «شـرحبيل» و«عمرا» وأخلهما بالأردن وفلسـطين، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته (أى تكون القيادة فى يـد من يدور القتال بمنطقته) (١٠٣). تشـير خطـة العمليات التى تضمنتهـا تعليمات العمليات التى أرسـلها «عمر» إلى «أبى عبيدة» بوضـوح إلى أن القائد الأعلى «عمر» كان علـى دراية ومعرفة كاملة بطبيعة مسرح العمليات ونكاد نجزم بأنه استعان «بتختة رمل» لهذا الغرض، كما تضمنت الخطة الخطوط العامة للعمليات المطلوب من القائـد الميدانى تنفيذها، وتصور واضح لكل الاحتمالات الممكنة وأنسـب قرار لكل منها، وأخيرًا أسلوب تولى قيادة العمليات. هذه الحقيقـة، تظهـر مدى الخطـأ الذى وقـع فيه «جلـوب» عندما قال (فـى خلافتـى أبى بكر وعمر لـم يكن هناك تخطيط عسـكرى من مقر القيادة العليا فى المدينة) (١٠٤) وبالفعل، تم محاصرة دمشق تمهيـدًا لفتحهـا، وتجمعت المعلومـات لدى «عمرو بـن العاص» بفلسطين عن تجميع الروم لحشود ضخمة، فكتب إلى «أبى عبيدة» (فـإن الـروم قد أعظمت فتح دمشـق، واجتمعوا مـن نواحى الأردن وفلسطين.. فاكتب إلىَّ برأيك» (١٠٥)، فأمده «أبو عبيدة» بقوات وكتب «أبو عبيدة» إلى «عمر» يبلغه بانتصار المسـلمين وانسحاب الـروم، ثم قال (وقـد وجهنا الخيول إلى الناحيـة التى فيها ملكهم وجنوده) (١٠٦) فرد عليه «عمر» يأمره بالتريث (لا تفعل، وابعث

«١٠٣» ص ١٥٠. «١٠٤» ص ٥٤١. «١٠٥» ص ١٥٣.
«١٠٦» ص ١٦١.



إلى خيلك فاضممها إليك، وأقم حتى يمضى هذا الحول، ونرى من رأينا، ونستعين بالله ذى الجلال والإكرام على جميع أمورنا) (١٠٧) أولاً، هذا دليل على بعد نظر الخليفة لأنه توقع رد فعل الروم على سقوط دمشق، ثانيًا هذا دليل على أن القيادة العليا بالمدينة المنورة كانت تدير العمليات فى الجبهة ولم تكن معزولة عنها كما يدعى «جلوب».

وبالفعل نفذ «أبو عبيدة» أمر الخليفة وأرسل إلى «ميسرة بن مسروق» قائد قوة الخيالة التى تطارد الروم، يقول «أما بعد، فإذا أتاك رسولى هذا فأقبل إلىّ حين تنظر فى كتابى هذا، ولا تعرجن على شىء، فإن سلامة رجل واحد من المسلمين أحب إلىَّ من جميع أموال المشركين) (١٠٨) وسرعان ما عاد «ميسرة» بجنوده.

شعر «هرقل» بأن المعركة القادمة ستكون الفاصلة، وبدأ بحشد أكبر قوة حشدها الروم من قبل كما قال «جلوب» ويفسر «جلوب» قدرة «هرقل» على تنفيذ هذا الحشد الهائل للقوات بأنه كان للروم السيادة البحرية، وكان فى مقدورهم إمداد جيوشهم بفلسطين عن طريق البحر من قاعدة متقدمة لهم فى «قيصرية» أو عن طريق «يافا» و«غزة» وكان من الواضح أن خطة «هرقل» تستهدف تدمير القوات المتفرقة للمسلمين على أجزاء، بادءا بقوات «عمرو بن العاص» بفلسطين. خلق هذا الوضع، موقفًا طارئًا أمام القيادة الإسلامية بالجبهة، وأصبح انتظار قرار من القيادة الأعلى بالمدينة سوف يستغرق وقتًا تضيع معه فرصة تعديل وضع المسلمين، وكان على «أبى عبيدة» أن يسارع إلى اتخاذ القرار وبالفعل، كان القرار هو إعادة تجميع قوات المسلمين والتراجع عن المناطق التى فتحوها

«١٠٧» ص ١٦١. «١٠٨» ص ١٧٠.

من قبل وبدءوا فى التجمع حول دمشق، وأرسل «أبو عبيدة» رسولاً بكتاب إلى «عمر» يشرح فيه مبررات القرار قال فيه (أما بعد، فإن عيونى قدمت علىّ من أرض عدونا.. فحدثونى بأن الروم قد توجهوا إلينا، وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأمة قط كانت قبلنا، وقد دعوت المسلمين، وأخبرتهم الخبر، واستشرتهم فى الرأى، فأجمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك) (١٠٩) استمع الخليفة إلى رسول «أبى عبيدة» وتفهم الأمر وكتب إلى «أبى عبيدة» (فإنه بلغنى توجهكم من أرض «حمص» إلى أرض «دمشق» وترككم بلادًا قد فتحها الله عليكم، وخليتموها لعدوكم وخرجتم منها طائعين فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم، وسألت رسولكم.. فزعم أن ذلك كان من رأى خياركم وأولى النهى منكم وجماعتكم، فعلمت أن الله عز وجل لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب.. وقد سألنى رسولكم المدد لكم، وأنا ممدكم قبل أن يُقرأ عليكم كتابى هذا.. واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير كنا نهزم الجمع الكثير..)(١١٠) وعندما أرسل «عمرو بن العاص» كتابًا إلى «أبى عبيدة» يخبره فيه بنقض «أهل الأردن» و«إيلياء» عهدهم حينما علموا بحشود الروم الضخمة، رد عليه «أبو عبيدة» مفسرًا سبب انسحاب المسلمين بقوله (إن ذلك - والحمدلله - لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم ولا وهن من عدوهم ولكنه كان رأيًا من جماعتهم كادوا به عدوهم من المشركين ليخرجوهم من مدائنهم وحصونهم وقلاعهم وليجتمع بعض من المسلمين إلى بعض، ويجتمعوا من أطرافهم، وينضم إليهم من كان قربهم، وينتظرون قدوم إمدادهم عليهم، ثم يناهضونهم إن شاء الله وقد اجتمعت خيلهم وتتامت فرسانهم، ووثقنا بنصر

«١٠٩» ص ١٦٢.   «١١٠» ص ١٦٢.



الله . . ثم أعلم مَن قبلك من المسلمين أني قادم عليهم بجماعة أهل الإسلام إن شاء الله ، فليحسنوا بالله الظن . .) (١١١) وبالفعل ، كان الروم قد حشدوا جيشًا جديدًا لهزيمة قوات « عمرو » بفلسطين في منطقة بئر سبع في الوقت الذى يتم فيه شغل قوات المسلمين الرئيسية قرب اليرموك . وكان في مقدور الجيش الرومانى ، إذا نجح في ذلك ، أن يتحرك إلى العقبة مهددًا خطوط المواصلات الرئيسية للمسلمين مع المدينة ، وبذلك يجبر جيش المسلمين على الانسحاب من اليرموك . يقول « جلوب » إنه ما إن علم القادة العرب بتحرك الجيش الرومانى جنوبًا حتى أصبح إنقاذهم لجيش « عمرو » مستحيلاً بالتحرك عن طريق « عالية » ولذلك سارعوا بدفع قواتهم والمسير ليلاً ونهارًا دون توقف عبر ممر « مؤاب » ومنه إلى « وادى عربة » ثم إلى صحراء « بئر سبع » ليصلوا إلى « عمرو » في الوقت الذى كان فيه الجيش الرومانى ما يزال يتحرك جنوبًا من قيصرية . ويعلق « جلوب » على ذلك بقوله (وهكذا كسب البدو السريعو الحركة على إبلهم . . السباق مع الجيش الرومانى البليد المترهل . .) (١١٢) ، لقد كانت الموازنة بين اختيار الطريق الصعب . والسهل يحكمها عامل الوقت ، فاختار المسلمون الطريق الصعب . . تجمع المسلمون أخيرًا باليرموك ، وأرسل « أبو عبيدة » كتابًا مع رسول إلى « عمر » جاء فيه (إن الروم نفرت إلى المسلمين برًا وبحرًا ، ولم يخلفوا وراءهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به (أى ضموه إلى الجيش) ، وأخرجوا معهم القسيسين والأساقفة ، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع ، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة ، وجاؤنا وهم نحو من أربعمائة ألف رجل ، وإنه لما بلغنى ذلك من أمرهم كرهت أن أغر

« ١١١ » ص ١٦٤. « ١١٢ » ص ٢٢٧.

المسلمين من أنفسهم، أو أكتمهم ما بلغني عنهم، فكشفت لهم عن الخبر، وشرحت لهم عن الأمر، وسألتهم عن الرأى، فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى أرض من أرض الشام، ثم يضم إلينا أطرافنا وقواصينا، وتكون بذلك المكان جماعتنا حتى يقدم علينا من قبل أمير المؤمنين المدد لنا، فالعجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال، وإلا فاحتسب أنفس المؤمنين إن هم أقاموا، ودينهم منهم إن هم تفرقوا، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به، إلا أن يمدهم الله بملائكته، أو يأتيهم بغياث من قبله، والسلام عليكم) (١١٣)
فرد عليه «عمر» بكتاب ورد به (فأما قولك: إنهم قد جاءهم ما لا قبل لهم به، فإن لم يكن لكم به قبل، فإن الله بهم قبلا، ولم يزل ربنا عليهم مقتدرًا، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا، ليهيهات ما قد أبادونا وأهلكونا (أى لأبادونا منذ بعيد)، ولكن نتوكل على الله ربنا.. وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال..) (١١٤) كما بعث «عمر» المدد. هذان الكتابان يعكسان أنه بقدر ضخامة جيش الروم والخطر المحدق بقوات المسلمين، بقدر ما كان إيمان أمير المؤمنين بوعد الله بالنصر للفئة القليلة المؤمنة الصابرة. كما تبين تمسك قادة المسلمين بمبدأ الشورى لاتخاذ القرار.

ثانيًا: المعركة كما وصفتها المراجع الإسلامية

كان المدد الذى بعث به أمير المؤمنين والذى قال عنه «جلوب» (وكان العرب قد تلقوا تعزيزات قوية من الجزيرة العربية..) فيه الكثير من المبالغة، فإن مقارنة القوات بين الروم والمسلمين قبيل نشوب المعركة وبعد وصول تلك التعزيزات تبين التفوق الهائل للروم. وقد أرفق «المشير أبو غزالة» في كتابه

«١١٣» ص ١٦٧.   «١١٤» ص ١٦٩.



جدولا يوضح هذه المقارنة، كما يلى:

البيان	القوة		النسبة	
	المسلمون	الروم	مسلمون	روم
١ - جيش تيودوريك / جيش عمرو بن العاص	٧ آلاف	٩٠ ألفًا	١	١٣
٢ - جيش الدارقصي / جيش شرحبيل بن حسنة	٧ آلاف	٤٠ ألفًا	١	٦
٣ - جيش نسطورس / جيش أبى عبيدة بن الجراح	٧ آلاف	٦٠ ألفًا	١	٨,٥
٤ - جيش جرجيوس / جيش يزيد بن أبى سفيان	٧ آلاف	٥٠ ألفًا	١	٧
إجمالى القوة الإسلامية / الرومانية بعد تعزيزات «عمر»	٣٤ ألفًا	٢٤٠ ألفًا	١	٧

لقد أضفنا فى الجدول قوة «خالد بن الوليد» ولم تتجاوز ٩ آلاف مقاتل والتى نفذ بها مسيرته ومناورته الشهيرة من الحيرة بالعراق. تظهر المقارنة الفرق الهائل لصالح الروم، خاصة أن الجيش الإسلامى هو الجانب المهاجم والذى يلزم أن يحقق نسبة تفوق ثلاثة أضعاف قوة المدافع لإحراز النصر كما يعلم جميع الخبراء العسكريين المعاصرين.

تشكيل قتال الجانبين:

كان تشكيل قتال الروم قبيل المعركة كما يصفه «المشير أبو غزالة» (قرر القائد الرومانى إدارة معركة دفاعية رغم تفوق قواته الكبير على العرب، ولذلك أمر بحفر خندق فى مواجهة الجيش العربى والاستفادة من طبيعة الأرض.. وكان الجيش يتكون من ٢٣ فرقة - تتراوح قوة الفرقة بين ٥ آلاف و ١٠ آلاف مقاتل - قسمت إلى ٣ أقسام، الميمنة بقيادة «الدار قصى»، الميسرة بقيادة «نسطورس»، والقلب بقيادة «جرجيوس»، وقسم القائد البيزنطى خيالته على كل من القلب والجناحين.. وفى يوم المعركة ربط الجنود المشاة الذين يدافعون عن الخندق بالسلاسل مع بعضهم

البعض . .) (١١٥) .

أما عن قوات المسلمين ، فقد ذكر «ابن الأثير» أنه لما اجتمعت الفرق في اليرموك كانت كل فرقة مستقلة عن الأخرى وكانت تقاتل متساندة ، فلما وصل «خالد بن الوليد» رأى أنه من الأفضل اجتماعها كلها تحت قيادة واحدة ، فجمع قادتها وشاورهم في الأمر فسلموه القيادة . وكما ذكر «المقدم ياسين سويد» في كتابه «معارك خالد بن الوليد» ، أن «خالدا» عبأ قواته في ٣٨ كردوسا (كل كردوس في حدود ألف رجل) ، وشكلها في ٥ أقسام (١١٦) :

١ ـ الميمنة ، مكونة من ١٠ كراديس بقيادة «عمرو بن العاص»

٢ ـ الميسرة ، مكونة من ١٠ كراديس بقيادة «يزيد بن أبي سفيان»

٣ ـ القلب ، مكون من ١٨ كردوسًا بقيادة «أبي عبيدة بن الجراح»

٤ ـ مفارز للتطويق والاستطلاع واحتياطي للقوات ، وتتكون من ٣ آلاف فارس بقيادة «غياث بن أشيم»

٥ ـ مجموعة النساء ، وتتمركز خلف الجيش ، وتتولى أعمال المهام الإدارية مثل التموين والإسعاف وإخلاء الخسائر ، وأيضًا منع الهاربين من القتال وإعادتهم للمعركة . بل وكلفت بالمشاركة في القتال عند الضرورة .

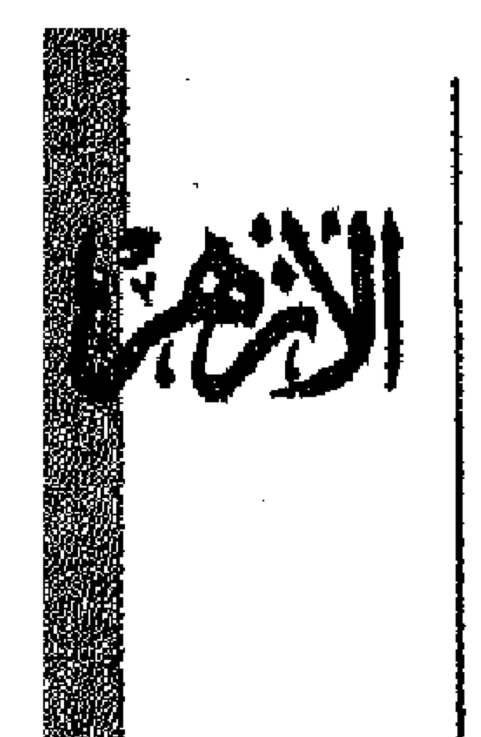
تلك كانت «التعبئة الخالدية» الشهيرة .

خطة «خالد» لإدارة المعركة تلخصت فيما يلي : (١١٧)

١ ـ تقوم كل من الميمنة والميسرة بتثبيت جناحي جيش الروم ومنعهما من تطويق المسلمين .

«١١٥» ص ٢٠٤ – ٢٠٥ . «١١٦» ص ٢٥٠ – ٢٥٨ .

«١١٧» بتصرف وإيجاز ص ٢٦٢ – ٢٧١ .



٢ ـ يقوم القلب بالهجوم بالمواجهة ثم يتظاهر بالانسحاب لإغراء الروم بالخروج من الخنادق وجرهم إلى القتال فى الأرض المفتوحة لإبادتهم.

٣ـ قطع خطوط مواصلات الروم لمنعهم من الانسحاب.

وكما خطط «خالد»، جرت المعركة وكانت مراحلها كما يلى:

المرحلة الأولى: تقدمت ميمنة الجيش الإسلامى وسدت المنفذ الوحيد لخروج الروم من صحن الواقوصة التى تحتله، بينما قام كردوسان بالهجوم على قلب جيش الروم ثم تظاهرا بالانسحاب، كما تم دفع قوة احتلت الجسر لقطع خط الرجعة على الروم من الخلف.

المرحلة الثانية: خرج الروم من الخنادق لشن هجوم مضاد قوى على قلب جيش المسلمين وعلى جناحه الأيمن وأحرزوا نجاحًا محدودًا ضد الجناح الأيمن وبدأ بعض المسلمين يتراجعون لكن النساء أعادوهم للقتال وحثوهم على الصبر، كما قام «خالد» بتعزيز الميمنة بدفع قوة من المفرزة (٤٠٠ مقاتل) نجحوا فى إجبار الروم على الانسحاب.

المرحلة الثالثة: استغل «خالد» ترك الروم لخنادقهم فأمر قوات القلب الرئيسية بالهجوم، كما كلف قوة احتياطى الفرسان بالاندفاع بسرعة والنفاذ فى الفاصل الموجود بين خيالة الروم وبين مشاتهم، وبذلك نجح فى فصلهما عن بعضهما وأمكن له حصار خيالة الروم فاشتد قتالهم اليائس وقاوموا المسلمين بضراوة. وما إن ظهر الإعياء عليهم، حتى أمر «خالد» بفتح ثغرة فى قوات المسلمين تسمح بمرورهم خلالها وبالفعل قاموا بالفرار إلى الصحراء. وهكذا بقى مشاة الروم المكبلون بالسلاسل بدون خيالتهم فأمكن القضاء عليهم تمامًا.

المرحلة الأخيرة قام «أبو عبيدة» بمطاردة الروم الهاربين بعد أن ترك مفرزة من قواته لحماية اليرموك بعد سقوطها في يد المسلمين ثم كتب إلى أمير المؤمنين يخبره بما تم.

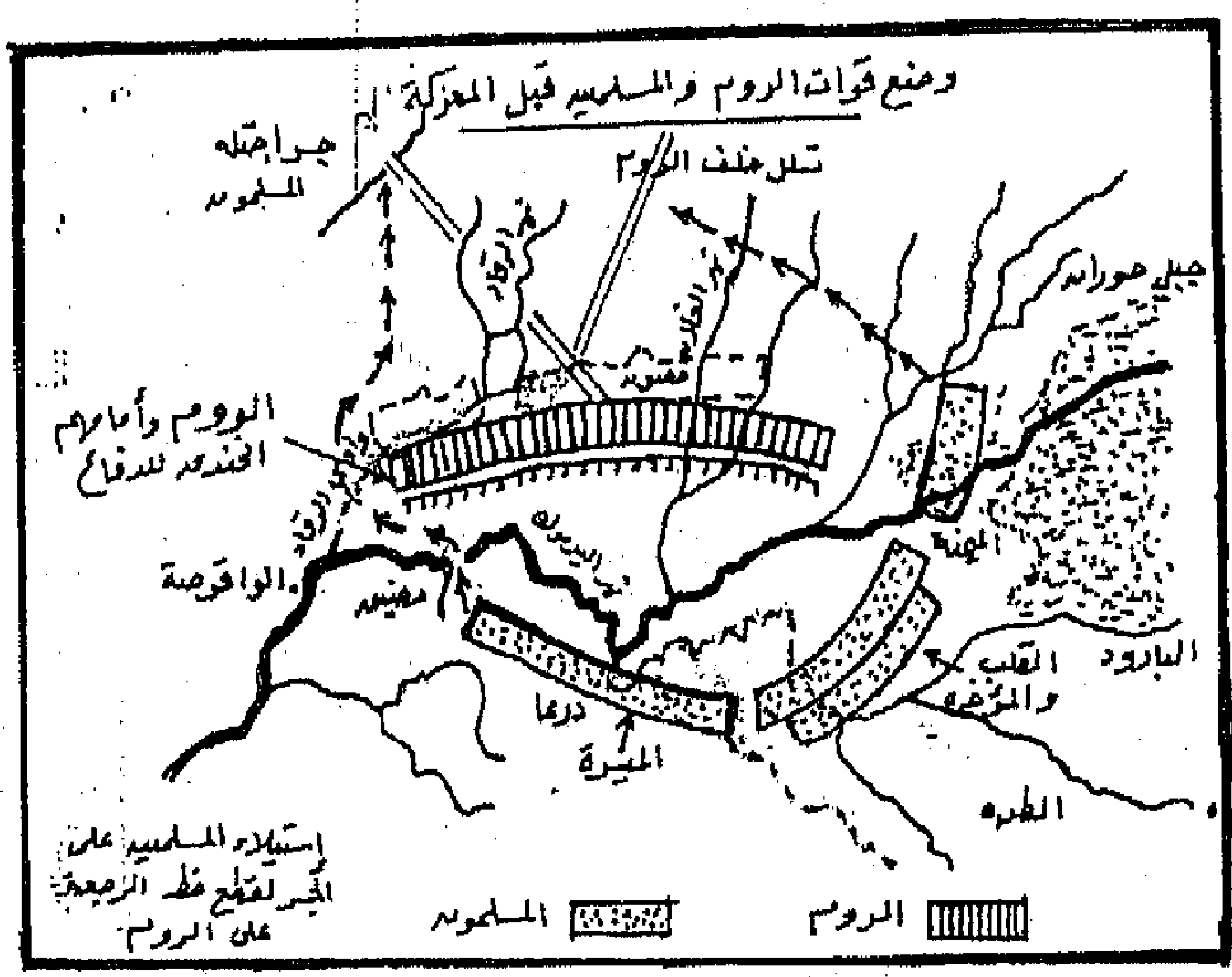
خاتمة: والآن، لا أجد دورًا ما لعبته الرياح فيما جرى، وأظن أن القارئ الكريم سوف يعيد من جديد قراءة ما ذكره الجنرال «جلوب» في وصفه لتلك المعركة!!.

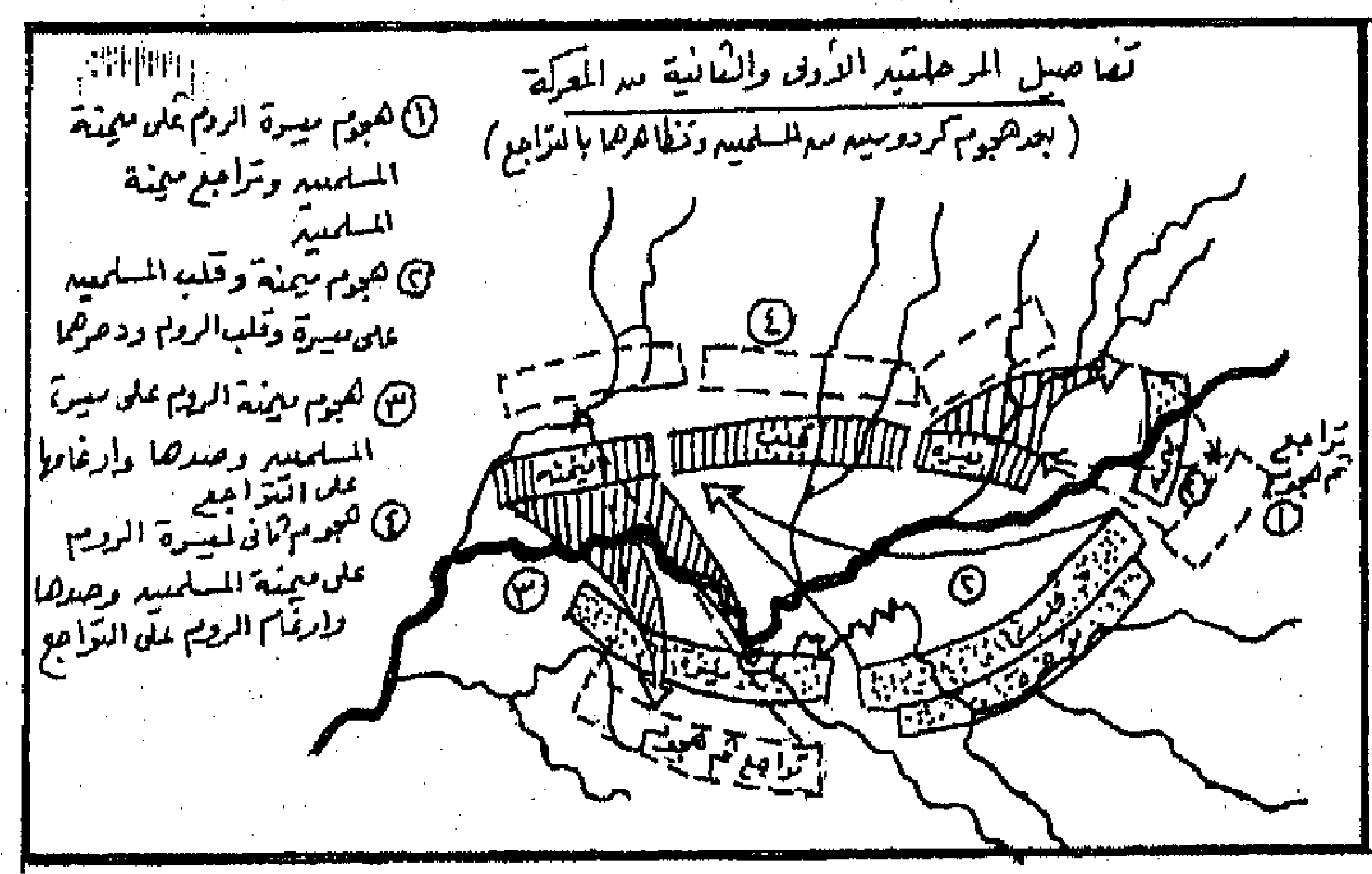
كما أود أن أشير إلى الدراسة القيمة التي أجراها «أ. منير شفيق» في كتابه (علم الحرب)، والتي أثبت من خلالها التشابه الواضح بين جوهر خطة عمليات «خالد بن الوليد» في معركة اليرموك الثانية وبين جوهر خطة «نابليون» في معركة «أولم» والتي تعتبر إحدى روائعه الإستراتيجية» (١١٨).

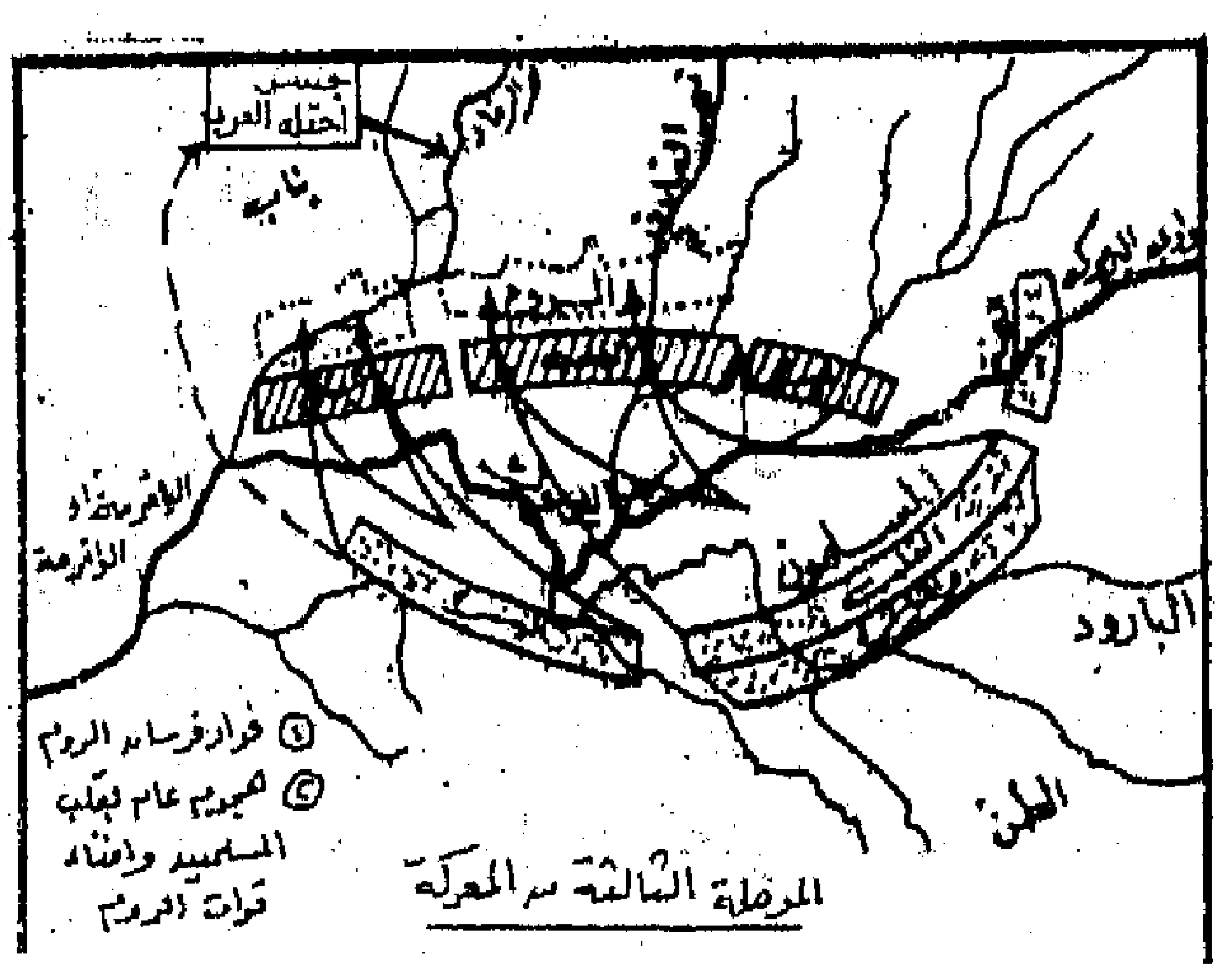
***

«١١٨» ص ٢٠٤- ٢٠٩.

مراحل معركة اليرموك







بالإستعانة بخرائط كتاب "ياسين سويد" : ص ٢٥٥ و ص ٢٦٣ - ٢٦٤

الفصل السابع
المسير إلى القادسية نموذج من روائع الفن العسكري الإسلامي تعمد «جلوب» إغفاله

يقول «جلوب» عن عمر بن الخطاب: (المؤرخون المسلمون يتحدثون كثيرًا، ولهم كل الحق في ذلك عن ورعه وتواضعه وتفانيه في أداء واجبه، ولكننا لم نسمع من أي منهم عن مزاياه القيادية..).

«جون باجوت جلوب»
(الفتوحات العربية الكبري)

إن نظرة سريعة إلى تاريخ حروب الفتوحات العربية الإسلامية تكشف تلك الحركة الدائبة التي تميزت بها قوات المسلمين، ولا نبالغ إذا قلنا أن الحرب أصبحت على يد العرب حربا متحركة، لا تتبع تلك الأصول التقليدية في المعركة وقيادة الحرب، التي درجت عليها الجيوش الرومانية واليونانية والفارسية من قبلهم أو جيوش الإقطاع الأوروبي وعصر النهضة حتى نابليون من بعدهم).

«أ. منير شفيق»
(علم الحرب)

رأي الجنرال «جلوب»

رأينا كيف يطمس «جلوب» الحقائق بذكر وصف مغاير ومشوق كما حدث في اليرموك لكنه أيضا برع في ذلك بأسلوب آخر وهو تجاهل ذكر الحقائق تمامًا، يدفعه إلى ذلك نفيه لأي دور قيادي للخليفتين أبي بكر وعمر، وبخاصة «عمر» حيث راح يشكك في مقدرته وكفاءته العسكرية متجاهلا ما كان يصدره الخليفة من تعليمات وما كان يعده من خطط.



فعن الإعداد لمعركة «القادسية» لا يذكر «جلوب» عن دور الخليفة سوى قوله (لم يتوان الخليفة عن تلبية النداء ومواجهة الحالة الطارئة، فكتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل يستحثهم على إرسال النجدات إلى المدينة، وسرعان ما كان جيش جديد فى طريق التشكيل فى العاصمة)(١١٩) ثم لا يذكر «جلوب» بعد ذلك أى شيء عن دور الخليفة.

حقائق الأحداث كما ذكرتها المراجع الإسلامية

كانت آخر وصايا الصديق أبى بكر قبيل وفاته لعمر هى دعم المسلمين فى العراق. وما إن علم عمر بما يحشده «يزدجرد» من قوات وعتاد حتى أجرى تقديرًا للموقف، خرج منه بأن جبهة فارس أصبحت الأكثر تهديدًا، فقرر تركيز المجهود الرئيسى للحرب تجاهها مع استمرار الصمود فى جبهة الشام. كان على الخليفة أن يحشد أولا الجيش اللازم للجبهة الجديدة، وثانيًا أن يعين له القائد الكفء، وثالثًا أن يصدر لهذا القائد تعليمات عمليات لتنظيم حشد الجيش وإعداده وتدريبه ولتنظيم عملية المسير الشاقة لتحريكه من مناطق تمركزه قرب المدينة المنورة إلى مسرح العمليات المنتظر غربى نهر الفرات بالعراق وهى مسافة ٦٠٠ ميل تقريبًا، ثم عليه أخيرا - أى الخليفة - أن يتابع باستمرار سير العمليات القتالية لاتخاذ القرارات السليمة فى التوقيتات المناسبة. ولاشك أن المكاتبات المتبادلة التى تناولت هذه الأمور هى الأجدر بالدراسة حتى تتبين الحقائق، وهو ما تعمد الجنرال «جلوب» إغفاله تمامًا. تم تحقيق المهام كالآتى:

المهمة الأولى وهى حشد الجيش

أرسل الخليفة فورًا كتابًا إلى كل عماله يقول فيه (لا تدعوا

«١١٩» ص ٢٨٥.

أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إلىَّ، والعجل العجل)(١٢٠). ولابد من إرسال من له رأى يثير الانتباه، فهو يريد أن يستمع إلى أكبر قدر من الآراء، لتتم المشورة بنجاح.

المهمة الثانية وهى تعيين القائد

كان «عمر» يريد أن يتولى القيادة بنفسه، وعقد «مجلس حرب» ضم الصحابة، إلا أنهم نصحوا الخليفة بالبقاء في المدينة لأن ذلك أصلح للمسلمين وأجمعوا على تعيين «سعد بن أبى وقاص» قائدًا للجيش. عسكر «سعد» فى منطقة «زرود» قرب المدينة حيث بدأت تصله النجدات ويقوم بتنظيمها وتدريبها لمدة ثلاثة شهور. وكان التنظيم الذى اتبعه «سعد»، تنفيذا لتعليمات «عمر» ينظم القوات على أساس جماعات (كل جماعة من ١٠ رجال) يتولى قيادتها قائد، كما عين حامل راية لكل قبيلة، وأيضًا عين مساعدًا للقائد.

المهمة الثالثة وهى إصدار التعليمات لتنظيم المسير

تلقى «سعد» كتابًا من «عمر» يعتبر بمثابة تعليمات ابتدائية للقتال كما يعرفها العسكريون المعاصرون، يحدد له فيه مهمته القتالية بشكل عام مع وصف رائع لطبيعة مسرح العمليات المنتظر، ويحدد له تصرفه تجاه كل الاحتمالات المتوقعة، ويحدد له توقيت الاستعداد ويطلب منه أخيرًا إرسال تقرير للخليفة يفيد «تمام» تنفيذه لتلك التعليمات. كما تلقى «سعد» كتابًا آخر من الخليفة يكلفه فيه بدفع قوة مناسبة من الفرسان إلى

«١٢٠» ص ٢٠٧.



«الأبلة» قرب «البصرة» بالعراق لحماية الجانب الأيمن لجيشه عند تحركه، من أى مفاجأة للعدو.

نفذ «سعد» التعليمات وتحرك بجيشه إلى منطقة «شراف» على بعد أكثر من ٨٠ ميلا من الفرات، ليتمركز بجيشه ويعيد حشده وتنظيمه وتدريبه استعدادًا للمعركة. تلقى «سعد» كتابًا أخيرًا - رائعًا - من أمير المؤمنين عمر هو بمثابة تعليمات العمليات المنظمة لمسير جيش «سعد» مع توقعه الدخول فى معارك تصادمية مع العدو، وهذا الكتاب هو موضوع حديثنا فى هذا الفصل.

بداية، تتضمن المعركة الحديثة صورا ثلاثا وهى: المعركة الدفاعية، والمعركة الهجومية، والمسير مع توقع الدخول فى معركة تصادمية. وبرغم اتفاق جميع العسكريين على أن الصورة الأخيرة من صور المعركة هى أكثرها صعوبة فى التنظيم والإدارة، فإن القليل منهم من يعلم أن الفضل فى وضع أسسها ومبادئها يرجع إلى المسلمين الأوائل وأنهم سبقوا فى هذا المضمار كلا من الفرس والروم.

المسير والمعركة التصادمية فى الحرب الحديثة

المسير هو تحرك منظم للقوات فى أرتال (جمع رتل وهو الصف من القوات العميق المتراص) من منطقة إلى أخرى عبر طرق ومناطق مختلفة للوصول إلى خط أو منطقة معينة فى وقت محدد بحيث تكون القوات المتحركة فى حالة استعداد كامل لتنفيذ مهمتها القتالية بنجاح. وبجانب أهمية اتباع قواعد السرية والوقاية فإن السيطرة على المسير تمثل أهم عوامل نجاحه، وتتحقق من خلال تحديد الفواصل بين عناصر وأرتال القوات بما يتلاءم وطبيعة الأرض وسرعة التحرك. وكذا تحديد نقاط وخطوط للسيطرة وأماكن للوقفات والراحات (لراحة الأفراد

ولصيانة الأسلحة والمعدات) كما يتم تأمين المسير بدفع عناصر الاستطلاع والوقاية والحراسة (حرس أمامي - أحراس للأجناب - حرس للمؤخرة) مع دفع مقدمة أمام أرتال القوة الرئيسية ، وأحيانا يتم أيضًا دفع مفارز للقتال (المفرزة جزء من القوات تدفع بمهمة الاشتباك مع العدو المتسلل) وتعطى أهمية خاصة للسيطرة على نظام استهلاك المياه عند المسير في المناطق الصحراوية . وذلك فضلا عن أهمية تنظيم تحرك الرتل الإدارى وحمايته (تعيينات وغيرها) .

تزداد صعوبة تنظيم وتنفيذ المسير إذا ما جرى مع توقع الدخول فى قتال تصادمى مع العدو . والمعركة التصادمية هى المعركة التى يحاول فيها كلا الجانبين تحقيق مهامهما القتالية بالهجوم ، ولعل أفضل وصف لتلك المعركة أنها أشبه بالمعركة السريعة الشرسة التى تنشب بين نمرين يحاول كل منهما أن يعتلى ظهر خصمه ليطعنه فى مقتل . لذلك فإن النجاح فى هذه المعركة يتوقف على أهمية المحافظة على معدل التقدم السريع والقيام بأعمال القتال الحاسمة بسرعة فتح القوات من الأرتال إلى تشكيل المعركة والهجوم ضد أجناب ومؤخرة العدو لتجزئة قواته وتدميرها على مراحل وأجزاء . . وبذلك فإن النجاح فى هذه المعركة يعتمد على تحقيق المبادأة والمحافظة عليها عن طريق توفير المعلومات المبكرة عن العدو والأرض ، وسرعة اتخاذ القائد للقرار المناسب والجرأة فى تنفيذه . وهو ما يشير إلى أهمية دفع العناصر التى تمد القائد بالمعلومات باستمرار . كما أنه من الضرورى دراسة الحالة السياسية والاقتصادية فى منطقة العمليات المنتظرة وبخاصة موقف الأهالى المحليين وميولهم، كذا الموارد المادية المتاحة بالمنطقة .

بعد هذا العرض الموجز للمفهوم الحديث لتلك المعركة



نحاول تتبع كيف فهمها كل من الفرس والروم من جانب ، والمسلمون من الجانب الآخر .

المسير والمعركة التصادمية لدى الفرس والروم

تميزت تكتيكات الفرس والروم قبيل نشوب معارك الفتح الإسلامي ، بالجمود والثبات . فقد اعتمدوا على القتال في تكتلات تقليدية برغم أن هذه التكتلات تطورت من تشكيل القتال المعروف «بالفلانكس» والمكون من خطين قتاليين ، إلى تشكيل «الليجون» المكون من ثلاثة خطوط أو أنساق مقسمة داخلها إلى وحدات فرعية تزيد من عمق تشكيل القتال ومن قدرته على الحركة والمناورة باستخدام الاحتياط ، كما برز دور سلاح الفيلة في جيش الفرس باعتباره عنصر الصدمة (كالمدرعات) حيث تحمل الفيلة مجموعات من رماة السهام وتتقدم خلفها مباشرة عناصر المشاة لمهاجمة العدو .

أما المسير لدى الفرس والروم ، فكان الهدف الغالب له هو تحريك تلك التكتلات التقليدية إلى جبهة القتال دون اتخاذ تشكيل يناسب القتال التصادمي فيما عدا دفع بعض عناصر الإنذار والاستطلاع .

أي إن تكتيكات الفرس والروم لم تخرج عن نمط القتال الجامد الذي يعتمد على الاشتباك مع العدو من الاتصال المباشر ، ولم تتبلور لديهم أساليب القتال المناسبة للاندفاع واختراق المناطق الصحراوية المفتوحة والدخول فجأة في قتال تصادمي ، وهذا يفسر إصرار «جلوب» على تكرار أن المسلمين كانوا يسعون دائما في كل معركة إلى جر الجيش الروماني (البليد الحركة والمترهل كما وصفه هو) لكي يقاتل في الصحراء أو في السهول المنبسطة في سوريا ، فقد استندت خطة «هرقل» الاستراتيجية على الاحتفاظ بقواته في الخط الدفاعي المحصن بتلك المنطقة .

الأمر الذى ينفى تماما الادعاء بأن المسلمين اقتبسوا أسلوبهم فى المسير والقتال التصادمى من أعدائهم، لأن أعداءهم افتقدوا هذا الأسلوب بل وعجزوا عن تقليد المسلمين بدليل أنهم لم يجرؤوا قط على اختراق الجبهة والتوغل فى عمق أعدائهم رغم التفوق العددى الساحق لقواتهم.

المسير والمعركة التصادمية لدى المسلمين

كان التقسيم الخماسى للجيش (قلب، ميمنة، ميسرة، ساقة، ومقدمة) معروفًا عند العرب فى العصر الجاهلى بدليل استخدامهم كلمة «الخميس» فى شعرهم للدلالة على الجيش. كما أنهم حددوا لكل عنصر من عناصر الخميس مهمة محددة عند نشوب القتال، ذكرها «الهرثمى الشعرانى» فى كتابه (مختصر سياسة الحرب) جاءت معركة «بدر الكبرى» كى تفتح الباب أمام تطور وبناء المدرسة العسكرية الإسلامية الرائدة، فقد كان تشكيل المسير الذى اتخذته قوات المسلمين فى تحركها إلى منطقة المعركة يعد قمة فى تطور فن الحرب آنذاك، حيث تضمن حرس مقدمة، وقوة رئيسية، وحرس مؤخرة، مع دفع دوريات استطلاع أمام القوات وعلى أجنابها لإعطاء الإنذار المبكر عند ظهور العدو. ثم عكست توجيهات «أبى بكر» إلى «خالد بن الوليد» عندما أرسله لإخماد فتنة الردة، مدى التطور فى هذا المجال. فقد تضمنت التوجيهات كيفية تنظيم المسير والاستعداد للدخول فى قتال مفاجىء واتخاذ التشكيل المناسب وتنظيم الاستطلاع والحراسة والوقاية وتحقيق المفاجأة وتوفير المطالب الإدارية للقوات. وكانت تلك التوجيهات بمثابة اللبنة الأولى فى ابتكار «الحرب المتحركة».

وهكذا، بينما ظل الفرس والروم يقاتلون بكتلهم الجامدة وأساليبهم التقليدية، تمكن المسلمون من تطوير أسلوبهم



فى المسير والمعركة التصادمية وأصبحوا يمتلكون السبق فى إدارة «الحرب المتحركة» : لقد بلغ هذا التطور قمته على يد أمير المؤمنين عمر ، وهو ما يعكسه بأمانة كتابه إلى قائد جيشه «سعد بن أبى وقاص» قبيل خوضه معركة القادسية .

كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد أبى وقاص(١٢١)

هذا الكتاب هو بمثابة توجيهات صادرة من القائد الأعلى إلى قائد جيشه الميدانى ، نعرضه مجزءًا مع إضافة بعض الشروح الموجزة

ا ـ مقدمة الكتاب: الهدف والغاية

بسم الله الرحمن الرحيم

(أما بعد : فإنى آمرك ، ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ولا تقولوا : إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم شرمنهم ، كما سلط على بنى إسرائيل ـ لما عملوا بمساخط الله ـ كفار المجوس ، فجاسوا خلال

«١٢١» ص ٢١٠ – ٢١١.

الديار وكان وعدا مفعولًا، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم).

بهذه المقدمة المباركة، بعد الاستفتاح بذكر الله تعالى، بدأ أمير المؤمنين بكلمة الأمر (آمرك) في صياغة قوية تحمل كل معاني الإصرار والتصميم، وتمتد لتشمل كل الأجناد كي تؤكد مسئولية القائد عن كل فرد في جيشه. ثم عمد إلى توضيح الركيزة الأولى لتحقيق النصر ووضعها موضع الصدارة في توجيهاته، حيث وجه قائد جيشه وجنوده من ورائه إلى أن العقيدة الراسخة والإيمان القوى والاستمساك بأوامر الحق سبحانه وتعالى هي طريق المسلمين إلى النصر. وفسر ذلك في إيجاز وبلاغة فأثبت أن نتائج المقارنة المادية للقوات بشريا وتسليحا لن تكون بحال في صالح المسلمين، وأن «تقوى الله» هي وسيلتهم كي يميل ميزان القوى لصالحهم وبغير تواكل، ولا شك أن وقع هذه المقدمة على إيجازها لا يدانيه وقع عبارات «التوجيه المعنوى» المعاصرة والتي لا تقوم على العقيدة والتي تتصدر تعليمات وأوامر القتال والعمليات في الحرب الحديثة.

٢ـ القدرة على المسير:

(وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، حامي الأنفس والكراع) تعني القدرة على مسير القوات في مفهوم المعركة الحديثة، أنها أقصى مسافة يمكن للقوات قطعها خلال يوم مع استعدادها لمواصلة المسير بنفس المعدل لليوم التالي. وهنا تبرز مهارة القائد في الموازنة بين عاملين متضادين: سرعة التحرك، وراحة القوات، وقد يضطر القائد إلى تنفيذ المسير على عجل في حالة قلة الوقت المتيسر للوصول إلى الهدف وهو

مــا يســمى (المســير الاضطراري) ويكــون على حســاب إجهاد القــوات . وأهم هدف من المســير هــو وصول القــوات إلى الخط المحدد بحيث تكون فى حالة استعداد كامل للقتال بنجاح ، وهو ما يعبر عنه حديثًا (بأهمية المحافظة على درجة الاستعداد القتالى للقوات طوال المسير) ولقد بين أمير المؤمنين هذا المفهوم بدقة وفى عبارة بليغة موجزة حوت الأمر كله .

٣ـ الوقفات والراحات:

(وأقم بمن معك فى كل جمعة يومًا وليلة ، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفســهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عــن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلهــا من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحدًا من أهلها شــيئًا ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفــاء بها كما ابتلــوا بالصبر عليها ، فما صبــروا لكم فتولوهم خيرًا ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح) .

تضمنــت هــذه الفقرات أســلوب تنفيــذ الوقفــات والراحات ومدتهــا ومعــدل تنفيذها والهــدف منها والأعمال التــى تتم فيها لتوفير الراحة للأفراد والتفتيش على الأسلحة والمعدات وصيانتها وإصــلاح مــا تلف منهــا . كمــا تضمنت تحديــد طبيعــة الأماكن والمناطــق المناســبة لتنفيذ هذه الراحات وأســباب ذلك ، ففضل أن تكــون بعيدة عــن المناطق المأهولة بالســكان مراعيًا فى ذلك دواعى الأمــن فضلا عن الجوانب السياســية المتعلقة بالمحافظة علــى العهود الممنوحة لأهــل الصلح والذمة وعــدم توريطهم فى قتــال أو تعريضهــم لأضرار لا مبرر لها . وذلــك يعكس ما تميز به المســلمون عن غيرهــم ، فالحرب لا تبرر نقــض العهود ، فالقيمة الأخلاقية علت عما ســواها حتى فى الحــرب . والواقع أن الخبراء العســكريين يدركــون تمامًا مدى دقة وروعة هــذه الفقرات وأنها تضاهــى ما توصــل إليه فن وعلــم الحرب المعاصر ، بــل وتتفوق

عليها . والواقع أن التزام أمير المؤمنين بما حتمته الشريعة الإسلامية، وتمسكه بها كان هو المنطلق لهذا الأمر، ولا يمنع ذلك أن هذا الالتزام كان في نفس الوقت يحقق الأمن لقوات المسلمين في مسيرهم ويحمي ظهورهم عند القتال .

٤ـ الاستطلاع والأدلاء

وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره، وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك، وليس عينا لك) تشير هذه الفقرات إلى أن عناصر الاستطلاع - العيون - كانت تتولى القيام بمهامها طوال المسير، وأنه بالوصول إلى أرض العدو، يجب على القائد أن يكثف من دور هذه العناصر، وأن تركز على مهام محددة هي دراسة الأرض بين قوات المسلمين والعدو، والحصول على المعلومات الكاملة عن العدو وإرسالها بسرعة إلى القائد. وقد عبر أمير المؤمنين عن كل ذلك في إيجاز بليغ بقوله (ولا يخف عليك أمرهم) ثم نبه إلى أهمية تدقيق المعلومة. كما أكد على أهمية استخدام «الأدلاء» لأن المسلمين يقاتلون في أرض جديدة عليهم، كما حدد أهم شروط «الدليل» وهي إلمامه بطبيعة الأرض وولاؤه وصدقه وأمانته .

٥ـ عناصر الأمن والمفارز

(وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم، وتتبع السرايا عوراتهم، وتَنَقّ للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلاد ولا تخص بها أحدًا بهوى فتضيع من رأيك

وأمـرك أكثـر مما حابيت به أهل خاصتـك ، ولا تبعثن طليعة ، ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية) .

تضمنت هذه الفقرات سردا سلسا وموجزا لتسلسل إجراءات أى قائـد ناجح قبيل الاشـتباك فى المعركـة التصادمية . والإجراء الأول : هـو الإكثـار من عناصر تأمين المسـير عنـد الاقتراب من العـدو ، ثم دفع المفارز (وهى قـوات صغيرة وقوية) لملاقاته قبل قتاله بالقوات الرئيسـية ، كما شـملت التعليمـات تحديدًا قاطعًا لتشـكيل تلك المفارز بما يناسـب طبيعة عملها سـواء من ناحية الصفات الشـخصية لقادتها ونوعية أفرادها ومعداتها وأسلحتها . فالقادة من ذوى الرأى والبأس والجهاد والصبر ، والجنود من ذوى القـوة والرغبـة فى الجهاد ، أما المعدات والتسـليح فهى سـوابق الخيل حتى تمتلك هذه المفارز خفة الحركة والقدرة على المناورة . كذلك حدد أمير المؤمنين طبيعة مهمة المفارز فحذر من تضييعها بدفعهـا فى مهام غير مأمونة أو محوطة بالغموض وأمر بدفعها فى الاتجاهـات التى تتمكـن فيها من تحقيق النصـر والنجاح ، وبعد أن تتجمـع معلومات كافيـة عنها ، وهى بخاصـة أجناب ومؤخرة العدو لقطع خطوط إمداداته وكشف نقاط ضعفه ، ولقد سعى أمير المؤمنين إلى تحقيق هدف هام هو (إحراز المبادأة وهزيمة العدو معنويًـا قبل هزيمته ماديًا) معبرًا عن ذلـك بقوله (فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك) .

٦ـ القتال التصادمى

(فإذا عاينت العدو ، فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمـع إليك مكيدتك وقوتك ، ثـم لا تعاجلهم بالمناجزة ، مالم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك ، ثم أذك أحراسك علـى عسـكرك ، وتيقظ من البيات جهدك ، ولا تؤت بأسـير ليس

لـه عقد إلا ضربت عنقـه ، لترهب به عدو الله وعـدوك ، والله ولى أمرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان والحمد لله رب العالمين) .

في كلمة واحدة وهي « معاينة العـدو » جمع أمير المؤمنين معانى كثيرة ، فهي تعنى إلمام القائد بالعدو بشكل كامل وكأنه يراه رأى العين ـ عدته وعدده وتسليحه ومكانه وأعماله وتحركاته بل وأيضا استنتاج نواياه ـ ثم الموازنة بينه وبين قوة ووضع المسلمين لاتخاذ القرار المناسب لقتاله وهو ما نطلق عليه (تقدير الموقف) في المفهوم المعاصر . ثم يحدد أمير المؤمنين الفكرة العامة لهذا القرار وهى تجميع القوى وحشدها وتنظيمها ، خداع العدو والكيد له ، تحديد نقاط الضعف في العدو لضربه فيها ، الإلمام التام بالأرض كلها لتحقيق المناورة بنجاح ، ثم أخيرًا الجرأة في القتال وفى صياغة رائعة وبليغه ، يحذر « عمر » قائد جيشه من عدوه ، ويفهمه أن العدو سوف يسعى ـ كما يسعى هو ـ إلى مفاجأته ، وينصحه بالتأنى قبل المبادرة بالهجوم وهو ما يسقط ادعاءات « جلوب » بأن المسلمين انتهجوا أسلوب الاندفاع المحموم المبنى على مجرد الحماسة الدينية . كما يؤكد « عمر » على نقطة هامة في تلك المرحلة من القتال ، وهى (حيوية تأمين الجيش الإسلامي) بالإكثار من الأحراس على الجنب والمؤخرة وبخاصة حول المعسكرات ليلاً ، ويحدد أسلوب معاملة الجواسيس (أسير ليس له عقد) حتى يأمن الجيش خطرهم . ثم يختتم أمير المؤمنين كتابه بإعادة تذكرة قائد الجيش بأن النصر من عند الله سبحانه وتعالى طالما اتقاه وتوكل عليه هو ومن معه من الجند . وكما بدأ « عمر » توجيهاته باسم الله اختتمها بحمده وطلب العون منه سبحانه وتعالى بهذا الكتاب الرائع ، أنجز « عمر » مهمته الثالثة .



المهمة الرابعة والأخيرة إدارة ومتابعة المعركة

لم يكن كتاب «عمر» السابق هو آخر توجيهاته إلى قائد جيشه «سعد» وإنما تبادل معه العديد من الرسائل حتى التحم «سعد» بجيشه مع الفرس فى معركة القادسية. وقد تضمنت تلك الرسائل تقارير عمليات مرفوعة من القائد الميدانى للجيش «سعد» إلى قائده الأعلى بالمدينة «عمر» وتوجيهات «عمر» ردًا عليها وجرى من خلالها دراسة دقيقة ورائعة لطبيعة أرض المعركة المقبلة وتدقيق كامل لأوضاع جيش الفرس وقوته وتسليحه وموقف جيش المسلمين في مواجهته، وتكرر بها تأكيد «عمر» مرارًا وتكرارًا على أهمية التحام قائد الجيش بجنوده وطالبه بإرسال «تقرير قتال يومى» إليه - أى إلى عمر - وأن يلتزم القائد وجنوده بتقوى الله والصبر على الجهاد. وانتهت هذه الرسائل بكتاب «عمر» ينصح فيه قائد الجيش محددًا له القرار المناسب للقتال. واستمر الاتصال قائمًا حتى فتح الله على المسلمين ورزقهم النصر. وبذلك يكون أمير المؤمنين قد أدى مهمته الرابعة والأخيرة. ويضيق المجال هنا عن شرح تلك المكاتبات على روعتها لإظهار مدى ما حققته المدرسة العسكرية الإسلامية من تطور فائق وقدرتها على الدراسة المتأنية واستخلاص خبرات القتال.

خاتمة

لقد وقعت معركة اليرموك الحاسمة فى منتصف عام ١٥ هـ كما بدأ الحشد والإعداد لمعركة القادسية الحاسمة أواخر نفس العام، أى بفارق شهور قليلة الأمر الذى يعنى أن القيادة الأعلى للمسلمين كانت تدير الحرب على الجبهتين فى وقت واحد وهو عبء فائق يصعب تصوره. وهو ما يجعلنا نتفهم شكوى «عمر» من أن تجييش الجيوش ومشاكل الحرب كانت تشغله أحيانًا فى صلاته.

وأخيرًا لنا الحق كل الحق، أن نعجب، كيف يمكن لمؤرخ عسكرى محترف كالجنرال «جلوب» أن يتجاهل هذا المثال الرائع المعبر عن مدى تطور الفكر العسكرى المبكر لدى المسلمين، والدال على كفاءة «عمر» وخبرته العسكرية. ومع ذلك نجد «جلوب» يحاول تبرير موقفه بقوله (كانت قد انقضت على العرب وقتذاك ست سنوات وهم فى حالة حرب مستمرة مع الجنود المدربين من جيوش الروم والفرس.. ومن المعقول كل المعقول، أن نفترض أنهم اكتسبوا بعض الآراء.. عن الفن الحربى.. التى تعتبر متقدمة بالنسبة إلى ما كان يعرفه الجفاة من أهل البادية. ويبدو أن جميع الجيوش فى العالم كانت تقسم إلى مقدمات ومجنبات وساقة وإلى طلائع ورجل وركبان، وقد اقتبس العرب هذا التنظيم وطبقوه فى جيوشهم)[١٢٢] !!! أباطيل فى أباطيل تتهاوى أمام ما عرضناه من حقائق. فمثلا لم يكن قد مر منذ معركة أجنادين التى وقعت عام ١٣ هـ، غير سنتين أو أكثر قليلًا، ولم يخض أى من الفرس أو الروم معركة متحركة، وفشلوا فى اقتباس الأسلوب المبتكر للمسلمين فى الحرب المتحركة.

إن إنكار «جلوب» لما عرضناه من حقائق يرجع إلى تمسكه بالرؤية الخاطئة التى ابتكرها، وهى أنه لم يكن هناك تخطيط للحرب وأن القيادة العليا بالمدينة لم تقم بأى دور فيها، وحتى إن كان هؤلاء «العرب الجفاة» كما سماهم «جلوب» نجحوا فى الاستفادة من خبرات عدوهم وتفوقوا عليه وحققوا النصر، فهذه شهادة فى صالحهم.

«١٢٢» ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

البحر الأبيض المتوسط

سوريا

دمشق

عين التمر

فارس

القادسية

الحيرة

العراق

شراف

(٦)
المسير إلى القادسية
ودخول المعركة

(٥)
الوصول إلى منطقة
حشد وتدريب
أمامية

الأبلة

البصرة

الخليج
الفارسي

(٣)
احتلال الأبلة
وحراسة الجنب
الأيمن

الجزيرة العربية

المرحلة
(٢)
دفع قوة خفيفة
الحركة لتأمين
الجنب الأيمن

(٤)
بداية سير
القوات

المرحلة
(١)
منطقة حشد
القوات وتدريب
وتنظيم

المدينة المنورة

البحر الأحمر

مكة المكرمة

الفصل الثامن

رأى «جلوب» فى فتح مصر

قال الرسول ﷺ : «لتفتحن عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرًا فإن لكم منهم صهرًا وذمة»

ذكره «السيوطي» فى كتابه «تاريخ الخلفاء»

«واصل عمرو السير فى سياسة الغلظة والشدة مع أهل مصر إما استجابة لطبيعته الشخصية الشرسة المتغطرسة أو تطبيقًا لسياسة اختطها لنفسه، وهى أن يزيد من العنف لينشر الذعر فى قلوب الناس ويحول دون أية مقاومة جديدة»

«جون باجوت جلوب»

«الفتوحات العربية الكبرى»

«جلب الفتح الإسلامى إلى هؤلاء القبط... حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها من قبل ذلك بقرن من الزمان. وقد تركهم «عمرو» أحرارًا على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية.. ولم يضع «عمرو» يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملًا من أعمال السلب والنهب..»

من شهادة «يوحنا أسقف نقيوس اليعقوبى»

ذكرها «توماس. و. أرنولد» «الدعوة إلى الإسلام»

يكاد سرد «جلوب» لأحداث فتح مصر يتوافق مع ما ذكره المؤرخون المسلمون من حيث التسلسل التاريخى. لكنه حوى بعض المخالفات فيما وقع من أحداث فضلًا عن رأيه المعروف. وسوف نبدأ بعرض ما ذكره «جلوب» ونتبعه بمناقشة موجزة..



أولًا: وصف «جلوب» لبدء الفتح

وصف «جلوب» جيش «عمرو بن العاص» بقوله «القوة الصغيرة التى يقودها عمرو بن العاص والتى تضم ثلاثة آلاف وخمسمائة من البدو الحفاة العراة على جيادهم العجفاء وجمالهم الهزيلة. ولا ريب فى أنهم كانوا يستحقون اللقب الذى أطلق عليهم وهو جرذان الصحراء»(١٢٣)، «وتابع عمرو من العريش مسيره على رأس قوته الصغيرة ـ ويضيف أنه وصل قرب الفرما «قرب بورسعيد اليوم» وهى قلعة حصينة «وقد ظلوا يحاصرون المدينة أكثر من شهر واحد إلى أن تمكنوا ذات يوم إثر اندفاع فاشل قامت به حامية المدينة من دخول المدينة من أحد الأبواب مع الجنود المتراجعين من حماتها. وقد أشعلت النيران فى البواخر الراسية فى الميناء كما هدمت الكنائس وجردت المواقع الدفاعية من جميع وسائل الدفاع. ويبدو أن عمرو بن العاص، وقد وجد نفسه مفتقرًا إلى الجنود ليتولوا حماية المدينة بعد خروجه منها زاحفًا إلى داخل مصر خشى أن يعود الروم إلى احتلالها. وأراد أن يحرمهم الانتفاع منها كقلعة حصينة»(١٢٤)، واصل المسلمون مسيرهم «فوصلوا إلى بلبيس حيث اشتبكوا فى معركة ناجحة مع قوة من الروم يقودها أرطبون.. لكن الزحف تعطل شهرًا آخر قضاه العرب فى احتلال بلبيس»(١٢٥)، ووصل المسلمون إلى حصن بابليون «مكان العباسية اليوم»، «كان من المحال على عمرو بن العاص بقوته الصغيرة، وبافتقاره إلى معدات حروب الحصار من محاصرة حصن بابليون والاستيلاء عليه. ويبدو أنه ظل يشتبك فى خارج القلعة مع الروم عدة أسابيع دون أن يحقق أى نجاح، ولكن يبدو أنه استطاع أخيرًا أن يحتل مركزًا أماميًا إلى الشمال من الحصن يسمى «أم دنين» وكان يؤلف ميناء مدينة مصر على النيل». يذكر «جلوب» أن «المقوقس» ومعه «تيودور» القائد العام للقوات

«١٢٣» ص ٣٤٧. «١٢٤» ص ٣٤٧. «١٢٥» ص ٣٤٧ - ٣٤٨.

البيزنطية في مصر كانا بالحصن. ويذكر أن «عمرًا» أرسل إلى الخليفة يطلب إمداده بالقوات لكنه لم يتلق ردًا، وأنه قرر القيام بعمل هجومي للحفاظ على معنويات جنده، فقام بمحاولة خطرة وهى عبوره للنيل لمهاجمة الفيوم بالجنوب دون انتظار وصول الدعم من المدينة. ويقول «جلوب» إنه كان على القائد الرومانى انتهاز الفرصة للقضاء على جيش عمرو ثم قوات الدعم إن وصلت، لكنه لم يفعل. ويضيف «جلوب» أن «عمرًا» وجد الفيوم قوية الحصون فتركها «واحتل العرب بلدة صغيرة فى منطقة الفيوم عنوة وذبحوا كل من فيها من السكان. وخرج يوحنا قائد جيش الروم فى الفيوم فى غضون ذلك على رأس خمسين من رجاله للقيام بعملية استطلاع شخصية لقوات العرب. وتلقى عمرو نبأ وجوده فاستدار إليه على عجل وأفلح فى تطويقه مع رجاله وقضى عليهم جميعًا. وسرعان ما وصلت إليه الأنباء بأن نجدات الخليفة قد وصلت. فاستدار شمالاً وبسرعة عظيمة ليلتقى بها»(١٢٦). كأن تعداد قوات الدعم ١٢ ألفًا تمركزت بموقع هليوبوليس «مصر الجديدة اليوم» وبذلك أصبح تعداد جيش عمرو ١٥ ألفًا من بينهم عدد من صحابة رسول الله ﷺ.

يقول «جلوب» قرر «تيودور» الذى فاتته فرصة مهاجمة جيش العرب كل على حدة أن يهاجمها الآن بعد أن توحدا والتأم شملهما وسرعان ما خرج من قلعته وجاز السهل ليهاجم هليوبوليس وكان «عمرو بن العاص» فى غضون ذلك قد رتب صفوفه وأعدها للقتال بعد أن بعث بفصيلتين تحت جنح الدجى تمكنت أولاهما من احتلال موقع بصورة خفية يقوم محل قلعة القاهرة الراهنة، وتمكنت الأخرى من احتلال موقع مماثل عند الأزبكية الحالية»(١٢٧)، «التقى الجيشان وسرعان ما وقع تلاحم عنيف، وفجأة ظهر الكمين الشرقى العربى وهاجم مؤخرة الروم، ووجد هؤلاء أنفسهم وقد هاجمتهم المقدمة والمؤخرة فدبت الفوضى

«١٢٦» ص ٣٥٠ – ٣٥١.　«١٢٧» ص ٣٥٢.



فى صفوفهم وأخذوا يتجهون نحو الغرب.. وسرعان ما ظهر الكمين الغربى وتدفق رجاله فى هجوم عنيف على الجناح البيزنطى الأيسر، وهنا دب الذعر فى صفوف جيش الروم كله وانتشرت الفوضى وراح البعض ينشد الأمان فى قلب القلعة فرارًا من القتل الذى كان نصيب الكثيرين منهم.. وتمكن «تيودور» نفسه من الإفلات والنجاة بجلده. انسحبت فلول جيش الروم إلى داخل الحصن وأغلقت أبوابها عليها»(١٢٨). وهنا قامت حامية الفيوم بالتخلى عن موقعها «وبعث عمرو على الفور بقوة احتلت الفيوم عنوة وقتلت أهلها»(١٢٩). ويضيف «جلوب» «وواصل عمرو السير فى سياسة الغلظة والشدة مع أهل مصر إما استجابة لطبيعته الشخصية الشرسة المتغطرسة أو تطبيقًا لسياسة اختطها لنفسه، وهى أن يزيد من العنف لينشر الذعر فى قلوب الناس ويحول دون أية مقاومة جديدة»(١٣٠). وقد عرفت تلك المعركة بمعركة «عين شمس». ثم تقدم «عمرو» واحتل مدينتى «منوف» وتنيس على بعد ٣٥ ميلًا شمال بابليون.

مناقشة لسرد «جلوب»: بغض النظر عن الوصف الساخر الذى ذكره «جلوب» عن جيش «عمرو»، فإن قلة تعداد هذا الجيش مقارنة بالتعداد الضخم لجيش الروم فى مصر «أكثر من ١٠٠ ألف كما ذكر ابن دحلان وغيره»، أمر لافت للنظر. ولعله يشير إلى مدى تفشى الروح الانهزامية التى سادت قوات الروم والتى استغلها «عمرو» بذكاء كى يحقق عنصر المبادأة من خلال محافظته على معدل الهجوم، فكان هو الجانب المهاجم دائمًا. وكان تطبيقًا لنفس المبدأ الذى ذكره «عمر» فى كتابه السابق إلى «سعد» قبيل معركة القادسية، وهو هزيمة العدو نفسيًا قبل هزيمته ماديًا.

لم يرد فى أى من المراجع الإسلامية ما يشير إلى أن المسلمين هدموا

«١٢٨» ص ٣٥٢. «١٢٩، ١٣٠» ٣٥٣.

الكنائس وذبحوا سكان الفيوم ومن حولها كما ذكر «جلوب»، بل على العكس من ذلك وصفوا كيف كان مسلك «عمرو» مع أقباط مصر رائعًا حتى إنهم ساعدوه وأعانوه ضد الروم. ولعل «جلوب» استقى ما ذكره، بما ورد بكتاب «بتلر» «فتح العرب لمصر» والذى أشار إليه «د. مصطفى طه بدر» فى كتابه «مصر الإسلامية». لقد نهى الرسول ﷺ عن هدم الكنائس أو التعرض للرهبان والعباد فى الحرب، كما أوصى بأقباط مصر عندما يتم فتحها، بل إن «عمرو بن العاص» هو من روى أحد تلك الأحاديث نقلًا عن «عمر بن الخطاب». وعندما كان «عمرو» منشغلًا بالفتح، تلقى كتابًا من «عمر» يوصيه فيه بأهل مصر «إن معك أهل ذمة وعهد، وقد أوصى رسول الله بهم وأوصى بالقبط...»(١٣١) ولاشك أن «عمرًا» وهو صحابى جليل كان على علم بكل ذلك، ولا يتصور أنه ارتكب ما اتهمه به «جلوب». ومن الواضح أن ما ذكره «جلوب» جاء انطلاقًا من كراهيته المعهودة للصحابة ولتبرير ما أسبغه على «عمرو» من صفات سيئة.

إن إدارة «عمرو» لمعركة «عين شمس» تبين مدى بعد نظره وسلامة تقديره للموقف. فقد تنبأ بما سوف يقدم عليه عدوه، وحبك من جانبه الخطة المناسبة ونجح فى إدارة القتال لصالحه.

ثانيًا: سرد «جلوب» لفتح بابليون:

يقول «جلوب» «قرر عمرو أن يحتل قلعة بابل»(١٣٢)، «وكان فى مكنة حصن بابليون أن يصمد شهورًا عدة، ولكن «المقوقس» كما يبدو كان يدرك ما يحس به أهل البلاد من كراهية لحكمه ونظامه، ومن المحتمل أنه كان يدرك أيضًا أن لا أمل له فى نجدة من بيزنطة»(١٣٣) ويذكر «جلوب» أن «المقوقس» حاول التفاوض مع «عمرو» إلا أن «عمرًا» أصر على شروطه الثلاثة، إما الإسلام أو الجزية أو الحرب. وكان

«١٣١» ص ١٩٧.   «١٣٢» ص ٣٥٣.   «١٣٣» ص ٣٥٤.



«المقوقس» ميالًا لقبول دفع الجزية وتوصل مع «عمرو» إلى عقد صلح به بند يشترط موافقة «هرقل». رفض «هرقل» واستدعى «المقوقس» وعزله ونفاه، واندلعت المعارك من جديد. ويقول «جلوب» «وأخذ نفر من المصريين من الأقباط الذين عانوا من اضطهاد الروم يساعدون العرب فى هذه المرحلة»(١٣٤)، ثم يضيف أنه وصلت «عمرًا» أنباء عن حشود للروم في الدلتا، فسارع إلى ملاقاتها لكنه عانى من صعوبة عبور الترع وقنوات الرى فعاد.

«وصلت أنباء عن موت «هرقل» فى القسطنطينية ودب اليأس فى قلوب أفراد حامية بابليون على حين عم الفرح معسكر العرب»(١٣٥).

ثم يصف كيف قاد «الزبير بن العوام» مجموعة فدائية تسورت الحصن تحت وابل من النبال ولم يقم الروم بأى مقاومة لانخفاض معنوياتهم وفضلوا الاستسلام. أقام «عمرو» الولائم لأقباط مصر يومين متعاقبين قبل أن يمضى لفتح الإسكندرية «ويقال بأن عددًا غير محدود من الأقباط قد تحول فى هذه الآونة إلى الإسلام وقد أغرتهم الفرصة المتاحة لهم بأن يصبحوا أندادًا من الناحيتين الاجتماعية والمالية لفاتحى بلادهم المبجلين»(١٣٦).

مناقشة لسرد «جلوب»: لم أجد فى المراجع الإسلامية ما يشير إلى قصة سفر «المقوقس» إلى القسطنطينية وعزله ونفيه. ولعل «جلوب» ذكرها كمقدمة لما سوف يذكره فيما بعد عن أحداث فتح الإسكندرية.

يحاول «جلوب» أن يلمح إلى أن العوامل الاجتماعية والمالية كانت السبب فى تحول بعض الأقباط إلى الإسلام، ولم يكن اعتناقهم للدين الجديد عن اقتناع. وهو بذلك يمهد لما سوف يذكره فيما بعد عن العامل الدينى فى الفتح.

«١٣٤، ١٣٥» ص ٣٥٧.

«١٣٦» ص ٣٦١ – ٣٦٢.

ثالثًا: سرد «جلوب» لفتح الإسكندرية:

يذكر «جلوب» أن جيش المسلمين تقدم واشتبك في طرانة «٤٠ ميلًا شمال بابل» مع الروم في قتال ضار انسحب بعده الروم. وصل العرب إلى مدينة «نيكيو» «زاوية راسين ـ على بعد ١٠ أميال إلى الشمال» واضطروا إلى عبور النيل لمهاجمتها وكان في مقدور الروم مباغتتهم إلا أن الذعر كان يسود رجال الحامية فانسحبوا في فوضى مكنت المسلمين من القضاء على معظمهم. ويقول «وعلى الرغم من إحاطة المدينة بالتحصينات، فإنها لم تدافع عن نفسها، فاقتحمها العرب وأعملوا السيف في رقاب أهلها... وأخذوا يغيرون بعد ذلك على القرى المجاورة يقتلون فيها وينهبون ما يشاءون.. وكانوا يلجأون في هذه الأماكن إلى أساليب العنف الصارمة رغبة منهم في إلقاء الرعب في نفوس السكان الجبناء في بقية أنحاء الدلتا ليضمنوا خضوعهم لهم دون عمليات حربية أو قتال»(١٣٧). ويذكر «جلوب» معلقًا، أن العدو في معارك الفرما وبابل وهليوبوليس كان الروم وأتباع الكنيسة الأرثوذكسية من السكان، بينما كان الأقباط هم ضحايا معركة «نيكيو» وما حولها. ثم يضيف، أن معركة عنيفة جرت في «كوم شريك» عندما قام «عمرو» بنجدة مقدمة قواته من قيام قوات ضخمة من الروم بمحاصرتها. ثم وقعت معركة عنيفة إلى الشمال من مدينة «دمنهور» وانسحب الروم إلى قرب «الكريون» حيث دارت معركة ضارية علق عليها «جلوب» بقوله «ومن الملاحظ أن المؤرخ البلاذري يذكر بصدد المعركة، أن الروم والقبط تجمعوا عند الكريون لمقاومة الزحف العربي. ومن هذا يبدو أن القبط بدأوا يدركون أنه على الرغم من مرارة اضطهاد الروم لهم فإن ما أنزله العرب بهم من تقتيل يدل على أنهم لن يكونوا أحسن حالًا إذا ما تغير حكامهم»(١٣٨). ويذكر «جلوب» أن «عمرًا» لم يتمكن من اقتحام

«١٣٧» ص ٣٦٤. «١٣٨» ص ٣٦٥.

الإسكندرية فترك قوة صغيرة فى مواجهتها وانسحب إلى الفسطاط. ثم يتحدث «جلوب» عن الدسائس فى بلاط القسطنطينية بعد وفاة «هرقل» وتصاعد نفوذ زوجته «مارتينا» ويقول «كانت راغبة فى إنهاء الحرب مع العرب وتسليمهم مصر. ومن المعقول أن يكون «المقوقس» نفسه قد أقنعها بذلك»(١٣٩). كما تحدث عن الخلاف الذى وقع بين المؤيدين والمعارضين لرغبة «مارتينا» وانتقاله إلى الإسكندرية بواسطة القوات المرسلة إليها مما أدى إلى انتشار السلب والنهب بين طوائفها من الروم الإغريق الأرثوذكس والقبط والأفارقة. وأوفدت «مارتينا»، «المقوقس» إلى الإسكندرية حيث قام بإبرام معاهدة مع «عمرو» سلمه بموجبها الإسكندرية ومصر وتضمنت انسحاب الروم منها. ويذكر «جلوب» أن «عمرًا» اكتفى بإرسال رسول إلى الخليفة يخبره بما تم رافضًا أن يرسل كتابًا معه.

مناقشة لسرد «جلوب»: يستمر «جلوب» فى اتهام المسلمين بالعنف دون دليل من التاريخ، فلم يذكر التاريخ أن العرب أعملوا التقتيل فى المصريين بل إن الذين أقدموا على ذلك هم الرومان، وقد ارتكبوها بصورة بشعة عند انسحابهم من حصن بابليون ليلة عيد الفصح.

قال «بتلر» فى كتابه «فتح العرب لمصر»، «كانت حامية الإسكندرية قوية جدًا ومعدة إعدادًا حسنًا وتأتيها الإمدادات من البحر. ويقال إن عددها كان يبلغ خمسين ألفًا كما كانت حصون الإسكندرية منيعة وكانت البحيرات وترعة الإسكندرية تحميها من جهة البر»، وأمام هذه الحامية الرومانية المحصنة كانت قوات المسلمين التى يبلغ تعدادها ١٥ ألف مقاتل خاضوا معارك طاحنة قبل أن يصلوا فى مواجهة الإسكندرية.

ويؤكد «جلوب» من خلال سرده، أن الإسكندرية فتحت صلحًا دون قتال. كما أنه استند فى قوله بتحول القبط إلى الوقوف بجانب الروم

«١٣٩» ص ٣٧٠.

بسبب تقتيل العرب لهم، إلى ما ذكره «البلاذرى». ونحن نعرض ما ذكره «البلاذرى» كى يتضح كيف ينتقى «جلوب» ما يريد ويتجاهل ما لا يريد. يقول «البلاذرى» إن «عمرًا» سار بجيشه إلى الإسكندرية «وكان مَنْ دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا له، وقالوا: نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ويروم الإسكندرية. فلقيهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وكان فيهم من أهل سخا، وبلهيت، والخَيس، وسُلطيس، وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله، إلا أن القبط فى ذلك يحبون الموادعة، فأرسل إليه «المقوقس» يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة»(١٤٠) ويستمر «البلاذرى» فى سرد الحوار بينهما ثم محاولة «المقوقس» إقناع رجال الحامية بالمصالحة، ويقول «فأغلظوا له القول وأبو إلا المحاربة. فقاتلهم المسلمون قتالًا شديدًا وحصروهم ثلاثة أشهر. ثم إن عمرًا فتحها بالسيف وغنم ما فيها واستبقى أهلها، ولم يسب، وجعلهم ذمة كأهل أليونة. فكتب إلى عمر بالفتح مع «معاوية بن حديج الكندى»...»(١٤١).

لقد أجمعت مراجع المسلمين على وقوع معركة الإسكندرية، وأن «عمرًا» بعث مع رسوله كتابًا إلى «عمر» يبلغه بالفتح، وأن «عمرًا» ظل مرابطاً أمام الإسكندرية. قال «البلاذرى» كتب عمرو بفتح الإسكندرية إلى عمر فقال «أما بعد، فإن الله قد فتح علينا الإسكندرية عنوة قسرًا بغير عهد ولا عقد»(١٤٢). ولقد ذكر «ل. أ. سيديو» فى كتابه «تاريخ العرب العام» أن عمرًا «سار من منف إلى الشمال فهزم الروم فى كوم شريك بعد أن جمعوا شملهم فدحرهم إلى الإسكندرية فحاصرهم، فلم يترك أهلوها وسيلة من وسائل الدفاع إلا أتوها، فدامت مقاومتهم أربعة عشر شهرًا، ثم دارت الحمية فى رءوس المسلمين فدخلوا الإسكندرية عنوة فى ٢١

«١٤٠، ١٤١» ص ٢٥٩.   «١٤٢» – ص ٢٥٣.



ديسمبر ٦٤١م، ففر الروم المغلوبون إلى سفنهم»(١٤٣).

أما عن موقف القبط الذين شاركوا الروم فى قتال المسلمين فى معركة الكريون كما ادعى «جلوب»، فمردود عليه بما ذكره «بتلر» نفسه وهو ما تعمد «جلوب» تجاهله رغم اعتماده على آراء «بتلر» فيما فيه طعن للمسلمين. قال «بتلر» «إنه أثناء انتفاضة الإسكندرية على العرب ثارت عليهم بعض مدن مصر السفلى مثل بلهيب وخيس وسلطيس وقرطسا. ولكنهم ـ أى العرب ـ بعد أن انتصروا على حملة منويل واستعادوا الإسكندرية أخضعوا هذه المدن بدورها وأسروا أهلها وأرسلوا الأسرى إلى المدينة، ولكن الخليفة «عثمان» رد الأسرى وأمر بمعاملة هذه المدن ومعاملة الإسكندرية معاملة البلاد التى فتحت صلحًا» قال «ابن دحلان» فى كتابه «الفتوحات الإسلامية»، «ولما هزم الله الروم وفتحت الإسكندرية وهرب الروم فى البر والبحر خلّف عمر بن العاص بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر ورجع من كان هرب من الروم فى البحر إلى الإسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم وبلغ عمرو بن العاص فكر راجعًا ففتحها وأقام بها»(١٤٤).

ونخلص من ذلك، أن ما حدث ببلهيب وخيس وسلطيس كان بعد حملة «مانويل» لاستعادة الإسكندرية والتى حدثت فى عهد الخليفة «عثمان بن عفان». وهناك، آراء أخرى تشير إلى أنها قد تكون قد وقعت أثناء الفتح، ومع ذلك ليس من المستبعد أن يكون انضمام بعض القبط إلى الروم كان تحت إكراه وإجبار أو بإغراء مادى، وهى أحداث صغيرة ومحدودة ولا تمثل ظاهرة عامة تستحق الاهتمام الكبير الذى أبداه «جلوب».

«١٤٣» ص ١٣١. «١٤٤» ص ٦٩.

رابعًا: الدور المادي والاجتماعي والديني في فتح مصر:

سوف أناقش هذه الأبعاد في الفصل الأخير من البحث بإذن الله. ومع ذلك، فإن خلاصة رأي «جلوب» من خلال جمع الفقرات المتناثرة في كتابه، تضمن النقاط التالية:

١ـ كان «المقوقس» هو السبب في ضياع مصر من الحكم الروماني ويتهمه «جلوب» بالخيانة.

٢ـ لم يكن لدى القبط انتماء قوي لبلادهم ولا ولاء حقيقي للمسيحية، وكان الأجدر بهم الوقوف بجانب الروم المسيحيين ضد أعدائهم المسلمين.

٣ـ كان القبط بين خيارين، إما أن يظلوا عبيدًا للروم، أو يصبحوا عبيدًا للمسلمين الفاتحين «استخدم ذلك النص حرفيًا «سيظلون عبيدًا تابعين» وقد أخذوا بالخيار الثاني لكراهيتهم لبيزنطة وما تمارسه عليهم من بطش واضطهاد وما علموه من الوضع الطيب لمسيحيي الشام وممارستهم لدينهم بحرية كاملة.

٤ـ كان الدافع لمن تحول من القبط إلى الإسلام، هو إما الهروب من الجزية والضرائب الثقيلة أو لتحسين أوضاعهم الاجتماعية بالتساوي مع الفاتحين المسلمين، ويرى أن من رضي من القبط بالبقاء على دينه مقابل دفع الجزية أصبح بذلك «مواطنًا من الدرجة الثانية».

٥ـ لم يجبر المسلمون أحدًا على دخول الإسلام وأنهم كانوا يفضلون تحصيل الجزية.

٦ـ يرى أن تحول بعض القبط للإسلام أفسد العنصر العربي النقي، وأن اعتبارهم عربًا فيه جمع بين الدين والعنصر وهو أمر مرفوض.

فتح مصر

البحر الأبيض المتوسط

دمشق

سوريا

قيسارية

القدس

البحر الميت

غزة

٣٥٠٠ رجل بقيادة عمرو

العريش

الفرما

بلبيس

أم دنين

الإسكندرية

دمنهور، الكريون

زاوية رأسيد، كوم شريك

الفسطاط

حصن بابليون (العباسية)

مصر

هليوبوليس

القلزم السويس

١٢ ألف رجل دعم بقيادة الزبير

المناورة إلى بني سويف والعودة

النيل

البحر الأحمر

الجزيرة العربية

الفصل التاسع

أسباب انتصار المسلمين

فى الفتوحات كما يراها الجنرال «جلوب»

قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(الأنفال: ٤٥)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾

(الصف: ٤)

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

(آل عمران: ١٦٠)

(إن سمات الفن العسكرى فى حروب العرب لا تدخل فى عائلة الحروب القديمة حتى أواخر القرن الثامن عشر، وإنما هى من عائلة الفن العسكرى الذى أرسى نابليون أصوله فى العصر الحديث)

«أ. منير شفيق»

(علم الحرب)

من واجبنا أن ندرك أن الجيوش البيزنطية والفارسية كانت أعظم القوات العسكرية فى ذلك العهد، وكان ضباط تلك الجيوش يدرسون المؤلفات عن التاريخ العسكرى وفنون الحرب، وكانت



لكل من تلك الجيوش تقاليدها العسكرية الخاصة بها والتى تبلغ فى عمرها عدة قرون وكان سلاحها من أحدث الأسلحة تقنية. ولم تكن تنظر إلى الشعوب المتخلفة كالشعب العربى إلا بعين الزراية والامتهان، ولهذا فإن الفتوح العربية العظيمة تنطوى على كثير من الدروس التى يجب أن نتعلمها).

«جون باجوت جلوب»

«الفتوحات العربية الكبرى».

يبدى الجنرال «جلوب» دهشته من الانتصارات الكاسحة التى أحرزتها قوات المسلمين وهى تقاتل منفردة فى وقت واحد جيوش الفرس والروم المتفوقة عددا وعدة وتسليحًا بشكل هائل فضلا عن كفاءتها القتالية المكتسبة من حروبها الطويلة فبعد أن يستعرض بفخر المستوى المرتفع للكفاءة القتالية لجيوش الروم باعتبارها قوات أعظم إمبراطوريات العالم آنذاك، يقول عن قوات المسلمين (وأمام هذا الجيش النظامى الرفيع التدريب - يقصد جيش الروم - يقف العرب فى جماعات من أبناء القبائل غير المدربين، فهم لا يعرفون شيئا عن التعبئة وفنون الحرب، ولا عن النظام أو الكتب العسكرية وليست لديهم إدارة، أو رواتب أو أطباء وكان سلاحهم أقل شأنا وأهمية من سلاح عدوهم ومع ذلك فإنهم بعد «مؤتة» - يقصد غزوة مؤتة - لم يخسروا أية معركة فى حربهم مع الروم)(١٤٥) ويعبر عن مزيد حيرته بمرارة، فيقول (وقد فتح العرب دولتهم العظيمة فى وقت قصير للغاية يثير الدهشة بالرغم من الحقيقة الواقعة، وهى أنه لم يسبق لهم أن خاضوا غمار عمليات عسكرية ضخمة كدولة عظمي)(١٤٦) لكن الجنرال «جلوب» كعادته لا يريد أن يصدق أو يعترف،

«١٤٥» ص ٢١٨. «١٤٦» إمبراطورية العرب ص ٣٦٩.

رغم دهشته، بأن المسلمين الفاتحين امتلكوا بالفعل المهارات العسكرية التي أهلتهم وبشكل رائع لتحقيق النصر الساحق على الروم ويحاول أن يجد مبررا، فيقول «ولا ريب في أن العرب اقتبسوا تنظيم جيوشهم في بداية الأمر عن الروم الذين تميزوا بخيرة قرون عدة في فنون الحرب)(١٤٧) وهو ادعاء ناقشناه من قبل وثبت عدم صحته. بل إن «جلوب» اضطر إلى معارضة نفسه عندما أراد إثبات أمر آخر يريده، فيقول في موضع آخر من كتابه (كان العرب قد ألفوا من عهد بعيد، ولاسيما البدو منهم مبادئ السوقية - أي الاستراتيجية - العسكرية التي تقوم على السرعة والمباغتة وحشد القوى في المراكز الحساسة الحاسمة. وكانوا في أيام الجاهلية يفتقرون إلى النظام والانضباط ولكن السنوات الست المتعاقبة من الصراع المستمر مع جيوش الفرس والروم علمتهم ولا ريب الكثير من الدروس التي لم تسجل لسوء الحظ لنفيد منها نحن)(١٤٨) هذا اعتراف من «جلوب» بأن العرب كانوا يمتلكون مقومات تنفيذ وإدارة «الحرب المتحركة» التي انفردوا بها دون الفرس والروم.

كانت تلك وجهة نظر «جلوب» والتي خرج منها بنتيجة يحدد فيها أسباب انتصار المسلمين كما يراها هو، فقال (ومن هنا نستطيع القول، على أية حال بأن انتصاراتهم المذهلة لم تتحقق بفضل تفوق في علومهم العسكرية، وإنما يرجع الفضل الأول في هذه الانتصارات التي حققها الفاتحون العرب إلى روحهم الحماسية ومعنوياتهم العالية ولاسيما وقد تقوت هذه المعنويات عن طريق الإيمان بأنهم إنما يقاتلون في سبيل الله، وأن من يستشهدون

«١٤٧» إمبراطورية العرب ص ٣٧٠.

«١٤٨» ص ٣٣٤ - ٣٣٥.



منهم يمضون قدما وسراعا إلى فراديس النعيم المقيم. أما السبب الثانى فى هذه الانتصارات فهو أنهم ألفوا شظف العيش وخشونته آلاف السنين على أكناف الصحراء وفى أوضاع حياتية تقرب من المجاعة مما جعل منهم شعبا صلبا لا يلين. أما السبب الثالث، فهو قدرتهم على السرعة الهائلة فى الحركة ولاسيما فى الصحراء حيث يعجز أعداؤهم عن الحركة تماما.. ويضيف، لكن الفضل الأول والأخير فى انتصاراتهم يجب أن يعزى إلى روحهم المعنوية العالية - يقصد بسبب الحماسة الدينية كما سماها - فهم نارىو المزاج محاربون بطبيعتهم)(١٤٩) وبادر «جلوب» إلى نفى أن يكون للقيادة العليا بالمدينة دور فى التخطيط وإدارة الحرب، حيث نفى وجود نية أصلا للفتح وخرج منها بقوله (ومن هنا حق لنا أن نستنتج أن الفتوحات العربية الكبرى، لم تكن ثمرة تخطيط وتصميم، وقد حدثت هذه الفتوحات تلقائيا من نفسها نتيجة الظروف العارضة)(١٥٠)، وبالتالى يصل إلى النتيجة التى أرادها وهى قوله (فى خلافتى أبى بكر وعمر لم يكن هناك تخطيط عسكرى من مقر القيادة العليا فى المدينة)(١٥١) كما تعمد «جلوب» ألا يذكر السبب الطريف الذى ساقه مبررًا لانتصار المسلمين فى معركتى «اليرموك» و«القادسية» وأقصد به الريح العاصفة التى دفعت المسلمين لإبادة أعدائهم إلا أن «جلوب» ذكر أن سبب انتصار المسلمين فى مصر، يرجع إلى افتقار المصريين - القبط - إلى القادة الأكفاء، فيقول (إن المصريين كمحاربين لم يهزموا إلا بسبب افتقار قادتهم إلى الكفاية)(١٥٢) وهى محاولة منه كى يصور أن الحرب فى مصر كانت بين العرب المسلمين

«١٤٩» ص ٢١٨، ٣٣٥. «١٥٠» ص ١٩١ - ١٩٢.

«١٥١» ص ٥٤١. «١٥٢» ص ٣٧٦.

من ناحية والمصريين القبط من ناحية أخرى، وهى أحد الأباطيل التى ناقشها «جلوب» مطولا ليفصل بين العرب والمصريين بشكل عنصرى بحت. لقد حدد «جلوب» أسبابا ثلاثة لانتصار المسلمين هى:

١ - استخدام الحماسة الدينية لرفع معنويات المسلمين المقاتلين.

٢ - صلابة المقاتل المسلم بسبب شظف العيش والجوع والفقر.

٣ - خفة حركة جيش المسلمين.

وسوف نناقش تلك الأسباب بإيجاز

أولا: استخدام الحماسة الدينية لرفع معنويات المسلمين المقاتلين

ذكرت من قبل أن «جلوب» استخدم مصطلح «الحماسة الدينية» كبديل «لفريضة الجهاد فى سبيل الله»، واعتبر أن استخدام الحماسة الدينية كانت وسيلة لرفع المعنويات ولاشك أن الفارق شاسع بين الإيمان الحقيقى بالجهاد فى سبيل الله وبين ارتفاع الروح المعنوية، فالإيمان بالجهاد فى سبيل الله كان هو الهدف ولم يكن ارتفاع المعنويات غير نتيجة له، وهو أمر لا يستطيع «جلوب» إدراكه، كان المقاتل المسلم يجاهد فى سبيل الله مؤمنا بأن الدعم الإلهى أمر واقع ومؤكد وأن الفئة القليلة المؤمنة الصابرة تغلب بالقطع الفئة الكبيرة الكافرة، وأن الشهادة شرف وهدف وقد وعد الله المسلمين بالنصر أو الشهادة، ويوقن بأن مثوبة الشهيد هى فراديس النعيم كما ذكر «جلوب» وأنه مع إيمانه هذا، عليه الأخذ بالأسباب بقدر استطاعته كان هذا الإيمان الراسخ بمثابة نسيج يربط بين المسلمين من القمة أى الخليفة حتى الجندى فى الميدان.

لقد عكست المكاتبات المتبادلة بين الخلفاء الراشدين وقادتهم الميدانيين، والمتبادلة فيما بين القادة أنفسهم فضلا عن الخطب التي كانت تلقى في الميدان قبيل نشوب المعارك، ما رسخ في عقيدة المجاهدين الفاتحين من إيمان قوي.

كتب ـ «أبو بكر الصديق» إلى «خالد بن الوليد» ومن معه، يقول «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله أبي بكر خليفة رسول الله (ﷺ) إلى خالد بن الوليد ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فالحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر دينه، وأعز وليه، وأذل عدوه، وغلب الأحزاب فردا، فإن الله الذي لا إله إلا هو:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

(النور: ٥٥)

وعدا لا خلف له، ومقالا لا ريب فيه، وفرض على المؤمنين الجهاد، فقال عز من قائل:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢١٦)

فاستتموا موعد الله إياكم، وأطيعوه فيما فرض عليكم، وإن عظمت فيه المؤنة، واشتدت فيه الرزية، وبعدت فيه الشقة، وفجعتم في ذلك بالأموال والأنفس، فإن ذلك يسير في عظيم ثواب الله، ولقد ذكر لنا الصادق المصدوق (ﷺ) أن الله يبعث الشهداء يوم القيامة شاهرين سيوفهم لا يتمنون على الله شيئا إلا آتاهموه، إلا أن يردهم الله إلى الدنيا، فيقرضون بالمقاريض في الله لعظيم ثواب الله. انفروا ـ رحمكم الله في سبيل الله ـ خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فقد أمرت خالد بن الوليد بالمسير إلى العراق لا يبرحه حتى يأتيه أمرى، فسيروا معه، ولا تثاقلوا عنه، فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته، وعظمت في الخير رغبته، فإذا قدمتم العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمرى، كفانا الله وإياكم مهم أمور الدنيا والآخرة والسلام عليكم ورحمة الله)(١٥٣).

ذكر «الطبرى»، أن أول كتاب من «عمر حين ولى الخلافة كان إلى «أبى عبيدة بن الجراح» يوليه فيه على جند الشام بدل «خالد بن الوليد»، جاء فيه «أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه، الذى هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور» وختمه بقوله: «وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة، وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك، فغمض بصرك عن الدنيا، وأله قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعهم»(١٥٤) وعندما كان «أبو عبيدة» على وشك خوض معركة الأردن، تلقى من «عمر» كتابا تضمن (فإن أتاك كتابى هذا وأنتم الغالبون، فكثيرا ما نذكر من ربنا الإحسان إلينا وإليكم، وإن أتاكم وقد

«١٥٣» ص ١١٩ جمهرة رسائل العرب.

«١٥٤» ص ١٤٦ جمهرة رسائل العرب.



أصابكم نكب، أو قرح فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تستكينوا فإنكم الأعلون، وإنها دار الله، وهو فاتحها عليكم تصديقا منا لقول نبينا (ﷺ) فاصبروا إن الله مع الصابرين. واعلم أنك متى لقيت عدوك، فاستعنت بالله عليهم، وعلم منكم الصدق، نصرك عليهم، فقل إذا أنت لقيتهم: اللهم إنك الناصر لدينك، والمعز لأوليائك قديما وحديثا، اللهم فتول نصرهم، وأظهر فلجهم ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، وكن الصانع لهم، والدافع عنهم برحمتك إنك الولى الحميد»(١٥٥).

ونحن نذكر أنه عندما أرسل «أبو عبيدة» كتابا إلى «عمر» يقول له فيه إنه لا طاقة للمسلمين أمام الحشد الهائل للروم قبيل المعركة، رد عليه «عمر» بقوله (فأما قولك: أنهم قد جاءهم ما لا قبل لهم به، فإن لم يكن لكم به قبل، فإن لله بهم قبلا، ولم يزل ربنا عليهم مقتدرا..) وبانتصار المسلمين فى المعركة، بعث «أبو عبيدة» كتابا إلى «عمر» (بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فالحمد لله الذى أنزل على المسلمين المؤمنين نصره، وعلى الكافرين رجزه، أخبر أمير المؤمنين - أصلحه الله - أنا التقينا نحن والروم، وقد جمعوا لنا الجموع العظام، فجاءونا من رءوس الجبال، وأسياف البحار، وظنوا أنه لا غالب لهم من الناس فبرزوا لنا وبغوا علينا، وتوكلنا على الله، ورفعنا رغبتنا إليه، وقلنا: حسبنا الله ونعم الوكيل، ونهضنا إليهم بخيلنا ورجالنا، وكان القتال بين الفريقين مليا من النهار، أهدى الله فيه الشهادة لرجال من المسلمين منهم عمرو بن سعيد بن العاص، وضرب الله وجوه المشركين، واتبعهم

«١٥٥» ص ١٥٤ - ١٥٥ المرجع السابق.

المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، حتى اعتصموا بحصونهم، فأصاب المسلمون عسكرهم، وغلبوا على بلدهم، وأنزلهم الله من صياصيهم، وقذف فى قلوبهم الرعب، فاحمد الله يا أمير المؤمنين أنت ومن قبلك من المسلمين على إعزاز دينه، وإظهار الفلج على المشركين، وادع الله لنا بتمام النعمة، والسلام عليك) (١٥٦).

كان الصحابة الكرام يتناوبون إلقاء الخطب على المسلمين قبيل خوضهم المعارك لتحفيزهم على القتال فقبيل نشوب القتال فى «أجنادين»، قام «خالد بن الوليد» خطيبا فى الناس يأمرهم بالاجتماع وينهاهم عن التفرق، وكان «أبو سفيان بن حرب» يتولى حثهم على القتال، فى الوقت الذى كان فيه «المقداد بن الأسود» يدور على المقاتلين فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد وعندما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان، قام «أبو عبيدة» فى الناس واعظا فقال (عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين، اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدءوهم بالقتال وشرّعوا الرماح واستتروا بالدروق والزموا الصمت إلا من ذكر الله فى أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله) (١٥٧) هذه الموعظة على قصرها، مزجت بين ترسيخ الإيمان فى نفوس المقاتلين، وبين الأسلوب الماهر فى القتال على المستوى التكتيكى وهو ما جعل «جلوب» يندهش.

يقول «جلوب» فى كتابه الثانى «إمبراطورية العرب»، (وقد نميل اندفاعا منا مع نسبة انتصاراتهم -أى المسلمين- إلى حماستهم الدينية ليس إلا، إلى تصوير العمليات العسكرية

«١٥٦» ص ١٥٥ – ١٥٦ المرجع السابق.

«١٥٧» ابن كثير ص ٨ جـ ٧.



العربيــة علــى أنها مجــرد هجمات عنيفــة من الفرســان بمنتهى السـرعة وينفذونها فـى حالة من الثورة التى تنطـوى على الحمق والتهـور ولكن الحقيقة لا تلبـث أن تذهلنا، وهى أن العرب كانوا يؤثـرون دائمـا، وفى مسـتهل المعـارك التى يخوضونهـا، التزام جانــب الدفاع وكانوا لهذا ينظمون مشـاتهم فــى صفوف متعاقبة متزاحمــة، يتقدمهم حاملوا الرمــاح وقد ركعوا على الأرض وثبتوا قواعد رماحهم فى الأرض وارتدوا الزرد والدروع ليؤلفوا سدا منيعا من الحديد ورءوس الرماح وكانوا يتلقون على هذه الصورة هجمات العــدو، فإن تمكنوا مــن صدها، بات فى وســعهم أن يتقدموا إلى الأمام ببطء لا بتهور، شــبرا شبرا، وهدفهم المحافظة على سلامة صفهم دون التواء أو انحناء:. ولعل ما يثير الدهشة أيضا أن الأوامر كانت تصدر إلى الفرســان بأن لا يهجموا بمنتهى السرعة، وأن لا يفقدوا تماســكهم أو يورطوا أنفســهم فى مطــاردة العدو مطاردة عنيفــة. وإذا ما تم تحطيم تشــكيل العدو، كان على الفرســان أن يعــودوا إلى توحيد صفوفهم، وأن يرجعــوا إلى «أماكنهم الأصلية فى ميدان المعركة.. إن البســالة العســكرية لا تظهر فى الرعونة والتهــور، بــل فى الصبر والاحتمــال»(١٥٨) ونعود إلــى الميدان قبيــل نشــوب القتال، فنــرى «معاذ بــن جبل» يخرج علــى الناس فجعل يذكرهم ويقول (يا أهل القرآن، ومتحفظى الكتاب وأنصار الهــدى والحق، إن رحمــة الله لا تنال، وجنتــه لا تدخل بالأمانى، ولا يؤتــى الله المغفرة والرحمة الواســعة إلا الصادق المصدق ألم تسمعوا لقول الله:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

«١٥٨» إمبراطورية العرب ص ٣٦٩ – ٣٧٠

﴿ ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (النور:٥٥).

فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فرارا من عدوكم وأنتم في قبضته وليس لكم ملتحد من دونه ولا عز بغيره)(١٥٩) وقام «أبو هريرة» واعظا في الناس، فجعل يقول (سارعوا إلى الحور العين وجوار ربكم عز وجل في جنات النعيم، ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحب إليه منكم في مثل هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم)(١٦٠) وقد روى «سيف» أن ذلك الجمع من الناس كان فيه ألف من الصحابة ومائة من أهل بدر.

كان هذا النسيج الإيماني، انعكاسا لما وصل إليه المجتمع الإسلامي آنذاك من صفات جعلت «جلوب» نفسه يصفه بالعظمة. فقد ذكرنا أنه عندما نفى العامل الاقتصادي كسبب للفتح استنادا إلى ما قام به «عمر» من مناصفة أموال قادته، قال (إنها المعنويات العظيمة التي سادت المجتمع كله آنذاك هي التي مكنتْ عمر بن الخطاب من سلوك هذا السلوك الصارم مع قادته العسكريين وولاته ونقارن هذا الوضع بما كان عليه بلاط القسطنطينية من تنابذ وأنانية وتقسم إلى أحزاب ودسائس تحاك وراء الكواليس، تتبين لنا الحقيقة الناصعة في أسباب انتصارات العرب العظيمة)(١٦١).

ومع ذلك، ألم يكن في مقدور الروم أن يثيروا الحماس لدينهم ويرفعوا معنويات جنودهم؟ لم يشر «جلوب» من قريب أو من بعيد إلى هذا الأمر يذكر كل من «الطبري» و«ابن كثير» أن الروم لزموا خندقهم شهرا يحضهم القسيسون والشمامسة والرهبان وينعون لم النصرانية وعندما وصل «خالد بن الوليد»

«١٥٩» ابن كثير ص ٨ – ٩ جـ ٧.
«١٦٠» ابن كثير ص ٩ جـ ٧.
«١٦١» ص ٢٧٩ – ٢٨٠.



مـن العراق، طلع «باهـان» قائدا للروم وقد قدّم أمامه الشمامسـة والرهبان والقسيسين يغرونهم ويحضونهم على القتال لنصر دين النصرانية وعن حشـدهم للمعركة يقول «ابن كثير»، ولما أقبلت الـروم في خيلائهـا وفخرها قد سـدت أقطار تلك البقعة سـهلها ووعرها كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة ورهبانهم يتلـون الإنجيل ويحثونهم على القتـال، ويقول: وجعل «معاذ بن جبل» كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان يقول (اللهم زلزل أقدامهـم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السـكينة، وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء)(١٦٢).

ثانيا: صلابة المقاتل المسـلم بسـبب شظف العيش والجوع والفقر

كانت الشـجاعة والمروءة والنجدة، وإكـرام الضيف والصبر علـى المشـاق، وتحمل شـظف العيش مـن جوع وفقـر، القناعة والرضا ودفـع المعتدى وغيرها – من الصفات الأصيلة للإنسـان العربى البدوى منـذ العصر الجاهلى. لقد رد «جلوب» على ادعاء السـير «ماثيو أرنولد» بأن الفقر كان وراء الفتح، بقوله إن العرب كانوا دائما فى حالة من الفقر والجوع ألوف السـنين قبل الإسلام ومـع ذلك لـم يقوموا بمـا قاموا به بعد الإسـلام كمـا أن «إداورد جيبون» أشـار إلى ذلك بقوله «فالعرب الذين نشروا فتوحاتهم من الهند إلى أسـبانيا، كانوا قبل ذلك قوما خاملين يعيشـون فى فقر وذلـة حتى نفث فيهم النبى محمد روح الحماس)(١٦٣) لقد جاء الإسـلام، فهذب من صفات العربـى وأضاف إليها عنصرا هاما هو قوة الإيمان والرغبة فى بذل المال والنفس فى سبيل نصرة الدين.

وما ذكره «جلوب» عن أثر الفقر والعوز والجوع وشظف العيش

«١٦٢» ابن كثير ص ١١ جـ ٧.
«١٦٣» ص ٣٥٧ جـ ٢.

في إكساب المقاتل المسلم صفة الصلابة، فيه بعض المبالغة، فليس كل الفقراء والجائعين لديهم صفة الصلابة وقد انفتحت أبواب الخير والرزق العميم وأقبلت الدنيا على المسلمين ومع ذلك ظل المقاتل العربي المسلم محتفظا بصلابته لعدة عقود أتم خلالها فتح أقطار الأرض ونشر حضارة الإسلام في ربوعها.

لاشك أن الترف يفقد المقاتل صلابته، بينما تزيد قسوة العيش منها. لذلك، علينا أن ننظر إلى الجانب الآخر من المعادلة لم يكن المقاتل الروماني صلبا، بل كان مترفا غير كفء لخوض قتال شرس رغم إسباغ أوصاف الرقي والحضارة عليه.

لقد وصف المسلمون الفاتحون بأنهم كانوا فرسانا بالنهار، رهبانا بالليل، يسمع لهم دوى كدوى النحل من قراءة القرآن الكريم بينما في الجانب المقابل، كان جنود الروم يعاقرون الخمر في الليل ثم يقيدون بعضهم ببعض بالسلاسل في النهار حتى لا يفروا.

ثالثا: خفة حركة جيش المسلمين

ذكر «جلوب» أن السبب الثالث في انتصار المسلمين (هو قدرتهم على السرعة الهائلة في الحركة ولاسيما في الصحراء حيث يعجز أعداؤهم عن الحركة تماما)(١٦٤)، كما أعطى أمثلة على ذلك عندما سبق جيش المسلمين جيش الروم المتحرك جنوبا في فلسطين (وهكذا كسب البدو السريعو الحركة على إبلهم بتعودهم على شظف العيش والرحيل ليلا ونهارا معتمدين في غذائهم على قصعة من الخبز، السباق مع الجيش الروماني البليد المترهل الذى يثقل سيره بما يحمله من معدات الحضارة وأدواتها.. ويضيف، كان المسلمون سريعي الحركة إلى درجة

«١٦٤» ص ٣٣٥ الفتوحات العربية الكبرى.



هائلة وكان أسلوبهم يتركز فى هجوم عنيف وشرس وفى حركات تقدم وتراجع والتفاف تتم بسرعة مع قطع طرق المواصلات والتموين ولم يكن فى وسع القوات البيزنطية الثقيلة والبطيئة الحركة أن تصمد أمام هذه السرعة فى التحرك فى أراض فسيحة منبسطة)(١٦٥) يقول «أ. منير شفيق» فى كتابه (علم الحرب)، (إن سرعة جيوش العرب المسلمين كانت تفوق سرعة جيوش الرومان بما لا يقل عن أربعة أضعاف)(١٦٦) ويقول المشير أبو غزالة عن سرعة تحرك «خالد بن الوليد» عندما قام بمناورته الشهيرة من العراق إلى الشام (قطع خالد مسافة السير فى خمسة أيام بمعدل تقدم ١٠٠ ميل / يوم وهو معدل عال جدا بالنسبة لذلك الوقت)(١٦٧) ورغم اعتراف «جلوب» بامتلاك جيش المسلمين لخفة الحركة، فإنه يبرره برأى غاية فى السخافة، فيقول (ومن المحتمل أن يكون شظف العيش الذى ألفوه واحتمالهم للمشاق وافتقارهم لأى تدريب منظم قد جعل منهم قوة أسرع على الحركة من عدوهم)!!!(١٦٨) لا يمكن لأى عسكرى محترف مثل الجنرال «جلوب» الزعم بأن الافتقار إلى التدريب سبب فى اكتساب القوات لخفة الحركة والقدرة على المناورة السريعة.

وبشكل عام، تتحقق خفة حركة القوات من خلال أمرين:

أولهما، اتخاذ تشكيل المسير المناسب القادر على سرعة الفتح إلى تشكيل قتال والدخول فى معركة تصادمية ناجحة.

الأمر الثانى، وضع الخطة التى تمكن من المناورة بالقوات وتدريب القوات عليها وتنفيذها ونستعرض كيف تمكن المسلمون من تحقيق الأمرين.

«١٦٥» ص ٢٢١، ٢٢٧. «١٦٦» ص ١٩٦. «١٦٧» ص ١٩٨.

«١٦٨» ص ٢١٨.

أولا: تشكيل المسير والقتال المناسب

رأينا في الفصول السابقة، وبخاصة المسير إلى معركة القادسية، أن المسلمين هم من ابتكر هذا التشكيل وطوروه، وأصبحوا قادرين على تنفيذ المسير بالقوات وسرعة فتحها إلى تشكيل قتال والاشتباك في معركة ناجحة وكان في قمته كما رأينا في توجيهات أمير المؤمنين «عمر» إلى قائده الميداني «سعد بن أبي وقاص» ولم يكن لدى الفرس والروم مثل هذه العبقرية وظلوا يقاتلون بكتلهم التقليدية الجامدة، بل فشلوا في الاقتباس من المسلمين ولم يجرؤوا على القتال في الأرض الصحراوية المفتوحة، وفضلوا خوض حرب دفاعية من الاتصال المباشر.

ثانيا: التخطيط للمناورة بالقوات والتدريب عليها وتنفيذها.

لقد ادعى الجنرال «جلوب» أن معارك الفتح حدثت تلقائيا دون تخطيط أو تدريب ومن غير المعقول، أن ينجح المسلمون في إدارة حرب متحركة على جبهتي الفرس والروم يحققون فيها النصر بشكل دائم، دون تخطيط أو تدريب لقد نجح المسلمون في بناء خططهم بشكل تراكمي من خلال دراسة خبرات القتال، كما يلي:

١- كان الصديق «أبو بكر» هو من وضع البذرة الأولى، حيث كانت حروب الردة هي البوتقة التي انصهرت فيها الخبرات الحربية الأولى لتخرج ملامح العقيدة القتالية التي تبناها.

يقول أ.منير شفيق في كتابه «علم الحرب»: (عندما حدثت ردة القبائل العربية عن الإسلام قسم الخليفة أبو بكر الصديق جيش المسلمين إلى أحد عشر لواء، وجعل على كل لواء قائدا.. وحرك تلك الألوية لتعمل مستقلة ومتعاونة في آن، فقد كان على كل لواء أن يقوم بعمليات مستقلة في جبهة محددة، فأحيانا



كانــت مهمته تثبيــت العدو وإزعاجــه باســتمرار، وأحيانا كانت مهمتــه الدخول فى معركة فاصلة معه، حســب مقتضيات الوضع ولكن من بين تلك الألوية لواء رئيســى يشــكل الجســم الرئيسى الذى يقوم بمهمة الدخول فى المعركة الحاســمة مع قوات العدو الواحــدة بعــد الأخــرى، وكان على رأس هــذا الجيــش «خالد بن الوليــد» وكان كلما واجه قوة رئيســية من قــوات المرتدين، يقوم بالتركيــز ضدها عن طريــق انضمام بعض الألويــة الأخرى له. ثم ينتقــل ليكــرر تلك العمليــة وهنا نجد كل ملامح التقســيم الذى يجمع بيــن مرونة الحركــة والمناورة وبين التركيــز فى المعركة كان لنجــاح هذه التجربة أثر حاســم إذ أصبحت إحدى الســمات الرئيسية فى الفن العسكرى فى حروب الفتوحات)(١٦٩)

٢- كمــا وضع الصديق، البــذرة الأولى للمناورة بالقوات على المستوى الاســتراتيجى والتعبوى من جبهة قتال إلى أخرى، دون أن يخل ذلــك بالعمليات فكان قراره وخطته فى تحويل المجهود الرئيسى للحرب من جبهة العراق إلى الشام، مثالا رائعا على ذلك كمــا كان قراره بدعم قوات المســلمين بالشــام بخالــد بن الوليد ونصف قواته من العراق، ومناورة «خالد» الشهيرة مثالا آخر يقول «أ. منير شفيق» (ولعل حملة بر الشام من أروع الأمثلة على تأكيد التجربــة لتــى أنتجتهــا حروب الردة فقد قســم أبو بكــر الصديق جيــش المســلمين إلى ثلاثة جيــوش (قال البعض أربعــة) ـ وأخذ كل جيش خط عمليات مستقل.. وكانت التعليمات التى حملها قادة تلك الجيوش أن يعملوا بتناغم بحيث يظل الاتصال مستمرا فيمــا بينهم كما يظل مســتمرا فيما بينهم وبيــن الخليفة وإذا ما ارتطم أحدهم بمقاومة تعنى معركة حاســمة انضم إليه الجيشــان

«١٦٩» ص ١٨٨.

الآخـران ، وركزت القيـادة بين القائد الذى تجـرى العمليات فى منطقته . ونجد هنا السمات التالية :

أ- منطقـة الحـرب أصبحت سـاحة واسـعة جـدا تنـاور فيها الجيوش على الخطوط الداخلية للعدو دون أن تفقد الاتصال فيما بينها ودون أن تعرض خطوط مواصلاتها للخطر .

ب- الجمـع بيـن مرونـة المنـاورة والحركة الواسـعة ، وبين التركيز المطلوب للمعركة .

حـ- كل جيش له قيادته المستقلة ويتشكل من مختلف صنوف الأسلحة وقادر على خوض معارك بمفرده .

د- إبقاء الاتصال وخط المواصلات مع المركز فى المدينة من أجل اسـتمرار التعبئة والتعزيز وقيادة اسـتراتيجية العمليات إلى جانـب المحافظة على الاتصال وخـط المواصلات فيما بين تلك الجيوش الثلاثة)(١٧٠) .

٣- نجـح الفاروق «عمر» فـى تطوير ما قام بـه الصديق وبناء جيش إسـلامى مكنه مـن تحقيق النصـر على الفـرس والروم فى وقت واحد دون أن يخل ذلك بقدرة القوات على خوض العمليات بنجاح ولقد ذكرت فى الفصول السـابقة ، نمـاذج من روائع الفن العسكرى الإسلامى ، عكست حقائق منها :

أ- كان أميـر المؤمنين حريصا علـى الإلمام بطبيعة الأرض فى مسارح العمليات على جبهتى الفرس والروم ومعرفة كل ما يتعلق بالعدو سواء من حيث تعداده وتسليحه وأوضاعه ونواياه .

ب- وكان يضـع خطة العمليات مسـتعينا بآراء من يستشـيره مـن «مجلس الحـرب» بل ومن غيرهم ، ورجحـت أنه كان لابد أن يستعين «بتختة رمل» .

«١٧٠» ص ١٨٨ - ١٨٩.



ح- كانت تعليماته إلى القادة الميدانيين تتضمن تحديدا واضحا لمهامهم كذا تصوره للمواقف المتوقعة وقراره في كل منها.

د- كانت متابعته لإدارة الحرب وتطورات العمليات القتالية تتم بشكل رائع ودائم من خلال تقارير القتال اليومية التي يتلقاها من القادة الميدانيين ويصدر بناء عليها تعليماته وكان يوافق على قرار القائد الميداني المخالف لقراره في المواقف الطارئة.

هـ- كان دائمًا يتخذ القرار الملائم في التوقيت المناسب، وساعده على ذلك السيل الدائم التدفق من المعلومات من قائد الجبهة إلى القائد الأعلى بالمدينة.

و- أصبح إعادة حشد القوات الداعمة ودفعها إلى جبهات القتال بعد تدريبها يتم وفق تخطيط ناجح.

٤- تعتبر مرونة القيادة والسيطرة عنصرا هاما لنجاح خطة العمليات فلابد من مشاركة القادة الميدانيين في ابتكار الأساليب والوسائل لتنفيذها على الأرض بل وتطويرها بما يناسب المواقف الطارئة بمعنى أن التفاعل والتعاون بين المستويين الاستراتيجي المتمثل في القيادة العليا، والتكتيكي المتمثل في القيادات الميدانية أمر مطلوب وضروري وهو ما عبر عنه «أ. منير شفيق» بقوله «حين يراجع المرء حروب الفتوحات الإسلامية يندهش فعلا من عظم الدور الذي كانت تلعبه القيادات الأدنى، والكوادر التي على رأس المجموعات الصغيرة، ومن قيادة العمليات على أساس الاعتماد على المبادرات الاستراتيجية والتكتيكية للقيادات الأدنى، ومن الجمع الخلاق بين المركزية واللامركزية»(١٧١) هذا التناغم والتكامل بين القيادة العليا بالمدينة والقيادات

«١٧١» ص ٢١٢.

الدنيا بالجيوش، والذى كان من أهم أسباب النصر، لم يستوعبه «جلوب» فأغفل دور القيادة العليا وظن أن القيادات الدنيا كانت وحدها من يدير دفة الحرب، فقال (فى خلافتى أبى بكر وعمر لم يكن هناك تخطيط عسكرى من مقر القيادة العليا فى المدينة، وصحيح أن الخليفة كان يوافق على كل زحف أو حركة إلى الأمام ولكنه لم يكن يرسم خطة هذه الحركة، وكانت الجيوش وحدها أو القبائل فى كل منطقة من المناطق هى التى تضج مطالبة بالاندفاع أو الزحف ولكن كثيرا ما كان الخليفة يرفض الموافقة على تقدم جديد يلحف بطلبه القادة المحليون)(١٧٢) ولعل «جلوب» يشير إلى قرار قادة فتح الشام بالانسحاب من المناطق التى فتحوها لإعادة حشد قواتهم، وكان قرارا يخالف قرار الخليفة وقد وافق عمر على قرارهم ودعمه، باعتبار أنهم أدرى بالوضع العسكرى على الأرض وضيق الوقت والحاجة إلى اتخاذ قرار فورى وقد أثبت تصرف الخليفة مبدءا هاما وهو أنه يجب على «القيادة السياسية» عدم التدخل فى القرار العسكرى فى ظروف بعينها ولقد شهدنا فى الزمن المعاصر كيف تسرب النصر من بين أصابع الجيوش عندما تدخلت القيادات السياسية فى فرض رؤيتها دون احترام لرأى القادة العسكريين.

٥- دأب الجنرال «جلوب» على نفى وإنكار، أن المسلمين كانوا يقومون بتدريب قواتهم. إن أسلوب قتال المسلمين الذى ذكره «جلوب» مندهشا، حيث كانوا يثبتون رماحهم فى الأرض ويلبسون الدروع لبناء حائط حديدى لصد هجوم عدوهم ثم تقدمهم فى القتال شبرا شبرا وسيطرتهم على فرسانهم وسلامة صفوفهم، ما هو إلا دليل كاف لإثبات أنهم كانوا على مستوى

«١٧٢» ص ٥٤١.



عال من التدريب وعندما بدأ حشد جيش المسلمين حول المدينة لدفعه إلى القادسية، جرى تدريبه لعدة شهور، وعندما تحرك روصل إلى منطقة «شراف» بالعراق أعيد تنظيمه وتدريبه.

٦- لقد نصح أمير المؤمنين قادته الميدانيين بالأخذ بمبدأ هام، هو هزيمة العدو معنويا قبل هزيمته ماديا، وقد اتبع في ذلك سنة النبي (ﷺ)، وقد التزم به «عمرو بن العاص» في فتحه لمصر من خلال امتلاك المبادأة والمحافظة على معدل الهجوم لإرباك العدو وهزيمته وهي حقيقة تجاهلها «جلوب» تماما كأحد أسباب انتصار المسلمين.

٧- عمد أمير المؤمنين عمر إلى تكوين مراكز تجمع لحشد القوات في مناطق متوسطة بعيدة عن المناطق المأهولة بالسكان، يستطيع جيشه العمل منها وبسرعة في جميع الاتجاهات وكان ذلك أحد الأساليب المبتكرة لتأمين مسارح العمليات في جبهة الشام وفارس.

٨- كان مدى الاهتمام لدى القيادة العليا، يعكس مسارعة الخليفتين «أبي بكر» و«عمر» وإصرارهما على تولي قيادة الجيش بنفسيهما وخروجهما من المدينة إلى مناطق حشد القوات ولم يثنهما عن عزمهما سوى نصيحة الصحابة لهما بأن بقاءهما بالمدينة لإدارة شئون الدولة وتعيين قادة ميدانيين لتلك الجيوش هو الأولى والأوفق.

٩- كان إنشاء أمير المؤمنين عمر «ديوان الجند» معلما هاما في بداية بناء الجيش الإسلامي وهو أمر، رغم أهميته، لم يعلق عليه «جلوب» ولم يوفه حقه، ولكنه أبدى دهشته فقال «لعل مما يثير الدهشة أن تستطيع هذه الإدارة -يقصد الإسلامية- غير المتعلمة السير في مثل هذا النظام المعقد بنجاح»(١٧٣).

١٧٣، » ص ٣٣٥.

الفصل العاشر

رأى «جلوب» فى قادة الفتح من الصحابة الكرام

قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(آل عمران: ١١٨)

﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(آل عمران: ١٨٦).

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(آل عمران: ٧١).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

(التوبة: ١٢٣).

إن التوجه الاستشراقى الذى صاغ رؤية الجنرال «جلوب» للإسلام ولنبى الإسلام، كما ذكرت فى الفصل الأول، انعكست آثاره بشدة على آرائه فى قادة الفتح من الصحابة الكرام سواء على مستوى القيادة العليا بالمدينة المنورة أو على المستوى الميدانى.. ولم يضيع «جلوب» فرصة واحدة للطعن فيهم

وتجريحهم معتمدًا في ذلك على ما ورد في بعض المراجع المشبوهة. ولقد تناثرت آراؤه على صفحات كتابه بشكل متقن وبصيغ مختلفة وبإلحاح غريب، حتى تنطبع في وعي القارئ دون أن يشعر. ولقد تراوح طعنه فيهم، بين النيل من كفاءتهم القتالية وبين تجريح لصفاتهم الشخصية وصلت أحيانًا إلى التشكيك في درجة إيمان بعضهم بالإسلام. لن يكون في مقدورنا عرض هذا الكم الكبير من التطاول على الصحابة، ونكتفي بعرض بعضها، على المستويين الأعلى والأدنى.

أولاً: على مستوى القيادة الأعلى:

بداية، يصف «جلوب» الخليفتين أبا بكر وعمر، فيقول (كان الرجلان متفقين في خصلة واحدة على الأقل. وهي تصميمهما المطلق على اتباع سنة الرسول في كل تفصيل من تفاصيلها.) (١٧٤) وقال عن دورهما في تولي القيادة العليا (في خلافتي أبي بكر وعمر لم يكن هناك تخطيط عسكري من مقر القيادة العليا في المدينة) (١٧٥) ويفسر وصفه لهما باتباع سنة النبي ﷺ، بقوله (وعلينا أن نذكر على أي حال أن النبي وأقرب صحابته إليه كانوا يعتمدون في الوصول إلى النصر على المعونة الإلهية أكثر من اعتمادهم على البراعة البشرية)(١٧٦) ثم حوى كتابه بعض التلميحات التي تشير إلى أنه يرى اتباعهما لسنة الرسول ﷺ كانت نوعًا من الجمود، ثم تتابعت آراؤه في كل منهما.

رأيه في أبي بكر الصديق:

يقول «جلوب» (لكن أبا بكر لم يكن من رجال السياسة الأفذاذ، ولا من الذين تتجه طبائعهم إلى الفتح، بل كان رجلا

«١٧٤» ص ٢٣٩. «١٧٥» ص ٥٤١. «١٧٦» ص ٢٣٤.

بسيطًا متواضعًا، كرس نفسه لذكرى نبيه ولخدمة دينه) (١٧٧).

لم تكن رقة الصديق وتواضعه بحال على حساب حزمه وحكمته، وكان اتباعه الصارم لسنة النبي ﷺ دليل قوة وليست دليل ضعف وجمود. فقد كان قراره الحاسم بشن الحرب على المرتدين، دليلا على حزمه وبعد نظره. وقد رأينا كيف كانت إدارته لتلك الحرب هي البذرة الأولى لبناء العقيدة العسكرية الإسلامية «للحرب المتحركة».

يقول «أ. عباس محمود العقاد» في كتابه (العبقريات الإسلامية)(١٧٨)، (إن الدولة الإسلامية تأسست في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، لأنه وطد العقيدة وسير البعوث فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الردة، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح، فكان له السبق في خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين). ويقول (إن بعثة أسامة كانت العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية هي في ذلك الحين خير السياسات. كان قوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله) (١٧٩). فلولا هذه البعثة لطمعت قبائل غسان وقضاعة في المسلمين ولأغرت الروم بالانقضاض على الدولة الإسلامية وهي ما تزال في مرحلة نشأتها.

ومع ذلك فإن «جلوب» يلوي الحقيقة ويحولها إلى مجرد عمل من أجل الأخذ بالثأر، فيقول (وكانت معركة مؤتة وحملة أسامة الثأرية، هما استهلال هذه الحركات الحربية)(١٨٠).

فهو يحاول الإيهام بأن «أسامة» خرج قاصدًا الثأر ممن قتل

«١٧٧» ص ١٩١. «١٧٨» ص٣١٢. «١٧٩» ص ٣١٤.
«١٨٠» ص ٢٠٤.



أبـاه «زيد» فى معركة مؤتة- وهو تبرير سـخيف، لأن قاتل «زيد» كان قـد قُتـل بالفعل فـى المعركة ولـم تكن هناك حاجـة للثأر- حـاول «جلوب» إظهار الصديق وكأن هدفـه من الحرب هو جمع الغنائـم، وأنها كانت وراء قـراره بدخول العراق وهو القرار الذى وصفـه «جلوب» بالعفوى.. عندما طلب «المثنى بن حارثة» دعم الصديق له فى قتاله بالعراق، يعلق «جلوب» قائلا (وقصد المثنى المدينة حيث حصل علـى موافقة الخليفة، ولما كان الخليفة قد تسلم خمس الفىء من الغنائم والسبايا، فإنه لم يعترض على هذه الغارات التى لم تكن فى مخططه) (١٨١). ولقد أثبتت الأحداث عكس ما ذكره «جلوب»، فقد أجل الصديق فتح السـواد بالعراق لحيـن الانتهاء من حـرب الردة، وكلـف «خالدا» بهـذه المهمة بالتنسـيق مع «المثنى» وعندما استشعر الصديق الخطر من جهة الروم، وقرر البدء بحملة الشـام، أرسـل أربعة ألوية بحسب قول أكثـر المؤرخين، بينما قال البعض إنهـا ثلاثة. نجد أن «جلوب» يعلق على ذلك بقوله (ولم يوضح لنا مؤرخو العرب السـبب فى شـطر الجيش الذى توافر للخليفة إلى ثلاثة جحافل، ولعل افتقار الطريـق الصحراوى إلى المـاء والنقاط التى يتوفـر فيها قد حتم علـى الخليفـة أن يبعـث قواته على ثـلاث دفعات. ولعـل افتقار هـذه الطريق أيضًا إلى المؤن نظرًا لعـدم وجود نظام للتموين هو السبب، أو لعل ما يحس به القادة من حسد لبعضهم البعض ورغبة الواحد منهم عن العمل تحت قيادة سواه، كان السبب الصحيـح. ومـن المنطـق كل المنطق أن يرى الإنسـان فى تقسـيم أبى بكر دليـلا على أن تفكيره لم يكن متجهـا إلى الفتح والاجتياح وإنما اتجه إلى الغزو والإغارة. لكن أساليب القتال عند العرب، كانت

«١٨١» ص ٢٠٣.

من النوع العفوى العارض فى هذه الآونة..) (١٨٢) لقد سار المسلمون إلى غزوة تبوك فى نفس الطريق وكانت قوتهم حوالى ٣٠ ألف رجل، وهو ما يسقط حجة عدم توفر الماء والتموين.

ولقد أثبتت الأحداث خطأ «جلوب» فى استنتاجه بأن تقسيم الجيش دليل على عدم النية للفتح، وقد شرحنا كيف كان هذا الأسلوب تطويرًا لفكرة «الحرب المتحركة» أما ادعاء «جلوب» بشيوع التحاسد بين قادة الفتح، فمردود عليه بما ورد فى كل مراجع التاريخ، لقد خدم كل القادة تحت إمرة «خالد بن الوليد»، كما أن «خالدا» نفسه استمر فى القتال تحت إمرة «أبى عبيدة بن الجراح» بعد أن عزله «عمر». لقد أرسل «أبو بكر» كتابًا إلى «أبى عبيدة» عندما ولى «خالدا» بدلا منه يقول فيه (أما بعد فإنى قد وليت خالدا قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له وأطع أمره، فإنى وليته عليك، وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد، والسلام عليك ورحمة الله)(١٨٣).

هذا نموذج رائع لأسلوب القيادة الرشيدة. وتستكمل الصورة التى توضح حقيقة العلاقات بين القادة من الصحابة، بكتاب «خالد» إلى «أبى عبيدة» لنفس الحدث، يقول فيه (والله ما طلبت ذلك ولا أردته، ولا كتبت إليه فيه ـ يقصد الخليفة ـ، وأنت ـ رحمك الله ـ على حالك التى كنت بها لا يعصى أمرك، ولا يخالف رأيك، ولا يقطع أمر دونك، فأنت سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك، ولا يستغنى عن رأيك..) (١٨٤) فأين بعد ذلك التحاسد والغيرة التى ذكرها «جلوب»؟

أما عن صفات الصديق كقائد عسكرى والتى ينكرها

«١٨٢» ص ٢٠٤ – ٢٠٥.   «١٨٣» ص ١٤٢.   «١٨٤» ص ١٤٢.



«جلـوب» ، فيكفـى أن أعرض وصيـة الصديق لخالد بـن الوليد ـ وهو العسـكرى المحنك ـ عندما بعثـه لحرب المرتدين ، ذكرها «العقـاد» فى كتابه (إذا دخلت أرض العدو فكن بعيدًا من الحملة فإنـى لا آمـن عليك الجولـة ، واسـتظهر بأفراد ، وسـر بالأدلاء ، وقـدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسـر فى أصحابك على تعبئـة جيدة واحرص علـى الموت توهب لك الحيـاة ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة . . وإذا لقيت أسـدًا وغطفان فبعضهم لك ، وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص دائرة السـوء ينتظر لمن تكون الدبـرة فيميل مع من تكـون له الغلبة ، ولكـن الخوف عندى من أهـل اليمامة ، فاسـتعن بالله على قتالهم ، فإنـه بلغنى أنهم رجعوا بأسـرهم ، فإن كفـاك الله الضاحية ، فامض إلى أهل اليمامة ، سـر على بركة الله)(١٨٥) كان الصديق على علم كامل بموقف العدو ونوايـاه ويقـدر الموقف بشـكل سـليم ويتخذ القرار المناسـب ويحدد المهمة الرئيسية للقائد . ولقد رأينا فى الفصول السابقة ، أن الصديق كان يسـتعين بمشـورة «مجلس الحرب» المكون من الصحابة الكرام .

رأيه فى عمر بن الخطاب:

انتهج «جلوب» أسـلوبًا مغايرًا تمامًا للطعن فى أمير المؤمنين عمـر ، فبعد أن يتحدث عن صفاته الشـخصية ، يتجاهل بالكامل الحديـث عـن أى دور للخليفة طـوال معارك الفتـح على جبهتى الفرس والـروم . يصف «جلوب» أمير المؤمنين عمر بقوله (كان ذا مـزاج حاد ، ميالا إلى الإغراق فى الحديـث والعنف والاحتدام فيه ، وأكثر تعلقا بالصرامة منه باللين . .)(١٨٦) .

«١٨٥» ص ٣٣٠ العبقريات. «١٨٦» ص ٢٣٩.

أخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك» وأخرج أحمد والبزار عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» وأخرجه الطبراني (١٨٧)، وغير هذه الأحاديث الكثير، وكلها توضح لماذا كره «جلوب» «ابن الخطاب»، كما أن «جلوب» يطعن في أسلوب اختيار «عمر» لقادة الجيش وبأن اختياره كان بمعيار إيماني محض بعيدًا عن معيار الكفاءة القتالية.

فعن اختيار «عمر» أبا عبيدة لتولي القيادة بدل «خالد بن الوليد» يقول «جلوب» (ومن المحتمل أن يكون الخليفة بإيمانه البسيط غير المعقد قد اعتقد أن النصر أكثر ضمانة على يد قائد مثل أبي عبيدة، وإن لم تكن كفايته العسكرية بارزة، منه على يد عسكري بارز كخالد بن الوليد يفتقر إلى التقى والورع مما لا يجعله موضع عناية الله ورعايته) (١٨٨). فهو بعبارة واحدة طعن في الجميع، في عمر بحجة سوء اختياره لبساطة إيمانه، وفي أبي عبيدة بحجة افتقاره إلى الكفاءة القتالية، وأخيرًا الطعن في إيمان خالد وورعه!! لقد أرسل «عمر» كتابًا إلى الأمصار قال فيه (إني لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة) (١٨٩)، لقد خشي «عمر» على الناس من الفتنة كما خشي على خالد نفسه من الغرور، وكان واثقًا في نفسه من كفاءة خالد ويريد الإفادة منه، لذلك تضمن كتابه

«١٨٧» السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ١١٧.

«١٨٨» ص ٢٣٤.   «١٨٩» ص ١٤٦.



الـذى أرسله إلى «أبـى عبيدة» أثنـاء حصار دمشـق، قوله (ومن احتجـت إليـه فى حصـارك فاحتبسـه - أى اجعله معـك - وليكن فيمـن يحتبس خالد بن الوليد، فإنه لا غنى بك عنه)(١٩٠) لكن «جلوب» يتمادى فى عدائه الواضح للخليفة، فيقول (المؤرخون المسـلمون يتحدثون كثيرًا، ولهـم كل الحق فى ذلك، عن ورعه وتواضعـه وتفانيه فى أداء واجبه، ولكننا لم نسـمع من أى منهم عـن مزاياه القيادية ولكننا نراه يرسـل أكثر من مرة، رسـائل إلى قادته الظافرين المنتصرين، وهم على رءوس جيوشهم فى أمصار نائية يأمرهم بتسليم قياداتهم إلى غيرهم، والتخلى عن نصف ما يملكونه إلى بيت مال المسـلمين)(١٩١) ويقول (ومن الصعب علينـا أن نتجنـب الانطباع الـذى تولد لدينا بـأن عمر كان كثير الشـكوك فـى مسـاعديه، وكان يغار منهم ولـذا كان يرحب بأية شـكاوى تصـل إليه، ليتخذ منهـا مبررًا لعزلهـم)(١٩٢) ويقول (هـل كان عمر بـن الخطاب يحـس بالغيرة الشـخصية من كبار قادته العسـكريين الناجحيـن؟ لا ريب فـى أن معاملته لخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، وسـعد بن أبى وقاص وأخيرًا لعمرو بن العاص، يمكن أن تعتبر دليلا على صحة هذا الاسـتنتاج)(١٩٣) كان اقتسام «عمر» لأموال بعض القادة لسبب، فقد كانت مصلحة المسـلمين عنـد «عمر» تعلو فوق غيرها، وكان أكثر ما يخشـاه ظهور الفسـاد إذا ما اكتسـب الولاة مالا بغير حـق. فالمكاتبات التـى جرت بين «عمر» وواليه على مصر «عمرو بن العاص» تبين ذلك (كتب عمر إلى عمرو بن العاص: «إنه قد فشـت لك فاشية من متاع ورقيـق وآنية وحيوان لم تكن حين وَليت مصر»(١٩٤)،

«١٩٠» ص ١٤٧. «١٩١» ص ٤١١. «١٩٢» ص ٤٤٤.
«١٩٣» ص ٤٠٢. «١٩٤» ص ٢٠٢.

فكتب إليه عمرو: «إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج إليه لنفقتنا» (١٩٥)، فكتب إليه عمر: «إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى، وكتابك إلى كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظنا، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعة وأخرج إليه ما يطالبك، وأعفه من الغلظة عليك فإنه قد برح الخفاء» (١٩٦) لقد كان من مفاخر المسلمين، أن أول من طبق مبدأ «من أين لك هذا» كان «عمر».

لقد ذكرت من قبل، أن «جلوب» استند إلى اقتسام عمر لأموال ولاته كي يثبت رأيه بأن العامل الاقتصادى لم يكن سببًا للفتح، ثم وصف المجتمع الإسلامي بالعظمة، وقارن بينه وبين الفساد الذى كان يعم الإمبراطورية الرومانية، ثم خرج بنتيجة (تتبين لنا الحقيقة الناصعة فى أسباب انتصارات العرب العظيمة) !!(١٩٧) عجيب أمر «جلوب»، فهو يناقض نفسه بنفسه.

وتأتى حادثة اتهام «المغيرة بن شعبة» بالزنا، فيسهب «جلوب» فى سرد تفاصيلها، ثم يقول (وأفضى ثلاثة من الشهود بشهادتهم أمام عمر بن الخطاب، ولم يبق إلا رابعهم «زياد»، وعندما استدعى زياد إلى الخليفة هتف به قائلا: إنه يرى فى وجه هذا الرجل الأمل بنجاة أحد صحابة رسول الله من الرجم حتى الموت، ونجاة سمعته من المساس. وقد وجد زياد بعد هذه الإشارة الواضحة أن من الخير له أن يعدل عن شهادته وأن يظهر عدم تحققه من التهمة وشكه فيها. وهكذا أعلن الخليفة براءة عامله من التهمة..)(١٩٨) وهكذا، من خلال الهمز واللمز

«١٩٥» ص ٢٠٣. «١٩٦» ص ٢٠٣. «١٩٧» ص ٣٧٩ – ٣٨٠.
«١٩٨» ص ٣٢٢ – ٣٢٣.



يحاول «جلوب» الإيحاء بأن التهمة صحيحة، وأن عمر المشهود بعدله أوصى للشاهد كي يغير شهادته، ثم طعن فى صدق الشاهد. جملة من الطعن والتجريح لأكثر من صحابى، لسرد حادث ليس له علاقة بالفتوحات من قريب أو بعيد. ويتجاهل «جلوب» ذكر أى دور لعمر، ولا يذكره إلا عندما ذهب لتسلم مدينة القدس، وأفاض فى وصف امتعاض الخليفة من قادة جيشه ولومه لهم بسبب أزيائهم المترفة، وفى نهاية الأمر، لعل «جلوب» استشعر بعض الحرج فى تجاهله للخليفة الذى أنجز الفتح وحقق النصر، فيقول فى حقه فقرة قصيرة (تحققت فى أيامه أعظم الفتوحات الإسلامية الضخمة.. وهكذا تمكن عمر من أن يخلف للأجيال القادمة أثرًا لا يمحى فى تاريخهم)!!(١٩٩).

ثانيًا: على مستوى القيادات الميدانية والجيوش:

رأى «جلوب» فى «خالد بن الوليد»، «عمرو بن العاص»:

يبدأ «جلوب» بالتشكيك فى إيمان «خالد» فيقول (لقد كان خالد قائدًا عظيمًا وذا كفاية وجرأة قادرًا على تسلم زمام المبادرة فى كل حين، وعلى احتمال المسئولية، ولكن قيل عنه إن الإسلام لم يكن عميقًا فى نفسه، ويُقال إنه حصل من النبى قبل وفاته على خصلة من شعره وضعها فى غطاء رأسه، وكان يعزو نجاته من جميع المعارك التى خاضها إلى هذه الرقية. وقد يكون هذا العمل منه إيمانًا بالخرافات أكثر منه بالتدين ولكنه يُظهر على أى حال إيمانًا عميقًا ومخلصًا للرسول ﷺ)(٢٠٠) يحاول «جلوب» التلميح بأن خالدًا كان ينافق فيظهر غير ما يبطن، وكان إيمانه أقرب إلى تصديق الخرافات منه إلى التصديق. و«جلوب» يداوم على هذا النهج من التلميح، فعندما وقعت معركة مؤتة

«١٩٩» ص ٣٣٥. «٢٠٠» ص ٣٣٤.

وقتل زيد وجعفر وابن رواحة وتولى خالد القيادة، يعلق «جلوب» بقولـه (وكان أكثر خبرة فى القيادة العسـكرية من زيد أو جعفر وقد يكون أقل تشوقًا منهما إلى الجنة) (٢٠١) وقد ذكرنا تعليق «جلوب» عندما اختار «عمر» أبا عُبيدة بدلا من خالد حيث وصفه (يفتقر إلى التقي والورع).

ثم، يبـذل «جلوب» جهده كي يسـتخرج الأخبار التى تؤيد رأيـه، فيذكر قصة اسـتحمام خالد فى حوض مـن النبيذ ويقول (وفـى المحتمل ألا يكون خالد رجـلا متدينا ومن المحتمل أن يكـون قد بات صاحـب ثراء، وبنى بعدد مـن الزوجات واقتنى عـددًا مـن الجوارى، وقد تكـون رواية حـوض النبيذ صحيحة، ولكـن هـذا لا يضيره فى شـىء فإليه يرجع الفضـل الأكبر فى إخراج الروم من سورية.. ويبدو أن شهرته أصبحت ضخمة إلى حد الخطر..)(٢٠٢).

لاشك أن بعض تصرفات خالد أغضبت أبا بكر وعمر، فعندما تزوج بابنـة «مجّاعة بن مرارة» أثناء حرب الردة، غضب الصديق وأرسل إليه كتابًا قال فيه (لعمرى يا بن أم خالد، إنك لفارغ تنكح النساء، وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجف بعد)(٢٠٣). إلا أن أبا بكر عندما كلف خالدًا والمثنى بالمسـير إلى العراق، أرسـل كتابًا إلى المثنى كي يسـتقبل خالدا ومن معه وأن يدعمه ولا يعصى له أمرًا مبررًا ذلك بقوله عن خالد (فإنه من الذين وصف الله تبارك وتعالى فى كتابه فقال:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ (الفتح: ٢٩)

«٢٠١» ص ١٣٥. «٢٠٢» ص ٣٢٠. «٢٠٣» ص ١١٩.



فمـا أقـام معك فهـو الأميـر) (٢٠٤) فتلك شـهادة لخالد من الصديق لها وزنها.

ذكـر الطبرى أنه عندما نشـبت معركة اليرمـوك، التحق أحد قـادة العـرب المواليـن للروم بالمسـلمين هو «جرجـة بن توزر» وقد أسـلم، ودار بينه وبين خالد حوار، قـال فيه جرجة (يا خالد اصدقنى ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخـادع المسترسـل بالله: هل أنـزل الله على نبيكم سـيفًا من السـماء فأعطاكـه فلا تسـله على قوم إلا هزمتهم قـال: لا، قال: فبم سـميت سـيف الله؟ قال: إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانـا فنفرنـا عنه ونأينا عنه جميعًا ثـم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنـا باعده وكذبه فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ثم إن الله أخذ بقلوبنـا ونواصينا فهدانا به فتابعناه. فقال: أنت سـيف الله بذلك فأنا من أشـد المسلمين على المشركين) (٢٠٥) بعد هذا الحـوار، لا يمكن القول بأن خالدًا كان ممن يؤمنون بالخرافات. لقد قـام «خالد» بعد أن أنجز مهمته بالعراق، بالذهاب سـرًا إلى الحـج دون إخطـار الصديق أو إخبار جيشـه، ثم عاد سـريعًا بعد أن أتـم الحـج، وقد عنفه أبو بكر بعد أن علـم، وحذره من تكرار ذلك. وهذا بجانب شهادة الصديق له بالإيمان، كافيان للرد على تلميحـات «جلـوب». يقول «جلـوب» (لعل مـن الصحيح أيضًا أن أكثـر القادة العسـكريين نجاحا كخالد بـن الوليد مثلا كانوا أكثر الناس قسـوة وخلـوا من الرحمـة) (٢٠٦) وهو وصف امتد ليشـمل العديد من قادة المسـلمين زورا مثل «عمرو بن العاص» عندما اتهمه «جلوب» بهدم الكنائس وذبح سكان المدن وسلب

«٢٠٤» ص ١٢٠ – ١٢١.

«٢٠٥» الطبرى ص ٣٥ جـ ٤.

«٢٠٦» ص ٤٦٥.

الأموال وحرق المزروعات ثم وصفه بقوله (وواصل عمرو السير في سياسة الغلظة والشدة مع أهل مصر إما استجابة لطبيعته الشخصية الشرسة المتغطرسة أو تطبيقا لسياسة اختطها لنفسه وهي أن يزيد من العنف لينشر الذعر في قلوب الناس ويحول دون أية مقاومة جديدة)(٢٠٧).

رأى «جلوب» في مناورة «خالد» من العراق إلى الشام:

على الرغم من الشهرة التي نالتها مسيرة «خالد» من العراق إلى الشام، كأحد الصور الرائعة للمناورة بالقوات، فإنها لم تسلم من طعن «جلوب». قام خالد تنفيذًا لأمر الصديق بالتحرك بنصف قواته من العراق إلى سوريا لدعم المسلمين بالشام، قال «جلوب» عن «خالد» (قام بحركة التفاف واسعة باتجاه الشمال عبر الصحراء قاطعًا نحوًا من مائتي ميل في أرض لا ماء فيها، عبر أرض صحراوية مسطحة.. وقد اتبع خالد قبل مغادرته «قراقر» طريقة مازال البدو يلجأون إليها حتى يومنا هذا)(٢٠٨)، ويقصد «جلوب» قيام خالد بتعطيش مجموعة من الإبل ثم إروائها بشدة كي تحمل الماء في بطونها فيذبحها بالتوالي أثناء المسير لتوفير اللحم للجند والماء للخيل وبذلك ينقذ جيشه. و«جلوب» يهون من شأن ما قام به خالد، رغم أنها كانت فكرة فذة لم يسبقه إليها أحد، ثم يضيف (اتجه خالد بعد ذلك إلى «تدمر» فهاجمها واستولى عليها ثم استدار غربًا نحو «القريتين» ويمكن مع اتجاهه جنوبًا نحو «دمشق» أخذت أنباؤه تصل إلى الروم واشتبك مع العدو في معركة «مرج راهط».. وعاد فاتجه جنوبًا ملتفًا حول سفوح «جبل حوران»

«٢٠٧» ص ٣٥٣. «٢٠٨» ص ٢٠٨.



حيث اتصل بجيوش المسلمين فى «درعا»(٢٠٩) وبينما يجمع المؤرخون على انتصار خالد فى معركة «مرج راهط»، فإن «جلوب» خالفهم وقال (لكننى أرى أن هذا الادعاء يفتقر إلى الإثبات والدليل.. ولعل التفسير المعقول للعملية كلها هو أن خالدًا قام بحركة التفافه هذه ليهدد دمشق ويرغم جيش الروم على ترك مواقعه الدفاعية فى درعا ولو كان خالد قد انتصر فى مرج راهط لحتم عليه الموقف العسكرى أن يقترب من دمشق فيرغم الروم على التراجع من درعا. ولا ريب فى أن اتجاهه جنوبًا بعد مرج راهط وتخليه عن خطته الأولى يشير إلى أنه أصيب بنكسة فى مرج راهط)(٢١٠) ويعطى «جلوب» مثالا معاصرًا ليثبت رأيه، وهو مهاجمة القوات البريطانية والأردنية للفرنسيين فى نفس المكان وبنفس الأسلوب، ويقول (ولا ريب أن هذه العملية صورة طبق الأصل من عملية خالد الالتفافية.. لكنها تختلف عنها فى أنها نجحت بينما فشلت عملية خالد)(٢١١).

والواقع أن تحليل الجنرال «جلوب» غير سليم لعدة أسباب:

١ ـ لم تكن خطة خالد تستهدف تهديد دمشق لإرغام جيش الروم على الانسحاب من مواقعه الدفاعية بدرعا، كما تصور «جلوب» فقد كان لخالد هدف محدد هو الوصول بقوته بأقصى سرعة ممكنة إلى جيش المسلمين فى درعا، لدعمهم وتولى القيادة وذلك طبقا للمهمة التى حددها له الصديق فى كتاب تكليفه بالمهمة حيث قال:

(سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك، فإنهم شجوا

«٢٠٩» ص ٢٠٩. «٢١٠» ص ٢١٠. «٢١١» ص ٢١٢.

وأشـجوا) . (٢١٢) فقد كان جيشـا المسلمين والروم متواجهين في حالة تشبه الجمود لا يسـتطيع أى منهما القيام بعمل مؤثر . والأدلة على ذلك كثيرة منها :

أ ـ كانت أمام خالد عدة طرق للمسير من الحيرة إلى اليرموك ، وقد تعمد اختيار أصعبها وأكثرهـا وعورة وجفافا ، قاصدًا تفادى الطرق الأخرى التى من المتوقع أن يشـتبك فيها مع قوات الروم ، حتى لا يتأخر عن قوات المسلمين باليرموك .

ب ـ قطع خالد مسافة السير من قراقر إلى سوى فى خمسة أيام بمعدل سـير ١٠٠ ميـل / يوم أى أنه نفذ مسـيرًا اضطراريا كما يعرفه العسـكريون ، وهو أمر رائع بمقياس ذلك الوقت ، مما يدل على حرصه على الوصول إلى المسـلمين بأسرع ما يمكنه حيث إن عامـل الوقت كان فى مقدمة أولوياته ولو على حسـاب إجهاد قواته .

جـ ـ كانت قـوة خالد التى نفـذ بها مسـيرته ٩ آلاف مقاتل ، ولـم يكـن من الحكمة الدخـول بهم فى معركة مـع قوات كبيرة للـروم . ولابـد وأن خالدًا قـد وصلته معلومات عـن قيام «هرقل» بحشد جيش ثانٍ فى أنطاكية لدعم جيشه الأول المحتل لدفاعات درعـا قرب اليرموك ، وغالبًا سـيتم جلب الجيش الثانى وحشـده جنوبًا من سواحل فلسطين . وبالتالى فإن ظهر خالد سوف يكون مكشـوفًا إذا مـا التحم فى قتال مـع الجيـش الأول ، وهو خطأ لا يمكـن أن يرتكبه قائد محنك مثل خالد . لذلك فإنه ما إن اقترب خالد من دمشـق حتى سلك طريق حوران تجنبا للاصطدام بقوات الروم الرئيسية ، وليس هربًا من نكسة لحقت به فى مرج راهط .

د ـ كانت تجربة «خالد بن سـعيد» مـا تزال قريبة عهد ، عندما

«٢١٢» ص ١٣٢.



غامر بمهاجمة جيش الروم الرئيسى بقواته القليلة مخالفًا بذلك أمر الصديق.

٢ ـ أرفق «المقدم ياسين سويد» فى كتابه (معارك خالد بن الوليد) (٢١٣) خريطة تبين مسيرة خالد بن الوليد، تختلف تمامًا عن الخريطة التى اعتمد عليها «جلوب» وأرفقها بكتابه كان الاختلاف بين الخريطتين راجعًا إلى الاختلاف حول الموقع الحقيقى «لقراقر». لقد اعتمد «المقدم سويد» على ما جاء فى كتاب «ياقوت الحموى» (معجم البلدان) وأيضًا «البلاذرى» بأن «قراقر»- وادٍ بالسماوة- أيضًا ماء لكلب ـ قبيلة كلب ـ على حدود العراق وبادية الشام من جهة العراق وبذلك وضح أن مسيرة خالد بدأت من «عين التمر» ثم «قراقر» ثم «سوى» وهو أيضًا ماء لكلب، ثم «قرقيسيا» و«أرك» ثم «دومة الجندل» ثم «تدمر» ثم «القريتين» ثم «حوران» ثم «مرج راهط»، حيث وقعت المعركة، ثم شرقى «دمشق» أو «الجابية» ولقد أخذ «المشير أبو غزالة» فى كتابه «الانتصارات العربية العظمى» بما توصل إليه «المقدم سويد» أما خريطة «جلوب» فقد أظهرت موقعًا آخر «لقراقر» على الحدود بين الجزيرة العربية والأردن وعلى الشرق من مؤتة وأعتقد أن الخريطة الأولى التى توصل إليها «المقدم سويد» هى الأصح والأكثر قبولا، وأن ذلك يفسر اللبس الذى وقع فيه «جلوب».

وأود أن أختتم بما ذكره «خالد بن الوليد» عندما عزله عمر، قال (لا أقاتل من أجل عمر، بل أقاتل من أجل إعلاء كلمة الله). كما علق «ل ـ أ. سيديو» على إذعان «خالد» لأمر الخليفة بعزله، فقال (فإذا أضفت إنكار الذات هذا وحب النظام هذا إلى ذلك

«٢١٣» ص ٢٣١

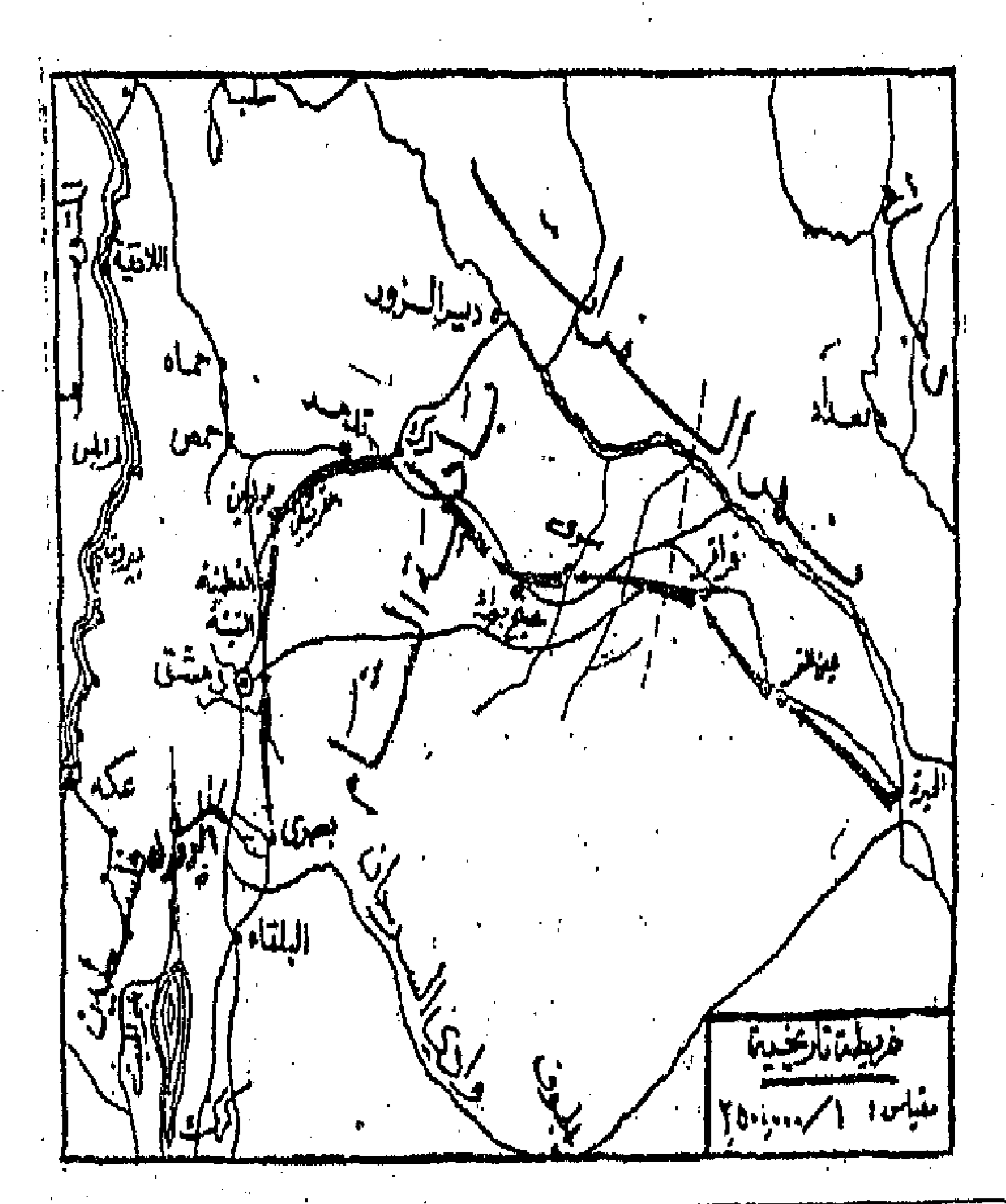
النبل العظيم قضيت العجب من أمر العرب الذين لقبوا بالبرابرة على غير حق)(٢١٤).

مسيرة خالد بن الوليد من العراق إلى الشام

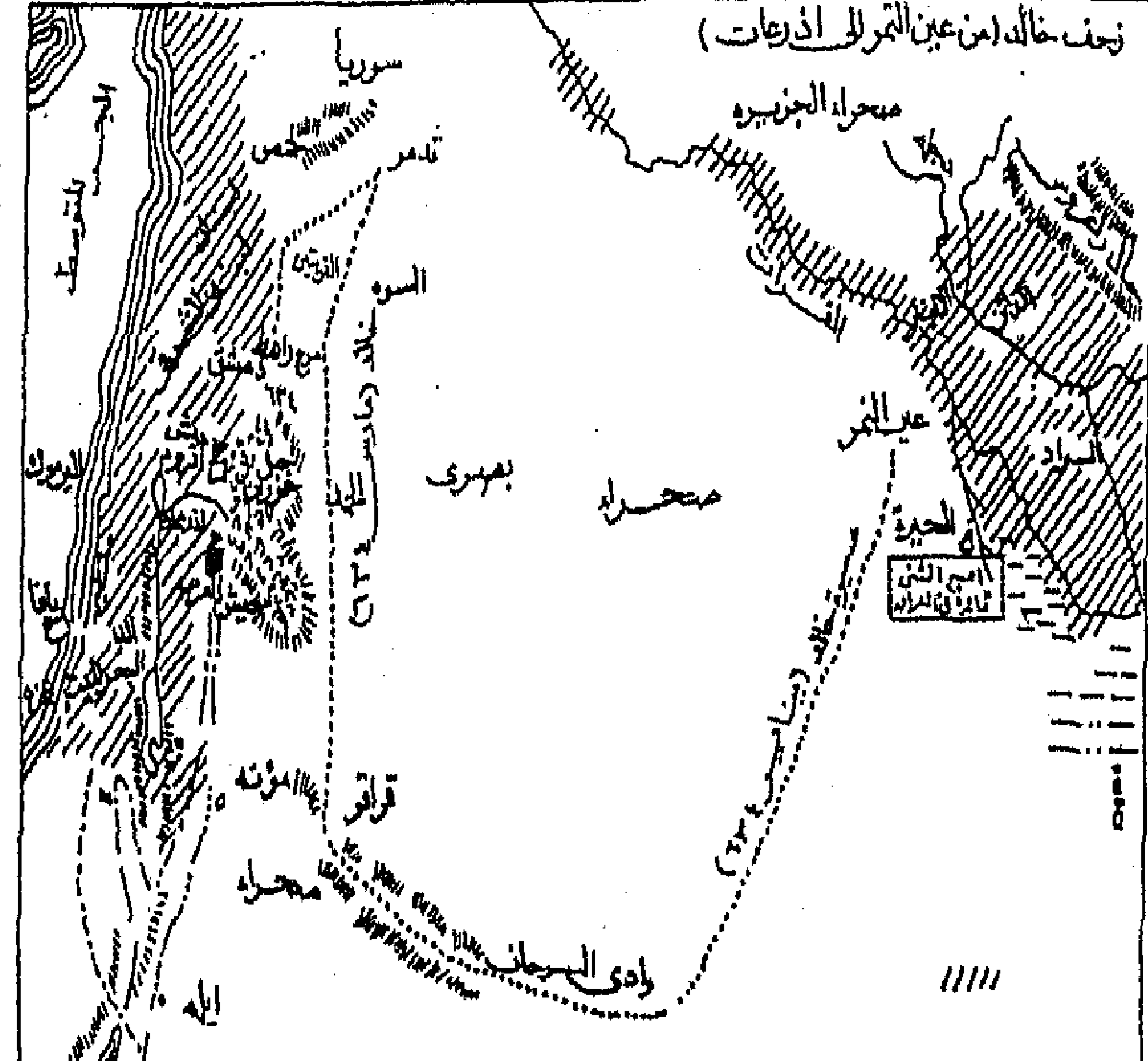
ذكر «البلاذري» (أن كتاب أبي بكر وافاه وهو «بعين التمر» وقد فتحها، فسار خالد فأتى «صندوماء» وبها قوم من كندة وإياد والعجم فقاتله أهلها فظفر.. ثم بلغ جمعا لبني تغلب ابن وائل «بالمضج» و«الحصيد» مرتدين فهزمهم.. ثم أغار على «قراقر» وهو ماء لكلب، ثم فوز منه إلى «سوى» وهو ماء لكلب أيضا ومعهم فيه قوم من «بهراء» من قضاعة.. خرج إلى «الكواثل» ثم أتى «قرقيسيا» ثم «أركة» وهي «أرك» فتحها صلحا ثم «دومة الجندل» ففتحها ثم «قصم» صالح أهلها ثم «تدمر» فأمنهم ثم «القريتين» وقد جاءهم مدد من «بعلبك» وأهل «بصرى» وهي مدينة حوران فقاتلهم وظفر وسبى ثم «مرج راهط» فأغار على غسان في يوم فصحهم وهم نصارى فسبى وقتل. ومنها وجه جزءًا من قواته إلى «غوطة دمشق» فأغارت على قرى من قراها. ووصل خالد إلى الثينة ونشر راية الرسول ﷺ (بتصرف).

«٢١٤» ص ١٢١.





(١)
خريطة المسيرة كما وردت بكتاب "المقدم ياسين سويد" (معارك خالد بن الوليد)



(٢)
خريطة المسيرة كما وردت بكتاب الجنرال "جلوب" (الفتوحات العربية الكبرى)

الفصل الحادى عشر

«جلوب» ومقولة نشر الإسلام بالسيف

مقدمة:

ادعى بعض المستشرقين والكتاب الغربيين أن الإسلام انتشر بالسيف، بينما خالفهم فى ذلك البعض الآخر. ذكر «ل. أ. سيديو» أن العرب بعد انتصارهم الأول (بحثوا عن انتصارات جديدة حاملين القرآن بإحدى يديهم والسيف باليد الأخرى) (٢١٥) كما قال «إدوارد جيبون» (فى الوقت الذى أنهكت فيه الحروب الفارسية الدولة الرومانية وفرّق الكنيسة نزاعها مع النساطرة وأتباع مذهب الطبيعة الواحدة، أقام النبى محمد والسيف فى يد والقرآن فى الأخرى عرشه على أنقاض المسيحية وأطلال روما)(٢١٦) بينما نفى آخرون تلك المقولة، ومنهم «يوليوس فلهوزن» حيث فسر قرار الصديق بالحرب بأنه لمنع الفتنة الداخلية بعد حروب الردة، فقال (وبدا أن خير وسيلة لرأب الصدع هو التوسع نحو الخارج، هذا التوسع الذى أعقب إخضاع التمرد الداخلى على الفور، وكان الجهاد، وهو حرب فى سبيل الله، وسيلة إلى جعل القبائل المتمردة تحرص على مصلحة الإسلام وجعلها ترضى به ولم يكن الجهاد لنشر الدين أكثر من ذريعة وتعلة للحرب)(٢١٧) بينما نفى «توماس. و. أرنولد» فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) فكرة نشر الإسلام بالسيف معللا نفيه لسبب آخر غير الذى ذكره «فلهوزن» والذى ذكره أيضا المستشرق «كارل بيكر» فى كتابه (تاريخ الشرق الأوسط) قال «أرنولد» نقلا عن المستشرق «كايتانى» (إن عدد المؤمنين فعلا

«٢١٥» ص ١٣٣. «٢١٦» ص ٧ جـ ٣. «٢١٧» ص ٢٣.



عـن حرية واقتناع في جيش الفتح من المسـلمين كان ضئيلًا جدًا وأن الكثـرة منهـم كان هدفهـم الحصول على الغنائـم وهذا دليل فى حد ذاته على أن الإسـلام لم ينتشر بالسـيف) أى أن الفاتحين الأول لم يكونوا على قدر من الإيمان يدفعهم لنشر الدين بل كانت الغنائـم هى هدفهم الوحيـد(٢١٨) يؤيد« جلـوب » رأى « كايتانى » فقال (كان معظم هؤلاء العتاة المتحمسـين من الذين نشـئوا على عبـادة الأوثـان . وكان كثيـرون منهم قـد ارتدوا عن الإسـلام قبل أربع سـنوات ، ولما كانت نسبة من يحسـن القراءة والكتابة فيهم ضئيلـة للغاية فإن معظمهم ولاشـك كان جاهـلا بتفاصيل الديانة الإسلامية)(٢١٩) وقد فندت هذا الادعاء فى فصل سابق وخلاصته أن أبا بكر منع من سـبق ردته من المشـاركة فى جيش الفتح ، كما أن القـرآن الكريم لم يكـن قد تم تدوينه حتى يتسـنى لهم قراءته وكان محفوظًا فى صدورهم . ولعل اسـتعراضا سـريعا لدور الدين فـى تحفيز الفاتحين والذى شـرحته مفصلا فى فصل سـابق كاف لإسـقاط ادعاء « جلوب » وغيره . كما أن مراجعة أسـباب الفتح فى فصـل سـابق تبين أن قرار الصديـق لبدء الحرب كان بعيـدًا تمامًا عمـا ادعاه كل من « فلهـوزن » و« كارل بيكر » لكـن « جلوب » نفى أن يكـون الحصـول علـى الغنائم هو السـبب الوحيـد ، فقال (لو كان هـدف العرب الوحيد عند اندفاعهم من شـبه الجزيرة العربية واحتلالهـم إمبراطورية الروم ، كسـب ما لديها مـن ثراء ، لتغيرت النتيجـة تمام التغير) ويضيف (ولكن العرب جاءوا وهم مقتنعون بأن دينهم الـذى حملوه جعلهم متفوقين علـى غيرهم . .)(٢٢٠) ولم يذكر « جلوب » فى كتابه صراحة أن الإسـلام انتشـر بالسيف ،

« ٢١٨ » ص ٦٣ – ٦٤. « ٢١٩ » ص ٣١٨.

« ٢٢٠ » إمبراطورية العرب ص ٢٧٢.

إلا أنه بأسلوبه المعروف ، سعى إلى إبراز ما يشير إلى تأييد هذه المقولة ، ولعل تقلده آنذاك رئاسة أركان الجيش الأردنى هو ما منعه من ذلك ، لقد برزت مقولة انتشار الإسلام بالسيف لسبب ذكره «أرنولد» فقال إنه بعد معارك الفتح (تلتها حركة ارتداد واسعة عن الديانة المسيحية ، حتى لقد ظن دائما أن هذا الارتداد كان الغرض الذى يهدف إليه العرب ومن هنا أخذ المؤرخون المسيحيون ، ينظرون إلى السيف على أنه أداة الدعوة الإسلامية)(٢٢١) . إن التناقض الواضح بين تبريرات المستشرقين وآرائهم سببه غموض مقولة نشر الإسلام بالسيف وهو غموض مقصود لإثارة البلبلة وزرع الشك فى قلوب السامعين ، ولقد وجه «أرنولد» الباحثين إلى المسار الذى رآه الأوفق لمعرفة حقيقة ما حدث ، فقال (يجب أن لا نتلمس الأسباب التى أدت إلى مثل هذا الانتشار السريع للعقيدة الإسلامية فى أخبار الجيوش الفاتحة ، بل الأجدر أن نفتش عن ذلك فى الظروف التى كانت تحيط بالشعوب المغلوبة على أمرها) (٢٢٢) وهو ما يجعلنا نحاول البحث .

المقصود من مقولة نشر الإسلام بالسيف

إن هذه المقولة حمالة أوجه فإما أن يكون المقصود منها أن المسلمين أجبروا سكان البلاد التى تم فتحها على الدخول كرها فى الإسلام ، أو أن تكون دواعى الفتح فى حد ذاته شجعت هؤلاء السكان على التحول إلى الإسلام سواء لأسباب مادية أو اجتماعية أو ثقافية ، ثم هناك الاحتمال الثالث ، لكن هذه المقولة تحمل فى طياتها إنكاره ، وهو أن يكون التحول إلى الإسلام قد تم لأسباب دينية بحتة وعن اقتناع كامل بالإسلام كدين ، ولسوف نناقش تلك الاحتمالات لنخلص إلى نتيجة مقبولة .

«٢٢١» ص ٦٤.   «٢٢٢» ص ٦٥.

مناقشة الاحتمال الأول: إكراه الناس على التحول للإسلام

فضلًا عن أن الإكراه فى الدين منهى عنه شرعًا فى الإسلام، فإننى لم أعثر فى أى مرجع متاح لى على ما يشير إلى حدوث هذا الإكراه. ومشكورًا، اعترف «جلوب» بذلك فقال (إن الفاتحين العرب الأول لم يقوموا بأية محاولة وإن قاموا بمحاولات لا شأن لها لتحويل الشعوب المحتلة إلى الإسلام)(٢٢٣) ولعله قصد «بالمحاولات التى لا شأن لها» قيام الفاتحين بعرض الدين الإسلامى بالحكمة والموعظة الحسنة على الناس وتحبيبهم وترغيبهم فى الإسلام، وهو واجب شرعى التزموا بأدائه.

مناقشة الاحتمال الثانى: تداعيات الفتح

وهى الأسباب المادية والاجتماعية والثقافية التى يمكن أن تكون سببًا فى التحول إلى الإسلام.

أولًا: العامل المادى

قال «توماس أرنولد» عن أقباط مصر (لقد دخل كثير من هؤلاء القبط الإسلام قبل أن يتم الفتح حيث كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ لاتزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة)(٢٢٤) وقال عن مسيحيى العراق (ويظهر أن المسيحيين فى بداية احتلال العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الإسلام فى جموع هائلة)(٢٢٥) ولعل ما ذكره «بتلر» عن الموقف فى الشام فيه تعليل وتفسير لهذه الظاهرة، فقد أكد صحة شهادة لمطران نسطورى بالشام قال فيها (هؤلاء العرب.. لا يحاربون دين المسيح، بل هم يدافعون عن ديننا،

«٢٢٣» ص ٥٦١. «٢٢٤» ص ١٢٤. «٢٢٥» ص ١٠٠.

ويجلون قسسنا وقديسينا، ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا) (٢٢٦) ورغم عداء «إدوارد جيبون» الشديد للإسلام. فإنه اعترف بترحيب القبط في مصر للفاتحين، فقال (إن العرب استقبلوا في مصر كالمنقذين للكنيسة اليعقوبية. وفي أثناء حصار «منف» عقدت معاهدة سرية نافذة بين جيش انتصر، وشعب كان من العبيد.. وبوثيقة الضمان هذه حُطم طغيان الملكانيين الكنسي والمدني - يقصد مذهب بيزنطة الأرثوذكسي) (٢٢٧).

وما يعنينا هو أن جموع القبط في مصر ومسيحيي العراق والشام، مهما كان عددهم، تحولوا في هذه الآونة المبكرة إلى الإسلام قبل أن تفرض عليهم الجزية ولقد حاول «جلوب» التخفيف من أثر هذه الحقيقة فقال إنه بعد سقوط حصن بابليون في يد المسلمين (يقال بأن عددا غير محدود من الأقباط قد تحول في هذه الآونة إلى الإسلام) (٢٢٨) ثم يدعي أن الإسكندرية فتحت صلحا - وقد فندت هذا الزعم من قبل - ويقول (يؤكد المؤرخون.. أن عددًا من الأقباط قرر عند إبرام صلح الإسكندرية التحول إلى الإسلام، رغبة منه في الخلاص من الجزية والضرائب الثقيلة (٢٢٩) ونجد تبرير التحول إلى الإسلام بالتخلص من «الجزية والضرائب الثقيلة» يتكرر كثيرًا في مراجع هؤلاء المستشرقين. رغم أن ظاهرة التحول المبكر تمت قبل فرض الجزية.

كانت الضرائب التي فرضتها بيزنطة على تلك الشعوب، قبل أن يتم الفتح عبئا يفوق التحمل. لقد ذكر د. محمد ضياء الدين الريس في كتابه (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية (٢٣٠) تفاصيل تلك الضرائب، أوجزها بتصرف: ضريبة الأرض

«٢٢٦، ٢٢٧» نقلا من كتاب د/ ضياء الدين الريس «الخراج» ص ١٦٧.

«٢٢٨» ص ٣٦١ - ٣٦٢. «٢٢٩» ص ٣٧٨.

«٢٣٠» ص ٤٣ - ٥٤ بتصرف وإيجاز.

(الغلال) غير ثابتة يحددها الإمبراطور بحسب رغبته مما أدى إلى هجر الكثير من المزارعين أرضهم. ضريبة على أراضي الأشجار والكروم (١٠ إلى ٤٠ درهمًا). ضريبة الرأس (٢٠ درهمًا) قال «ملن» كان سكان مصر من سن ١٤ - ٦٠ عامًا ملزمين بها عدا فئة مميزة معفية منها كالروم والإغريق من أهل العاصمة الإسكندرية. ضريبة على الأراضي المبنية بالمدن والمنازل. ضرائب الماشية بأنواعها (١٠ دراهم على الجمل الواحد). ضرائب على كل أنواع المهن بما فيهم البائعون الجائلون والإسكافيون والعاهرات. ضريبة مبيعات (١٠٪) ضرائب على النقل داخل وخارج المملكة. ضريبة تركات (٥٪) وأخرى لتسجيل العقود. ضريبة تسمى (الأنونا) عبارة عن حصة غلال لتموين مدينة الإسكندرية حيث تعيش الفئة المميزة، وأخرى تسمى (نوبيون) مقابل تطهير قنوات الري. ضرائب على القرابين المقدسة في الكنائس. ضريبة لتموين جنود الإمبراطورية. ضريبة لتقديم الهدايا للملك (٤ دراهم عن كل فرد). ولم تكن الضرائب هي العبء الوحيد الذي يعاني منه الناس، بل أضيف إليها نظام الحماية وأعمال السخرة والاحتكارات. يقول «بتلر» عن الحال التي وصل إليها القبط في مصر (إن الحكام فيها أصبح لا هم لهم إلا أن يجمعوا المال لخزائن الملك البيزنطي وحاشيته، وأن تكون لمذهبهم - الملكاني - اليد العليا في البلاد. فصار الحكم على أيديهم أداة لا تؤدي إلا إلى الظلم ونشر الشقاء)(٢٣١) وبالفتح الإسلامي، تغير الوضع تمامًا، فقد ألغيت كل هذه الضرائب وحل مكانها ضريبتان وحيدتان، هما الخراج والجزية، والخراج ضريبة على ملاك الأرض (أرض الخراج وأرض العشر) يدفعها المسلم وغير

« ٢٣١ » نقلا عن كتب د/ ضياء الدين الريس ص ٥٦.

المسلم وتراوحت بين (٢ ـ ١٠ درهم) على كل (جريب) بحسب نوع الغلة والزراعة.

أما الجزية، والتي كانت الحجة التي استند إليها «جلوب» والمستشرقون، فكانت كما ذكر «أبويوسف» في كتابه (الخراج)[٢٣٢] ـ أذكرها بتصرف وشرح مبسط. كانت الجزية واجبة على الرجال (من بلغ الحلم الحر العاقل) من أهل الذمة غير المسلمين (القادرين على حمل السلاح) بينما أعفي منها النساء والصبيان ولا تؤخذ من الذي يتصدق عليه، ولا من المقعد، ولا من أعمى لا حرفة له، ولا من مغلوب على عقله، ولا من المترهبن وأهل الصوامع إن لم يكونوا ذوي يسار ولو ظن أنهم ذوو يسار يكتفى بأن يحلفوا بالله ألا مال لهم فيعفون. وفي المقابل التزم ولي الأمر بكف اليد عنهم وحمايتهم والدفاع عنهم، وكفل لهم حرية الاعتقاد والعبادة فلا يحال بينهم وبين شرائعهم، أي أن الجزية، فضلا عن الجوانب الإنسانية التي روعيت في أدائها، كانت بمثابة «ضريبة دفاع» تسقط لو اشترك الذمي في جيش المسلمين. قال «أرنولد» (ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي)[٢٣٣] ويضيف (إنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين)[٢٣٤] وقال (هذه الجزية كانت من البساطة، بحيث لم تكن تثقل كاهلهم..) وأضاف (كان على هؤلاء الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا ـ بدلا من الجزية ـ الصدقات الشرعية وهي الزكاة)[٢٣٥] وهي

«٢٣٢» ص ١٣١ – ١٣٢. «٢٣٣» ص ٨٠. «٢٣٤» ص ٧٩.

«٢٣٥» نقلا عن كتاب د. ضياء الدين الريس ص ١٦٦.

إشارة من «أرنولد» لها وزنها، فالملزم بدفع الجزية لا يؤدى الزكاة التى يؤديها المسلم، فإن تحول إلى الإسلام سقطت عنه الجزية ووجبت عليه الزكاة. وقد فطن المستشرق «فلهوزن» إلى تلك الحقيقة، لكنه سارع إلى القول بأن قيمة الجزية أكبر من قيمة الزكاة!!

لقد بلغت قيمة الجزية كما ذكر «أبويوسف» على الملزم بأدائها (٤٨ درهما) إن كان موسرا، (٢٤ درهما) إن كان متوسط الحال، (١٢ درهما) إن كان يحتاج للحراث عاملا بيده، وذلك فى العام. قال «أرنولد» (هناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قلما كانوا فى عهد الفتوحات الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم. والواقع أن تمسكهم بدينهم القديم هو الذى عرضهم لدفع الجزية)(٢٣٦).

إن الادعاء بأن الكثرة الغالبة ممن تحولوا إلى الإسلام كانوا من الفقراء هربا من الجزية، مردود عليه بأنهم كانوا من المعافين فعلا من أدائها لأنهم ممن يتصدق عليه. ذكر «أبويوسف» أن عمر بن الخطاب مر على شيخ يهودى يسأل، فذهب به إلى منزله فأعطاه، ثم أمر خازن بيت المال أن يجرى عليه من الصدقة. بل إنه عندما وقفت تسمية تلك الضريبة «جزية» عثرة أمام أدائها، وافق عمر على تسميتها «زكاة» عندما طلبت منه قبيلة تغلب النصرانية ذلك كى ترضى نفسا.

إن المقارنة بين الحالين، الحالة التى كان يعيشها الناس فى ظل نظام الضرائب البيزنطى والحالة التى عاشوها بعد الفتح الإسلامى، تجعل من الصعب تصور أن العامل المادى كان سببًا قويا لتحولهم للإسلام.

«٢٣٦» ص ٧٧.

ثانيًا: العامل الاجتماعي

قال «جلوب» (وهكذا عندما حلت الساعة الحرجة وجد الإغريق البيزنطيون وعدد قليل نسبيا من المصريين الذين يدينون بالأرثوذكسية أنفسهم المدافعين الوحيدين الأوفياء عن البلاد. أما الأقباط فكانوا يؤلفون مجتمعا تابعا لا مفاصل بارزة فيه. ومن الصحيح أن يقال إن صمودهم أمام اضطهاد (المقوقس) كان يحتم عليهم أن يتمسكوا بدينهم جيدًا، ويعني هذا التمسك عدم ترحيبهم بالمسلمين، ولكنهم لم يكونوا يدافعون دفاعا جديا مستبسلا عن بلادهم، فلقد رأوا أنهم كانوا حتى ذلك التاريخ ضحايا اضطهاد البيزنطيين وإذا قدر للعرب أن يكسبوا فإنهم سيصبحون أتباعا للمسلمين، ومن هنا تقوم الحقيقة الواقعة وهي أنهم سيظلون عبيدا تابعين مهما كانت نتيجة المعركة. ومن المحتمل أن يكونوا قد عرفوا على أية حال أن العرب في سوريا أباحوا للمسيحيين حرية العبادة وإن كانوا يرغمونهم على دفع الجزية ومن هنا كانوا يرون في المسلمين وضعا أفضل من وضعهم في ظل المقوقس)(٢٣٧) وقال معلقا على من تحول من القبط إلى الإسلام مبكرًا بعد بابليون (وقد أغرتهم الفرصة المتاحة لهم بأن يصبحوا أندادا من الناحيتين الاجتماعية والمالية لفاتحي بلادهم المبجلين)(٢٣٨). ثم يذكر سببين لتحول القبط إلى الإسلام بعد فتح الإسكندرية (رغبة منهم في الخلاص من الجزية والضرائب الثقيلة أولًا، والوصول إلى مركز المساواة مع الفاتحين المنتصرين في الميدان الاجتماعي)(٢٣٩) ثم يصل أخيرًا إلى هدفه، فيقول عن المسلمين (كان إصرارهم الوحيد هو أن تدفع هذه الشعوب الخاضعة ضرائب إضافية وقد هبطت

«٢٣٧» ص ٣٥٤. «٢٣٨» ص ٣٦٢. «٢٣٩» ص ٣٨٧.



«الشعوب المهزومة» من الناحية الاجتماعية إلى مرتبة المواطنين من «الدرجة الثانية» على حد تعبير المصطلحات الحديثة. ولكن المسلمين لم يطلبوا منهم اعتناق الإسلام. أما إذا تحولوا إلى الإسلام على أية حال فإن هؤلاء سرعان ما يصبحون أندادا للفاتحين)(٢٤٠) إنه الأسلوب الذى درج عليه «جلوب» وهو حشد حجم كبير من الأكاذيب فى عبارات قليلة لإرباك المتلقى وشل تفكيره، لقد انتهينا من مقولة «الجزية والضرائب الثقيلة» ويبقى ادعاء «جلوب» بأن المسلمين كانوا يحاربون القبط، والنصارى فى الشام، وواضح بطلانه، فالمسلمون كانوا يحاربون الروم لتحرير تلك «الشعوب المهزومة» على حد قوله. ولم يكن الخيار المطروح أمام القبط هو خيار العبودية إما للروم وإما للمسلمين، بل كان الخيار بين استمرار العبودية للروم والتحرر على يد المسلمين ولم يعرف المجتمع الإسلامى التفرقة على أساس الدين حتى يسعى الأقباط إلى الإسلام لنيل مكانة اجتماعية ولم يكن دفع القبطى للجزية، وهى ضريبة دفاع، تهبط بمكانته ليكون مواطنا من الدرجة الثانية، فالمسلم يدفع الزكاة وبها سهم «فى سبيل الله» ينفق منه على الدفاع. ومن الغريب أن «جلوب» قال ذلك فى كتابه الصادر ١٩٦٣م.وهو يعلم أن الجزية أسقطت بالفعل عن القبط لتجنيدهم بالجيش. وإصراره على أن هدف الفاتحين هو جمع الضرائب، رددنا عليه لكنه أصر على أنهم لم يكونوا يحفلون كثيرًا بالمتحولين للإسلام، لقد وصف «الطبرى» كيف كان القبط يقفون فى صفوف الأسرى، وعندما يعلن أحدهم إسلامه يكبر المسلمون تكبيرات أشد من تكبيرهم إذا فتحوا قرية. أما وصف «جلوب» للمجتمع القبطى بأنه لم يكن متماسكا

«٢٤٠» ص ٥٦١.

ووصفهم بعدم الوفاء والانتماء لبلادهم وعدم بسالتهم في الدفاع عنها، وضعف تمسكهم بعقيدتهم ووقوفهم بجانب المسلمين ضد الروم المسيحيين، فكلها ادعاءات مبعثها التعصب المذهبي. وإن كان «جلوب» حاول إخفاءه فإن «ستيفن رنسيمان» ذكرها صراحة فقال (ثم غزوا - أي المسلمون - مصر في ٦٤١م ولم يحاول أهلها الزنادقة المضطهدون المرهقون بالضرائب أن يحافظوا على سيادة الإمبراطورية، لذا رحب الناس في سوريا ومصر على السواء بتغيير السيد، معتبرين عقيدة الإسلام الدينية أقرب إلى عقيدتهم من عقيدة خلقيدونية)(٢٤١).

لقد استظلت شعوب البلاد التي تم فتحها، بشعار التسامح الديني والعدل الاجتماعي، وقد شاركت تلك الشعوب في حكم وإدارة بلادها، وهو موضوع لا يتسع له المجال هنا لشرحه. ونكتفي ببعض ما ذكره المستشرقون. قال «جوستاف لوبون» في كتابه (حضارة العرب): (ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب) وقال «توماس أرنولد» (وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق.. ومن ثم لم يكن بد من أن نتلمس بواعث أخرى غير ذلك الباعث)(٢٤٢) ويكفي أن «آدم متز» قال (كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام).

ثالثا: العامل الحضاري والثقافي

كان استتباب الأمن والسلام في ربوع البلاد بعد فتحها، هو أول أثر هام، فقد أتاح لشعوبها السعي من أجل التجديد والبناء، وتشييد حضارة إسلامية عالمية ذات سمات مميزة.

«٢٤١» ص ٣٩.   «٢٤٢» ص ٨٨.



١ـ امتلاك مقومات التفوق والبقاء.

قال «جوستاف لوبون» (إن الشرقيين ـ يقصد المسلمين ـ هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التى أخذت جامعات أوروبا تعول عليهم فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم)(٢٤٣) ولقد تحدث «د. حسين مؤنس» فى كتابه (الحضارة) عن توارث الحضارات وذكر أن أغلبها ينتهى أمرها بالتصدع والانحلال لفسادها، وتتعرض لغزو حضارى أقل منها شأنًا لكنه أقوى عسكريا وماديا، وينتهى الأمر بتغييرها بشكل كامل، وهو ما حدث للإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، ثم قال (ونستثنى من ذلك كله حضارة الإسلام لأن أساسها ليس عنصرًا بشريًا يناله الضعف والبلى ولكن أساسها العقيدة وهى لاتزال تتجدد وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال، وأداتها اللغة العربية، لغة القرآن)(٢٤٤) ويضيف (إن الجميل فى الثقافة العربية أنها تكونت أساسًا من الإسلام نفسه مضافا إليه العناصر الثقافية التقليدية لكل بلد إسلامى، وقامت اللغة العربية بدور الأداة والقاعدة)(٢٤٥) ويضيف (لا يغلب الثقافة إلا ثقافة أعلى منها. كما غلبت ثقافة الإسلام والعروبة على الكثير من عناصر الثقافات التى وجدتها فى البلاد التى فتحتها وأحلت محلها ثقافة الإسلام والعروبة فأعطتها كلها ثقافة واحدة عامة تشملها كلها وتميزها عن غيرها أى أنها أعطتها ثقافة عالمية) (٢٤٦). وهى نفس الحقيقة التى أشار إليها «فرانز روزنتال» فقال (لقد استطاع الإسلام بفضل عبقريته العسكرية والظروف التاريخية الملائمة أن يكتسح فى زمن قصير بلادًا كانت تمثل

«٢٤٣» نقلا عن د/ الخربوطلى ص ٤٦.

«٢٤٤» ص ٢٧٣. «٢٤٥» ص ٣٩١. «٢٤٦» ص ٣٩٠.

فيها جميع المنجزات الفكرية القائمة آنذاك، وسرعان ما أخذت حضارته تتبنى لنفسها هذه المنجزات)[٢٤٧] كما قال «جوستاف لوبون» (إن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة، كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها) ويضيف (يكفي العرب فخرًا أنهم لم يقنعوا بما تعلموه من غيرهم وإنما بحثوا واجتهدوا وابتكروا، وأضافوا عناصر جديدة دفعت عجلة التطور الحضاري بعيدا إلى الأمام)[٢٤٨]. وقال «ل. أ. سيديو» (إن الكنوز الأدبية العظيمة التي أوجدها العرب في ذلك العصر، ونتاج نبوغهم العلمي، واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلا على نشاطهم الفكري، وتؤيد الرأي القائل بأن العرب هم أساتذتنا في كل شيء)[٢٤٩] قال «أرنولد» (لعبت اللغة العربية دورًا كبيرًا في مزج الحضارات والعناصر المتنافرة في الأقطار المفتوحة)[٢٥٠] إن الامتزاج والترابط القوي بين الدين والعروبة، الإسلام واللغة العربية، هو جوهر بناء ونمو الحضارة والثقافة الإسلامية العالمية. لذلك حرص «جلوب» على النيل منها. فهو يصف اللغة العربية بأنها لغة ميتة وأن ذلك كان أحد الصعوبات أمامه. قال (لم تكن الفرصة لتتاح إلا نادرًا للعسكريين المحترفين لتعلم لغة من اللغات الميتة مع ما في هذه اللغة من صعوبة)[٢٥١].

ثم يعتبر أن ارتباط الإسلام والعروبة هو جمع بين الدين والعنصر، فقال عمن تحولوا إلى الإسلام (وقد مال المؤرخون إلى اعتبار هؤلاء من العرب، هو خلط فكري بين العنصر والدين). وكان الامتزاج بين الإسلام والعروبة هو أحد الاتهامات التي وجهها «جلوب» إلى المؤرخين المسلمين الأول، فقال(إن وجهات نظر هؤلاء المؤرخين

«٢٤٧» ص ٤٦. «٢٤٨» نقلا عن كتاب د/ الخربوطلي ص ٢٣.
«٢٤٩» ص ٤٢٥. «٢٥٠» ص٩٢. «٢٥١» ص ١٤.



كانت إسلامية أكثر منها عربية)(٢٥٢)!! ولم يذكر «جلوب» جانبا إيجابيا للحضارة والثقافة الإسلامية، وإنما تدرج في ادعاءاته حتى وصل إلى الهدف الذى يريده فقال (ولما كانت الدولة الإسلامية الأولى دولة دينية ثيوقراطية، تعتمد في قوانينها على شرائع الله فإن الدين لا العنصر أو القومية كان العامل الذى يفرق بين الناس، ويميز الواحد منهم عن الآخر..) ويضيف (ولم يضعف أمر الحكم الدينى أو يختلف إلا في الأربعين سنة الأخيرة - كان ذلك عام ١٩٦٣ - من جراء تحول الدولة في البلاد الإسلامية من الدين إلى العلمانية. ولقد بنيت الدولة العلمانية الحديثة على الأسس المتبعة في أوروبا الغربية لا على أسس التقاليد الإسلامية)(٢٥٣) خليط هائل من المغالطات في فقرة واحدة كما هو مألوف عنه. لم تكن هناك دولة دينية ثيوقراطية في الإسلام كما حدث في أوروبا. والشريعة الإسلامية ليست مجرد تقاليد إسلامية، والأخذ بها لا يحول الدولة إلى حكم ثيوقراطى. ولم يحدث أن كان الدين هو المقياس الذى يفرق بين المواطنين. ونصيحته لنا، بأن الأخذ بالنظام العلمانى هو السبيل الأمثل لقيام الدولة المدنية، هي خلاصة «الفكر العلمانى» المرفوض يقول «د. على حسن الخربوطلى» عن المستشرقين والكتاب الغربيين أمثال «جلوب» (جوهر كتاباتهم أن الإسلام هو المسئول عما أصاب العالم الإسلامى في العصور الحديثة من تأخر حضارى، بينما كانت المسيحية هي سبب ما شهدته أوروبا من نهضة حضارية، وهؤلاء المستشرقون المبشرون، يدعون المسلمين إلى أن يفصلوا حياتهم الدينية عن حياتهم الدنيوية.. وما غايتهم من ذلك إلا خلق تخاذل روحى، وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للمدنية المادية الغربية)(٢٥٤).

«٢٥٢» ص ١٣. «٢٥٣» ص ٣٣٣. «٢٥٤» ص ٨٢.

٢ـ المقومات الإنسانية والأخلاقية [إنسانية الحرب في الإسلام]

لقد حفلت المراجع بوصف السلوك الإنساني والأخلاقي الرائع للمسلمين الفاتحين ورعايتهم لشعوب البلاد المفتوحة. وأكتفي بالتركيز على الجانب الإنساني والأخلاقي في القتال أثناء معارك الفتح، وهو ما أسميه «إنسانية الحرب في الإسلام».

كانت الحروب التي دارت رحاها بين الفرس والروم، ذات دوافع مادية وعدوانية بحتة، لا تراعي فيها القيم الإنسانية، فإبادة سكان المدن واستباحة أعراضهم وأموالهم، ونقض المواثيق والعهود، كانت كلها أمورًا مارسوها واعتادوا عليها، يذكر «د. أسد رستم» في كتابه (الروم) «٢٥٥» أنه عندما اقتحم جيش الفرس بقيادة «شهر براز» مدينة القدس، قتل ٥٧ ألفا من النصارى وأسر ٣٥ ألفا، وأحرق الكنائس وقبض على البطريرك «زخريا» واستولى على عود الصليب، وذكر أن يهود المدينة تحالفوا مع الفرس ضد النصارى. ويذكر «كافين رايلي» في كتابه (الغرب والعالم ـ تاريخ الحضارة)، أنه استجابة لدعوة البابا «أوربان» خرج الصليبيون (لاستئصال شأفة أبناء العاهرات، ذرية قابيل كما كانوا يسمون المسلمين ـ وبعد استيلائهم على بيت المقدس قاموا بذبح كل المسلمين رجالًا ونساء وأطفالًا حتى خاضت جيادهم في دماء المسلمين حتى اللجام.. وبعد أن تجمع يهود القدس في معبدهم الرئيسي قاموا بإضرام النيران فيه فحرقوهم جميعا أحياء. ثم سار الصليبيون في مواكب النصر إلى كنيسة القبر المقدس وهم يبكون ويغنون أغاني الشكر لله ويقولون ذلك اليوم تثبيت أكيد للمسيحية ومحق للوثنية وتجديد لإيماننا..)(٢٥٦) ثم يصف

«٢٥٥» ص ٢٢٤».   «٢٥٦» ص ١٩٦- ١٩٧ بتصرف.

«رايلى» سماحة وعدل المسلمين فيقول (ولاشك أن الفرنجة المسيحيين الذين حكموا القدس من ١٠٩٩ إلى ١١٨٥م أدركوا أن المسلمين أشد منهم تسامحا بكثير)(٢٥٧) وقال «توماس أرنولد» (وقد أقبل بعض الصليبيين، بعد أن لمسوا أخلاق المسلمين وتسامحهم، على اعتناق الإسلام.. أما سائر الصليبيين الذين لم يعتنقوا الإسلام، فقد تأثروا بالأخلاق والطباع الإسلامية)(٢٥٨) ولعله من الطريف أن «جلوب» فى ختام كتابه، يذكر أن النبى ﷺ تأثر بشريعة العهد القديم وأخذ بقانون السن بالسن مما أثمر شيوع ظاهرة الأخذ بالثأر بين المسلمين وارتكبوا فيها أعمالا شنيعة، ثم يعلق على ادعائه هذا بقوله (ولعل هذه الناحية، كما يبدو لى، هى إحدى نواحي التوجيه التي تختلف فيها المسيحية اختلافا بينا عن الإسلام، فليس ثمة من توجيه للمسيحيين بأن يقابلوا الإساءة بالإساءة!!)(٢٥٩) إنه مجرد لغو لا يستحق منى أى رد أو تعليق.

لم يحدث فى تاريخ الفتح الإسلامى كله أن ارتكب المسلمون فظائع كتلك التى ارتكبها الفرس والروم. بل على العكس من ذلك، حفلت المراجع بوصف السلوك الرائع والإنسانى للفاتحين الأول. إلا أن «جلوب» بعد أن أجهد نفسه فى البحث وتلمس الأخطاء، لم يجد غير ما ذكره «بتلر» فى فتح مصر، من أن عمرو بن العاص هدم الكنائس وذبح سكان الفيوم كلهم ونهب الأموال وحرق المحاصيل.. إلخ، وقد فندت هذه الادعاءات فى فصل سابق ويكفينى شهادة «يوحنا أسقف نقيوس اليعقوبى» التى ذكرها «أرنولد» (يرجع النجاح الذى أحرزه غزاة العرب،

«٢٥٧» ص ١٩٩.

«٢٥٨» نقلا عن د/ الخربوطلى ص ٧٩.

«٢٥٩» ص ٥٥٦.

قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي لما عرف به من الإدارة الظالمة ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت - ثم يضيف، وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط.. حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها من قبل ذلك بقرن من الزمان. وقد تركهم «عمرو» أحرارًا على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية.. ولم يضع «عمرو» يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب(٢٦٠).

لا يسمح المجال بذكر تفاصيل مبادئ وأساليب الحرب في الإسلام، ويكفي أن أذكر أنها ليست حربًا لفتح أسواق تجارية أو لنهب ثروات الشعوب واستجلاب الخامات أو لاستغلال البشر وتسخيرهم أو لفرض دين أو مذهب أو نظام حكم معين. لقد تعمد «جلوب» وصف الفاتحين المسلمين بصفات المحبين لسفك الدماء المتعطشين للحرب والقتال، ولعله لم يعلم أن الحرب في حد ذاتها كانت أمرا مكروها لهم، قال تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢١٦)

لكن إن وجبت الحرب واستكملت شروطها الشرعية، فهي حرب مقدسة، لأنها الجهاد في سبيل الله ويبذل في سبيلها المال والنفس، فهي ليست لمغنم مادي وهو أمر يتفهمه المسلم. وإن

«٢٦٠» ص ١٢٣.

مورست الحرب فإنها تخضع للجوانب الإنسانية والأخلاقية التى حددها الإسلام. ومنها على سبيل المثال لا الحصر، حتمية إعلان الحرب، تحريم قتل المدنيين من نساء وولدان وشيوخ وأن يقتصر الأمر على مقاتلة المقاتلين فقط، تحريم قتال رجال الدين، منع إتلاف وحرق الزرع والأشجار والنخيل كذا المواشى غير المشاركة فى القتال، يجب عدم التمادى فى القتال بلا مبرر، احترام العهود والمواثيق مع أهل الصلح وعدم تعريضهم للمخاطر، حسن معاملة الأسرى، كما ألزمت الفاتحين بتنظيم أحوال البلاد التى تم فتحها ورعاية مصالح أهلها .. إلخ.

كانت الصورة البشعة المنطبعة فى ذاكرة شعوب البلاد المفتوحة عن ممارسات الفرس والروم خلال حروبهما الطويلة، مازالت حاضرة عندما بدأ الفتح الإسلامى لها. ولاشك أن المقارنة بين تلك الذكريات المريرة وبين ما لمسوه من إنسانية سلوك الفاتحين كان له فعله وتأثيره. ولعل قصة أهل «حمص» بالشام فيها دليل على ذلك، فعندما أمر «أبوعبيدة» أمراء جيشه برد أموال الجزية إلى أهل «حمص» لانسحاب جيش المسلمين وعدم قدرته على حمايتهم من الروم، أعلن أهل «حمص» استمرارهم فى الوقوف بجانب المسلمين ضد «هرقل» لما رأوه من عدل المسلمين مقابل ما كابدوه من ظلم الروم، وقد ذكرت تفاصيلها فى فصل سابق.

مناقشة الاحتمال الثالث: اعتناق الإسلام عن اقتناع

لم يعترف «جلوب» قط بأن أحدًا من المسيحيين تحول إلى الإسلام عن اقتناع، ويكاد يكون موقف معظم المستشرقين مثله، مع أنه من المنطقى أن يكون ذلك أحد الاحتمالات الممكنة. وعموما، يمكن بحث هذا الاحتمال بالنظر إلى أحوال المسيحيين أنفسهم، ثم الإسلام كعقيدة وسلوكيات.

أولًا: أحوال المسيحيين:

حفلت مراجع المستشرقين بالحديث عن تفاصيل الخلافات اللاهوتية، وكلها كانت حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام، وأدت إلى كراهية شعوب الولايات لبيزنطة. وقد سرد «جلوب» تفاصيل هذه الخلافات، إلا أن «ستيفن رنسيمان» عرض وصفا موجزا لها في كتابه (الحضارة البيزنطية) أسرد ملخصه. فهو بعد أن يتحدث عن قرب مذهب الأريوسية من التوحيد وعدم تأليه المسيح، قال (وأصدر أول مجمع مسكوني، وهو مجمع نيقية قرارا باستنزال اللعنة عليهم)(٢٦١)، ثم يصف مذهب النساطرة الذي يقسم طبيعة المسيح إلى لاهوت وناسوت، بأنه مذهب مكروه من الناس لأنه يحرم العذراء من لقبها: أم الرب، وفي النهاية قال (وأصدر مجمع إفيسوس قراره ضده)(٢٦٢) ثم تحدث عن اليعاقبة المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح بين «الابن والأب» والذي اعتبرته الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية هرطقة ـ أي كفرا، لذلك وصفهم «رنسيمان» مرة بالكفر ومرة بالزندقة فقال (إن تلك الزندقة صارت نقطة التجمع للكثيرين من أهالي الولايات) ومن المعروف أن المذهب اليعقوبي هو السائد في أقباط مصر: يقول «جلوب» إن «هرقل» حاول التوفيق بين الأرثوذكسية واليعقوبية وأرسل المقوقس «سيروس» إلى مصر لهذا الغرض، (كان المقوقس في الوقت نفسه على أهبة لاستخدام القوة. وبدلا من أن يتريث.. شرع يضطهد جميع الذين يخالفونه اضطهادا شديدا، واتخذ عام ٦٣٢م.. إجراءات عنيفة صارمة مع جميع الهراطقة والمخالفين له في مصر)(٢٦٣) ويضيف (وجدير بنا أن نقول إن عمليات الاضطهاد هذه أدت ككل عمليات مشابهة لها إلى تعزيز الكنيسة

«٢٦١» ص ١٣٢. «٢٦٢» ص ١٣٣. «٢٦٣» ص ٣٤٢.



القبطيــة وتقويتهــا ، كما أدت إلى قطع آخر خيــط من خيوط الولاء السياســى والحب عند مسـيحيى مصـر لدولة الــروم)[٢٦٤] لقد اسـتمر هذا البطش والاضطهاد عشر سـنوات قبل الفتح الإسلامى كانت الخلافات اللاهوتية وأساليب القهر والاضطهاد هى المنطق الــذى اسـتند إليــه المستشــرقون لتبرير تحــول المســيحيين إلى الإسلام ونأخذ ما ذكره «توماس أرنولد» كمثال :

١ـ رأى أن تلك الخلافات سببت بلبلة لدى الإنسان المسيحى ، فقال (وشــبيه بهذا ما يراه « كيتانى » ـ من أن انتشــار الإســلام بين نصــارى الكنائس الشــرقية إنما كان نتيجة شــعور بالاســتياء من السفســطة المذهبيــة التى جلبتها الــروح الهلينية إلــى اللاهوت المســيحي) . . (فــأدى ذلك إلى خلق شــعور من اليــأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها)[٢٦٥] .

٢ـ بل رأى أن المسيحية كدين وقفت عاجزة أمام الإسلام (كما أن ســرعة انتشار الإســلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية)[٢٦٦] ويضيف (أضف إلى ذلك أن ما أحرزته ســيوف المســلمين من نجاح واسع النطاق ، منقطع النظير ، قد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التى أصبحت تحــت حكمهم ، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله)[٢٦٧] وقــد عبر « جلوب » عن هذه الحالــة ، فقال (إن أوروبا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات الإســلامية كوارث رهيبة ، ولم يكن ثمة مسيحى يود أن يذكره الناس بها)[٢٦٨] .

٣ـ ثــم أضاف « أرنولد » ســببا آخر فقال (إن فســاد رجال الدين المســيحى كان من أســباب اعتناق الإســلام)[٢٦٩] ، وقد أشــار

« ٢٦٤ » ص ٣٤٢. « ٢٦٥ » ص ٨٩. « ٢٦٦ » ص ١٢٥.
« ٢٦٧ » ص ٩٤. « ٢٦٨ » ص ١٤ـ ١٥. « ٢٦٩ » ص ١٢٧.

«إدوار جيبون» إلى ذلك فقال (وعلينا ألا نخلط بين أخلاق المسيح التى تجلى فيها الصبر والتواضع وبين حماس الأمراء والأساقفة وتعصبهم فهم الذين جلبوا العار على أتباعه)(٢٧٠).

وخلاصة تلك الآراء، هى أن التحول إلى الإسلام حدث نتيجة لضعف إيمان -من تحول- بالمسيحية، لكنها لا تضع احتمال أن يكون التحول تم عن اقتناع -موضع الاعتبار- والسبب مفهوم بالطبع.

أرجع «أرنولد» تحول قبائل البدو المسيحيين بالشام للإسلام إلى أمرين، أولهما كما قال (الانجراف فى التيار الدافع للحركة الضخمة بالتحول للإسلام بعد انتصارات المسلمين فضلا عن رابطة العروبة)(٢٧١) وثانيهما، لرفض «هرقل دفع الجزية التى تعود أن يدفعها لهم، ثم قال (نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة)(٢٧٢). ويقول عن مسيحيى العراق (يظهر أن المسيحيين فى بداية احتلال العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الإسلام فى جموع هائلة). أما عن الطائفة المسيحية بفارس، فقال (تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة حتى إنه لم يعد لأتباعها هناك مركز يجتمعون حوله، فوجدوا السبيل سهلا ميسورا لتدينهم بالإسلام..).. (ولم تكن القوة أو العنف السبب فى اتساع نطاق تحويل الناس إلى الإسلام..)(٢٧٣).

ثانيًا: ـ الإسلام.. العقيدة والسلوك

احتلت المقارنة بين العقيدتين الإسلامية والمسيحية مكانا بارزا فى كتابات المستشرقين من حيث البساطة والتعقيد. ومنهم

«٢٧٠» ص ٦٠ جـ ٣. «٢٧١» ص ٦٥. «٢٧٢» ص ٧٠.
«٢٧٣» ص ٢٣٧.



من تناولها بموضوعية واحترام، ومنهم من ساقها على سبيل التهكم والازدراء مثل «إدوارد جيبون» قال «ستيفن رنسيمان» (لا يخفى أن مذهب التثليث مذهب عسير كما أن مذهب التجسيد لا يزيده يسرا) (٢٧٤) وقال «أرنولد» عن أسباب التحول إلى الإسلام (في مقدمة هذه الأسباب بساطة العقيدة الإسلامية.. ويضيف تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة، ورسالة نبيه محمد) وقال (الإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة) (٢٧٥). أما «جوستاف لوبون» فقد قال (الإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لمناحي العلم واكتشافاته، ومن أعظمها تهذيبًا للنفوس، ودعوة إلى العدل والإحسان والتسامح).

أما عن أثر سلوك المسلمين الأول، فقد قال «أرنولد» (استطاع «رينان» أن يقول: ما دخلت مسجدًا قط، دون أن تهزني عاطفة حادة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلمًا) (٢٧٦) وقال «أرنولد» (كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته.. قد يؤثر في الإفريقي الوثني.. إن هذه الدعوة كانت إلى حد كبير في أيدي التجار..) (٢٧٧) ونحن جميعا نعلم أن الإسلام انتشر في ربوع آسيا كلها من خلال سلوكيات التجار وبغير فتح. ويختم «أرنولد» بقوله (وينبغي ألا تجعلنا هذه البواعث بغض النظر عن العوامل الأخرى في حياة الدعوة إلى الإسلام التي كان لتأثيرها طابع ديني أكثر تمييزًا ووضوحًا. وفي مقدمة هذه العوامل تأثير حياة الورع والتقوى التي يحياها المسلمون) (٢٧٨). ونحن نلمح من خلال ما سبق ما يشير إلى أن الاقتناع بالإسلام كان سببًا.

«٢٧٤» ١٣٢. «٢٧٥» ص ٤٥٤ – ٤٥٥. «٢٧٦» ص ٥٥٩.
«٢٧٧» ص ٤٦١. «٢٧٨» ص ٤٦٦ – ٤٦٧.

خلاصة

مما سبق يمكن القول بأن التحول للإسلام لأسباب مادية واجتماعية كان محدودًا، وأن الأثر الثقافي لم تتحقق ثماره إلا بعد مرور وقت كاف، ويبقى الاحتمال الأخير وهو التحول للإسلام عن اقتناع وأظنه أكثر الاحتمالات قبولا وبخاصة لمن تحولوا مبكرًا.. والله أعلم.

تعقيب

دفع ادعاء المستشرقين بانتشار الإسلام بالسيف، بعض الغيورين على الإسلام إلى القول بأن الجهاد في الإسلام هو حرب دفاعية، دون شرح أو تفسير مما جعل قولهم غير مقنع للبعض. فقد اندفع المسلمون في حروب الفتح مخترقين حدودهم في هجمات كاسحة اجتاحت دولة الفرس وأزالتها من الوجود وانتزعت أهم ولايات الروم التي كانت تمثل ثلثي إمبراطوريتهم. فهي حرب هجومية بكل ما تحمله من معنى وفقا للمفهوم العسكري البحت. هذه الحقيقة تجعل من يسمع رأي المدافعين السابق يتساءل: كيف يمكن أن نسميها - حربا دفاعية؟

تعتبر الحرب امتدادًا للسياسة كوسيلة أخيرة لتحقيق الأهداف السياسية للدولة، فلا يلجأ إليها إلا بعد استنفاذ الوسائل السياسية السلمية، وكلنا يعلم أن الأهداف السياسية لدولة ما قد تكون أهدافًا عدوانية، لا تخضع للقيم الإنسانية والمواثيق، فهي مجرد إحدى حلقات السياسة الفاسدة لتلك الدولة.

والقيادة السياسية في أية دولة، مستعينة بقياداتها العسكرية، هي التي تتخذ قرار الحرب، فمثلا إن تجمعت المعلومات المؤكدة لدى القيادة السياسية، بأن دولة مجاورة لها ذات ميول وأهداف عدوانية، تعد نفسها لشن الحرب عليها وتقوم بحشد قواتها وإمكانياتها لهذا الغرض، فإن قرار تلك القيادة السياسية بإعلان الحرب ثم المبادرة بتوجيه ضربة إجهاض للحشود المعادية وإنهاء ترتيباتها للعدوان، يعتبر قرارًا سليما بلاشك بل وضروريا قطعًا، ولا تتخذ تلك القيادة قرارها بدخول الحرب إلا بعد استنفاذها للوسائل السلمية. ويكمن اعتبار قرار الحرب هذا قرارًا بدخول حرب دفاعية من الناحية السياسية لأنه دفاع عن الأمن القومي للدولة بالمفهوم المعاصر. لكنه بالنسبة للعسكريين عمل هجومي مكتمل الأركان من الناحية العسكرية، فالهجوم هنا هو خير وسيلة للدفاع طبقا لأدبيات الفكر العسكري. لقد وقفت دولتا الفرس والروم ضد سعي النبي ﷺ لتبليغ رسالته فقد أرسل كتابه إلى كسرى مع رسوله، فمزق كسرى الكتاب وقتل الرسول «وهو بمثابة سفير للدولة»

وأرسل إلى أميره باليمن «بازان» ليأتيه برأس النبى وقال (أيكتب إلىَّ هذا الكتاب وهو عبدى!!) كما قتل رسول النبى ﷺ إلى «هرقل».. لقد استنفذت الدولة الإسلامية بذلك الوسائل السلمية وأصبح الصدام متوقعًا. كانت الدولة الإسلامية فى طور نشأتها تحيط بها المخاطر ومهددة من جيرانها، الفرس والروم، وكلاهما ذوو أهداف عدوانية. قال «عباس محمود العقاد» فى كتابه (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) بنيت الشريعة الرومانية على (من جاورك فهو عدوك تخضعه أو يخضعك، وتبدأ بالحرب ما استطعت أو يبدؤك هو بالحرب متى استطاع) ويضيف (ولولا انشغال الروم والفرس بالفتن الداخلية التى سادت بلادهم، لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لها).
لقد بدأ التهديد يأخذ شكل الصدام والقتال مبكرا منذ عصر النبوة، فكانت غزوة «مؤتة» ثم غزوة «تبوك» ثم إعداد جيش أسامة بن زيد ليواجه التهديد الجديد، وكلها كانت ردود أفعال على حشود الروم التى تتجمع قرب حدود الدولة. كما استمر الفرس وأتباعهم فى الإغارة على الحدود الشمالية الشرقية للدولة. وتزايد هذا التهديد إلى أن بلغ مرحلة خطيرة عندما قابل جيش خالد بن الوليد فى معركة «الفراض» بالعراق قوات متحالفة من الفرس والروم وعرب القبائل. وما كادت الدولة تسترد بعض الاستقرار عقب انتهاء حروب الردة، حتى فوجئ «الصديق» بقيام «هرقل» بحشد قواته مستهدفا هذه المرة ضرب الدولة الناشئة فى عقر دارها، المدينة المنورة. ولقد شرحت فى فصل سابق تفاصيل تطور القتال حيث تصاعد من مرحلة الاشتباك مع القبائل العربية الموالية للفرس والروم، إلى مرحلة الاشتباك مع قوات الفرس والروم نفسها فى قتال شرس دفاعًا عن وجود الدولة الإسلامية ذاتها ومنع انهيارها.
ولقد انفرد المسلمون بأسلوبهم فى إعلان الحرب، فقد كان إعلانهم للحرب يتم عند مواجهة كل معركة، فيخيرون أهل المدينة قبل فتحها بين الدخول فى الإسلام أو عقد الصلح ودفع الجزية، أو القتال.

كانت الفتوحات الإسلامية حربًا دفاعية بالمفهوم السياسى فهى دفاع عن الأمن القومى للدولة ولكنها فى تنفيذها كانت عمليات عسكرية هجومية بالمفهوم العسكرى، ثم كانت جهادًا فى سبيل الله بالمفهوم الإسلامى الشامل.

وأخيرًا، أكاد أجزم، بأنه لو لم يكن الفاتحون الأول مسلمين، لتبارى المستشرقون فى وصف وتمجيد أعمالهم الرائعة، لقد كان إسلامهم هو السبب فيما نالهم من طعن وتجريح على يد هؤلاء المستشرقين.

الخاتمة

وقعت أحداث الفتح الإسلامي تصديقًا لنبوءات النبي ﷺ، وتحقيقًا للوعد الإلهي بنصرة الفئة القليلة المؤمنة الصابرة على الكثرة من أعدائهم.. وقدمت نموذجًا رائعًا لمفهوم الجهاد في سبيل الله، فرسخت الإيمان في قلوب المسلمين وأصابت أعداءهم بالهلع خاصة وأنهم كانوا من قبل يعتبرون العرب شعبًا خاملا متخلفا.. وهو ما عبر عنه «جلوب» بأن الفتح كان بمثابة كوارث رهيبة، لذلك عمد إلى تأليف كتابه هذا كي يخفف من وطأة الحدث عن طريق زعزعة وهدم المقومات الرئيسية التي بنى عليها الفتح الإسلامي.

الخطوط العامة التي تحكم إطار كتاب «جلوب»

١ ـ كان هدف الكتاب كما حدده «جلوب» هو سرد أحداث الفتح التي جرت خلال ما سماه بـ«عصر الحماس الديني» وكانت تلك بداية التضليل، فقد ألح في ثنايا كتابه على وصف هذا الحماس وكأنه نوع من الاندفاع العاطفي المتهور بدافع التعصب الديني.

٢ ـ محاولة إثبات أن الفتح كان في مجمله عملا مرتجلا عفويًا وعارضًا، وأن تطورات الأحداث غير المسيطر عليها كانت هي التي تشكله، فلم تكن هناك نية لهذا الفتح وأنه جرى بدون أي تصميم أو تخطيط.

٣ ـ العداء الشديد للإسلام كدين وبخاصة شريعته.. ومحاولة رسم صورة مشوهة ومضللة لكل الشخصيات الإسلامية بدءا من النبي ﷺ مرورًا بخلفائه الراشدين وحتى آخر رجل من الصحابة الكرام، حتى يكتمل التشكيك في قدراتهم القيادية والعسكرية فضلا عن صفاتهم الشخصية.

٤ ـ العمل بقدر الإمكان على التهوين من شأن الأعمال التي أنجزها المسلمون خلال الفتح من الناحية العسكرية، ومحاولة إثبات افتقارهم :إلى العلم العسكري وإتقان فن الحرب.

٥ ـ إظهار اليهود على أنهم كانوا ضحايا القهر والاضطهاد منذ عصر النبوة، وتجنب الإشارة إلى أي مما اقترفوه من خيانة وغدر وما ارتكبوه من جرائم في حق المسلمين.

٦ ـ محاولة الربط بين الصورة التي رسمها لأحداث الفتح وحال المسلمين، وبين الحاضر، مركزًا على الفوارق الثقافية والاجتماعية والسياسية بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي، والقول بأن الاختلافات العنصرية تقسم العالم العربي والإسلامي ولا سبيل للتغلب عليها غير الأخذ بالنظام العلماني المدني وإلغاء الشريعة الإسلامية حتى لا يكون هناك مواطنون من الدرجة الثانية



بالمجتمع كما يدعى.

أهم أساليب «جلوب» فى كتابه

١ ـــ حــاول «جلوب» بداية إيهـام القارئ بأن ما يســرده هو مـن المصادر الإسـلامية المتفـق عليهـا، فذكر فـى مقدمة كتابــه أنه اعتمد علـى المراجع الإسـلامية الأصيلة وبخاصة كتاب «الطبــرى».. إلا أن ما حواه كتابه من أخبار وروايــات بنى عليها الكثير من آرائه المضللة، أظهرت بوضوح اسـتقاءه تلك المعلومات من مراجع مشبوهة غير إسلامية وتخالف الحقيقة.. والأمثلة على ذلك كثيرة، كذكره هدم عمرو بن العاص للكنائس وذبحه أهل الفيوم اعتمادا علـى مرجع المستشـرق «بتلر».. كمـا اعتمد على بعض مراجع الشـعوبيين للطعـن فى الصحابة، وأخـذ بالكثير من الآراء التى ذكرها المستشـرقون عن النبى ﷺ زورا وبهتانا.

٢ ـ ســارع «جلـوب» إلى تقديم المبرر الذى دفعه إلـى مخالفة الكثير مما ذكره المؤرخون المسـلمون الأول، من خلال مهاجمتهم سواء بالتشكيك فى انتماءاتهم وميولهم، أو برفض أسلوبهم فى التأريخ للأحداث وصدق رواتهم، بل وصل به الأمر إلى اتهامهم بعدم فهمهم لما يكتبوه عن معارك الفتح.

٣ ـ كانت الانتقائية فى اختيار الروايات أحد سـمات أسلوبه، فهو يقتطع الجـزء الذى يريده من الرواية والذى قد يدعم به رأيه، ثم يتجاهل باقى الرواية التـى قد تفند رأيه.. فمثـلا أخذ من رواية «البلاذرى» عن فتح مصر ما يسـتند بـه إلى رأيه بأن الأقبـاط فى مصر عانوا من بطش المسـلمين، ثم تجاهل باقى الرواية.

٤ ـــ وعندمـا كان يصطدم بحقيقة تاريخية جلية لا يسـتطيع الفكاك منها وتثبت أمرًا لا يود هو إبرازه، فإنه يسارع إلى اختيار أحد الأساليب التالية:

أ ـــ إما أن يتجاهل ذكرها أو الإشـارة إليها من قريـب أو من بعيد، أو يضع عبــارة مقتضبة عنهــا.. إن الدور العظيــم الذى قام به أميـر المؤمنين عمر فى الفتح الإسـلامى، هو حقيقــة واقعة لا جدال فيها، وعــداء «جلوب» لـ«عمر» واضــح لا يحتــاج إلى دليل، لذلك نجد أنه لم يشـر إلـى أى دور لـ«عمر» منذ توليه للخلافة وحتى ذهابه لتسلم مدينة القدس.

ب ـ أو يحاول طمس حقيقة الحدث من خلال تقديم ســرد مضلل يحرص على أن يكون مشوقًا للقارئ وفى صياغة جذابة.. ولعل وصفه الطريف لمعركة «اليرموك» الحاسمة فيه الكفاية.

جـ ـ أو يسارع إلى الهروب بإيجاد مبرر واه . فمثلا عندما أصبح التفوق العسكرى للمسلمين حقيقة جلية لا يمكنه إنكارها ، سارع إلى الادعاء بأنهم اقتبسوا خبراتهم من أعدائهم الفرس والروم .

٥ ـ تجنب «جلوب» عدة أمور لا يصح لمؤرخ عسكرى محترف تجاهلها :

أ ـ لم يذكر مطلقا أى رقم يحدد عدد جيوش الفرس والروم ، رغم اتهامه للمؤرخين المسلمين الأول بأنهم بالغوا كثيرا في ذكر تعداد جيوش أعدائهم . . ومن المنطقى القول بأن اتهامه هذا يعنى أن لديه الأرقام الحقيقية ، ومن المنطقى أيضًا القول بأن عدم ذكره لها دليل على أنه يلقى بالاتهامات جزافا .

ب ـ تجنب عرض المكاتبات المتبادلة بين الخليفتين ـ الصديق وعمر ـ وبين القادة الميدانيين ، حتى لا يتبين للقارئ عظم الدور الذى قاما به فى مجال التخطيط والسيطرة على العمليات العسكرية . . ولا يمكن لأى مؤرخ عسكرى محترف إتقان عمله دون الرجوع إلى تلك المكاتبات حتى تتضح نوايا القادة وأساليبهم فى التخطيط للعمليات العسكرية وإدارتها . . لقد كان تنظيم مسير القوات من المدينة المنورة إلى جبهة فارس والدخول فى معركة «القادسية» معلمًا رائعًا من معالم الفن العسكرى ولا يصح لخبير عسكرى كـ «جلوب» أن يتجاهله . . وبالمثل كان التخطيط لفتح الشام ومعركة «اليرموك» عملاً عسكريًا فذًا لا يصح أن يستبدله «جلوب» بقصة الريح العاصفة .

جـ ـ رغم إشارته على استحياء أحيانًا ، وبغضب أحيانًا أخرى ، إلى امتلاك جيوش المسلمين لعنصر «خفة الحركة» مقابل بلادة وترهل جيوش الروم ، وأن خفة حركة المسلمين كانت سببًا فى انتصارهم ، فإنه مع ذلك لم يتعرض بتحليل سليم لهذه الحقيقة . . بل إنه على العكس من ذلك ساق مبررات لا يمكن لأى رجل عسكرى قبولها حيث عزاها إلى افتقار المسلمين للتدريب ولأسلوبهم العفوى فى القتال . . لقد كانت خفة حركة الجيوش ابتكارًا إسلاميًا وثمرة جهد وتطور رائع فى مدرستهم العسكرية وبلا شك أنهم درسوا وحللوا أساليب قتال أعدائهم وهو أمر يحسب لهم لا عليهم .

د ـ كان التعاون المتبادل بين القيادات الإسلامية على المستوى الاستراتيجى للقيادة العليا بالمدينة ، والمستوى التعبوى فى جبهات القتال وحتى المستوى التكتيكى بالجيوش الميدانية والوحدات الصغرى يتم فى امتزاج وجمع خلاق بين مركزية ولامركزية السيطرة . . وكانت المبادرات



مـن القيادات الدنيا تمثل عمـلا مبهرًا اختص به المسـلمون في إدارة الحرب بخـلاف الفـرس والـروم.. إلا أن «جلوب» لم يتفهـم تلك الحقيقـة، أو لعله تجاهلها لرغبته في إنكار أي دور للقيادة العليا بالمدينة.

٦ ـــ كان «جلـوب» بالغ الذكاء فـي إيصال أفكاره وآرائه إلـى القارئ، من خلال عدة أساليب:

أ ـــ عدم عرضه فكرته مكتملة واضحـة، وإنما يذكرها مجزأة وبصياغات مختلفة، ثم يوزعها متناثرة في صفحات كتابه، ويكررها في إلحاح غريب كي يضمن انطباعها في شـعور ووجدان القـارئ دون أن يدري.. فهو مثلا، يبتكر في البداية فكرة تشـير إلى أنه لم يكن لدى المسـلمين نية للفتح، وبعد سرد أحداث تأخذ بذهن القارئ بعيدًا، يشـير بشـكل سـريع إلى أنه طالما لم تكن لديهـم نيـة للفتح فإنـه بالقطع لم يكن هنـاك أي تصميـم أو تخطيط له.. ثم بعـد عدة فصول من كتابه، يكمل فكرته ويتضح هدفه الحقيقي من نسـجها، فيقـول وعلـى ذلك فإن أبا بكـر وعمر لم يخططا أو يسـيطرا على الفتح وإنه جرى هكذا تلقائيا ومصادفة.

ب ـــ ولأنه رجل عسـكري، فإن «جلوب» يؤمن بأهميـة الهجوم المباغت الصاعـق.. ولقد تبناه في بعض فقرات كتابه.. فهو يقوم بحشـد كم هائل من المغالطات في فقرة واحدة حتى لا يدع مجالا للقارئ كي يصل إلى الحقيقة.. فهـو يهاجم القارئ ليشـل تفكيـره ويمرر من بين ما حوته تلـك المغالطات، فكرة واحدة يبني عليها العديد من الآراء فيما بعد.

جـــ أما أسـلوب «جلوب» البارز، ونحن نشـهد ببراعته فيـه، فهو إتقانه فـن الهمز واللمـز والتلميح دون التصريح.. ومن المحـال حصر الأمثلة التي امتـلأ بها كتابه.. فلقد عمد إلى هذا الأسـلوب لإلصاق مـا يريده من أوصاف بشـخصية الرسـول ﷺ وأعماله.. وكالتلميح بأن الصديق اتخـذ قراره بدخول الحرب طمعًا في الغنائم والأسـلاب.. ووصفه عمر بالحدة وبأنه كان يحسـد قادة جيشـه ويغار منهم بل وبالطعن في عدالته، ووصل به الأمر إلى التشكيك في صدق إيمان خالد بن الوليد.. ولمح إلى أن قادة الجيوش من الصحابة كانوا يتحاسدون.. والأمثلة كثيرة كثيرة.

٧ ـــ كان من الطبيعي أن أسـلوب «جلوب» يوقعه فـي التناقضات.. وكان يحـاول بـذكاء الخـروج منها مـن خـلال وضعه صياغـة حمالة أوجـه يمكن إعطاؤها أكثر من تفسـير.. فمثـلا تأكيده الدائم على أن «الحماسـة الدينية» كانت السـبب في الفتوحات كما أنها كانت أيضًا السبب في النصر، تتعارض

تمامـا مع اتهامه للفاتحين الأول بالجهل بدينهم والطعن في صدق إيمانهم. . ولما شعر هو بهذا التعارض، أعطى تبريرًا مبهمًا.

تقييم عام وتوصيات

١ ـ هناك جانبان إيجابيان في كتاب «جلوب»: الجانب الأول: هو نجاحه في سـرد أحداث الفتح الإسـلامي بتسلسل تاريخي سـليم ومترابط، كما قام بتحليـل جيد في بعض المواضع. . أما الجانب الثاني، فهو أنه أعطانا نموذجًا مثاليًا لأسلوب المستشرقين في عرضهم للإسلام. . وأعتقد أن كتاب «جلوب» يسـتحق بجـدارة أن يصنـف في إطـار الجهـد الاستشـراقي أكثر منـه تأريخًا عسكريًا للفتوحات الإسلامية. . وللأسف، إن أكثر من تأثر بآرائه من العرب، هم العسكريون، وبخاصة العلمانيون منهم لقلة حصيلتهم من المعلومات عن التاريخ العسكري الإسلامي، وهو أمر محزن بلا شك.

٢ ـ إن الصورة التي رسمها «جلوب» في كتابه هذا عن الإسلام والشخصيات الإسـلامية، بـكل ما حوته مـن مغالطـات وأباطيل، هي للأسـف الصورة التي انطبعت في أذهان قرائه وبخاصة الغربيين والتي يصعب تصحيحها إلا بجهد كبير.

٣ ـــ نلمـح بوضوح في تحليلات «جلوب» وخاتمة كتابه، اسـتمرار نظرة الاستعلاء التي ينظر بها الغربيون إلى الشعوب العربية والإسلامية.

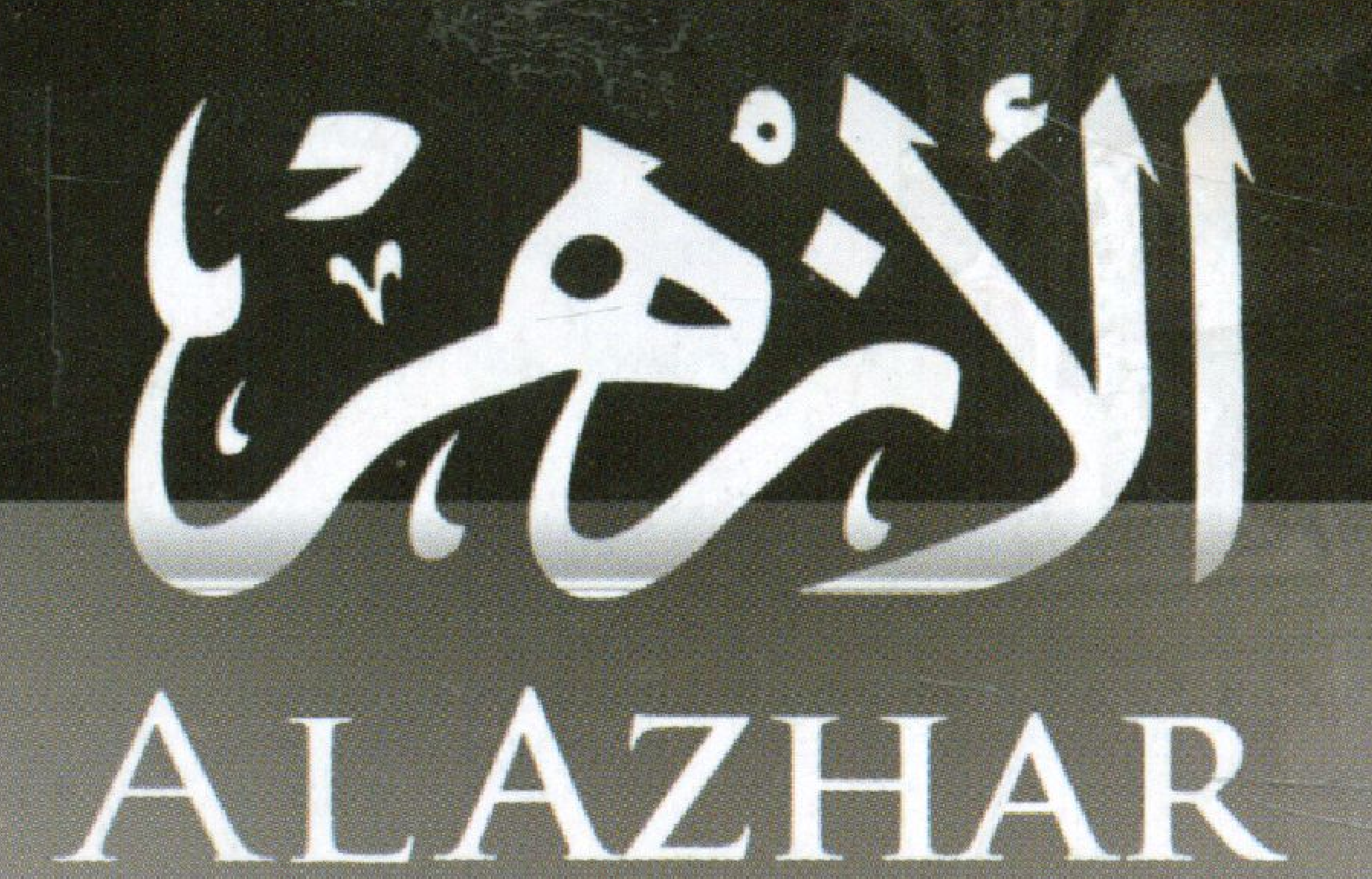
٤ ـ تعتبر المادة العلمية المدونة بمراجع المؤرخين المسـلمين الأول عن معارك الفتح الإسلامي، رغم تشكيك «جلوب» فيها، كافية للمؤرخ العسكري مع الاسـتعانة بالعديد من المؤلفات للعسـكريين المعاصرين. . ولا شـك أن أساتذة التاريخ الإسلامي هم الأقدر على نقد آراء «جلوب» في هؤلاء المؤرخين الأول ومراجعهم، :إلا أنني حاولت بقدر اسـتطاعتي. . وأعتقد أن تحقيق تلك المراجع مهمة غاية في الصعوبة، لا يستطيع غيرهم أن يؤديها.

٥ ـ لقد اقتصر بحثي هذا على الفترة القصيرة الحاسـمة للفتح الإسـلامي وهـي بيـن عامي ١٣هـ و٢١هـ، وهي تمثل جـزءًا مما حواه كتـاب «جلوب» الضخـم. . وهو مـا يعني أن المجال مايزال متاحًا أمام المؤرخين العسـكريين العـرب كي يسـتكملوا العمل ويسـتخرجوا الكثير من الدروس المسـتفادة وخبرات القتال في معارك الفتح الإسلامي.

ولعل خير ما أختم به، الحديث النبوي الشريف: «الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها فهو الأولى بها».

تـم بحمد الله

الفهرس



MAGAZINE

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر ربيع الآخر ١٤٣٥ هـ

www.AlazharMag.com